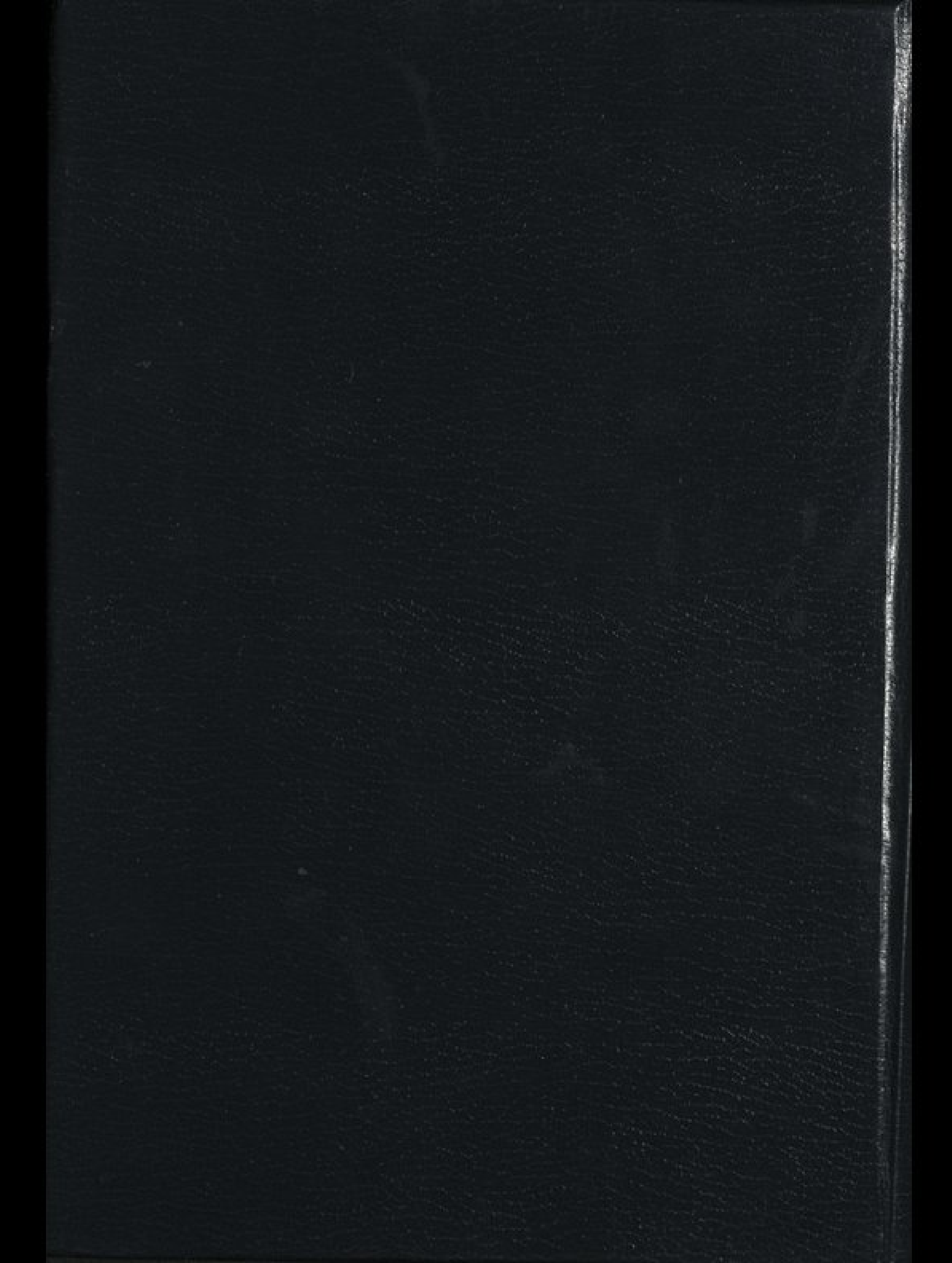


الانسان، ذلك المجهول

للدكتور كاريل

مع نظرات ودروس بقلم :

الأب بولس سويد المخلصي

استاذ الادب العربي في المدرسة البطريركية - بيروت

وعليه مقدمة عربية بقلم الاستاذ :

امين بك نخله

الطبعة الاولى

١٩٤٠

مطبعة الرهبانية المخلصية
صيدا — لبنان

المقدمة العربية

لكتاب كارّيل

بقلم الاستاذ الكبير امين بك نخله

كان من الوقوع بلا قصد ولا انتظار أن يُلقى اليَّ هذا الكتاب في بيروت ، في اعقاب فصل الربيع ، فلا أحرّك ورقة منه في عاصفة المشاغل ، وأن يستهلّ الصيف ايامه ، بُعيد ذلك ، وبطيب الزمان في الجبل فانزل هذه الضيعة ، بين المنابت والمزارع ، في وادٍ قصيّ من اودية « الشوف » ، ويكون أوّل ما يخطر لي أن أشقّ الكتاب على عين وظلّ ونسيم – كأنّ هذه الفلسفة الكارّيليّة الهانئة أحقّ مكان بها هذه الطبيعة الريفيّة الهانئة ، أي عزلة لعزلة وصفاً لصفاء ! أُدير عينيّ من كتاب كارّيل الى كتاب الطبيعة فاذا الصحيفة لم تتبدّل واذا الخاطرة لم تنقطع . . .

وكان من ذلك ، ايضاً ، أن تكون قدمتي الى هذه الضيعة بعد فرقة طويلة وحدثان كبار ، وأن اكون صرفتُ فيها – والعُود بعدُ أخضر – اي منذ واحد وعشرين عاماً حقبة لم يكدرها مكدّر من تكاليف العيش . فكنت وراء الغابة العميمة ، او عند الحقل المترامي ، بعيد الذهن عن ذلك الحريق الاوروبيّ العظيم الذي رجّت له يومئذٍ كرة الأرض ، أنزلُ على الفلسفة في خزانة كتبها !

وهكذا يتّفق لي اليوم أن اعود الى (المطيلة) ، حيث لا تبرح آثار اصابعي سالمةً من المحو ههنا ، في الكتاب القديم . . . وأن تكون أوبتي اليها بعد أن تصفّحت الف كتاب !! بل يتّفق لي أن اجلس الى عين الماء التي تنبع هنيئاً من مهجة الحجر – على مثل عهدي بها من قديم – والحريق في اوروبة يكاد يتعالى دخانه عند ابواب (بولونية) ، تحت القسطل الالماني !

فعلى ثلاث خطوات من مكتبة الطبيعة في (المطيلة) أجلس الساعة ، وهذا الكتاب في يدي . فكأنّ الزمن قد نكص على عقبيه ، وعاد الفتى الذي كان يجلس هذه المجالس في خضرة العمر ، تحت الشجر ، الى طيب الصبا وخلاء الخاطر ! بل كأني به ، بعد ان طوّف في كلّ وجهة على سواحل الفكر وسلاسل جباله ، وعرته حرارة

السمي ، قد جاء يلقي العصا ... فهو الآن في دار الدعة وجام القلب يراجع فهرس همومه ! فاذا آلاف الكتب التي علقت بصدره والتحمت بعقله ، بعد طول المكابدة في عالية النهار وسافلة الليل ، أخلاط معرفة تضطرب في الثقة وتتلاشى في الظنّ ، بينما لا تزال هذه الطبيعة في كتابها الفريد متّصلة السياق غير منفسخة لعارض . واذا صاحبنا قد تحفّظ صنوف المعارف وتدارسها في الورق بينما اهل الفلاحة ، هؤلاء ، لم تُشَبْ اصابعهم بسواد الحبر ... فهو يكتب الفلسفة وهم يعيشونها ، وهو ينظر الى الدنيا من صحائف كتابه وهم يشرفون عليها من نوافذ بيوتهم ! !

...

في هذا القنوط من الكتب أقبل الآن على كتاب كارّيل ، وفي هذه العزلة عن التفكير افتح على نفسي باب الفلسفة – والدنيا من حولي حلوة خضرة ، والرغد مخيّم ، والزمن وادع ، فما لي انحدر الى هذه الجنّة وفي يدي كتاب ، فكأني انقل النار اليها؟ ! ولكن اسم الكتاب يكاد ينظر الى معنى السأم من الكتب ، ومن دوران العقل ولفّه حول المعرفة . اذ القول ان الانسان ما فتئ مجهولاً الى ساعتك ليس يسيراً في باب المرية في العلم والتبرّم به – على ان المصنّفات الاصوليّة التي أصدرها (هاشيت) ، مثلاً ، في فنّ التركيب البدنيّ ، في هذا العام ، هي برأسها مكتبة . فكاريل ، اذنْ ، يوافيني الآن على ميعاد !

وكارّيل « ليس فيلسوفاً ، وانما هو رجل علم يقضي الشطر الأكبر من وقته في المختبرات ، يدرس الكائنات الحيّة ، ويصرف الشطر الآخر ضارباً في ارجاء العالم الواسع يراقب الناس عن كثب ، محاولاً ان يلمّ بهم ويفهم » . أي انه رجل لم تشفِ الكتب صبابة نفسه ، فجاء بنفسه يكتب كتاباً يشفي صبابته به ! فلا اوضاع اصوليّة ولا طرائق ولا قرارات من تلك التي تُحاط بالتبجيل وتُصان عن الأخذ والردّ ويُقال فيها نتاج قرائح ومحصّل عقول – كأن العلم قد انتهى الى عاقبة ! واذن فقد توافقنا ، واذن فقد طابت الرفقة من اوّل الكتاب الى آخره .

وعسى القارئ ان لا يحسب ان المؤلف يحاول الاهتداء الى سرّ الحياة – وتزيد بسرّها ، ههنا ، ذلك المعنى الذي تكسّرت القرون في نطحه ! فالذي يهتف في عنوان الكتاب ان الانسان ما برح مجهولاً الى اليوم ، اي ان الوف الألوف من نوابغ الطينة

البشرية ، من الذين تقدّموا على البحث في فكّ ذلك المعمّى ، لم يظفروا بطائل ، وظلّ معمّـى الى اليوم ، فمن هتف هكذا اولاً لا يصحّ له بالتالي ، وأستغفرُ تواضعاً ان ينطح قضيةً طبقتُها فوق طبقة العقل — في حين ان علم العلماء بعجز العلم عن النهايات التي لا تُلحق يفضي بهم الى التواضع . فكاريل بعيد عن ذلك المعترك ، وانما هو منه في نقطة تتّصل الى موضوعه بالتسمية لا بصحّة وقوع الاسماء على المسمّيات . فيقول : سرّ الحياة ، ولكنه يريد إرجاء الهَرَم ، وجعل حظّ النفس فوق حظّ المادّة ، وصرف العلم عن الميكانيك والطبيعيات والكيمياء الى الجسم الانسانيّ ، وهلمّ جراً — ولقد تقدّم لنا ان الرجل لا ينتهج مسلك الأصوليّين في إطلاق المصطلحات وحذو الطرائق ، ومن هنا تعلم ان هذا المؤلف وهذا الكتاب من غير ذلك القبيل .

وبعدُ فالكتاب في جملته يدور على ان هنالك عالَمين : الواحد روحيّ والآخر ماديّ . حاول العلم ، منذ أوغل الأدوار في القِدَم ، دخول الأوّل وجَوس خلاله فحاول عبثاً ووقف منه بالعتبة . واما الآخر ، الذي يمثل في إحجامه من جبال وسهول وبحار ، فقد كُشفت اسراره وأحيط بنواميسه ، وما برح العلم ينقل فيه الخطوة بعد الخطوة . وان هذا البشريّ الثاني قد علق العالم الماديّ لكونه ظاهراً له ، يراه بعينيه ويأخذه باصابعه ! وأعرض عن العالم الروحيّ الذي لا يبين له عن ذات نفسه . ويشنّع كاريل على هذا الضلال الذي انتهى اليه العقل ، ويردّ بلاء الحضارة وتلاطم اشيائها بين الطمع والبطش والتنافس الى هذا الأصل . والدواء عنده ان يولّي العلم وجهه ناحيتَيْ العقل والجسم ، شاخاً عن المادّية والميكانيك ، سالكاً في حيث لم تُنقل بعدُ قدم .

وهو كلام في الفلسفة الروحيّة ، وفي علوم الاجتماع والأحياء ، غاية في الصواب . بل هو طويل الأطراف — كما يقال في كتب الحديث — يصحّ ان يُفتل منه صواب آخر لفلسفة الحقوق الدولية . اذ ان الفتنة الكونيّة الجارية بين بقعة وبقعة ، بل بين قارّة وقارّة ، ترجع في مبدإ الحال الى طمع في معدن حديد ، مثلاً ، او منبع زيوت ، او منبت غلال ، او مـأخذ بأفواه السكك على أرض أو بحر (وسيأتي يوم تقول فيه : أو جوّ !) . وذاك وشبهه يقعان كلّ يوم ، وتبثّ اخبارهما الجرائد ومحطّات الراديو في آفاق الأرض ، فلا حـاجة معها الى اقـامة الدليل . وهو الأمر الذي

اضطربت به جمية (جنيف) في قضيّة السلم، وحارت كيف تجد وجه السداد — فاما مداواة الطمع بالطمع والضغط بالضغط فانها لا تفضي الى شفآ.. اذ لا بدّ في دوران الايام بالأمم ومصايرها بالممالك من قويّ يضعف وضعيف يقوى ، فتعود المسألة بين مبدئٍ ومعيد وآخذ ورادّ الى ما ليس له قرار .

وهكذا تجد ان كارّيل أصاب الحزّ في ما يتعيّن من ترك علوم المادّة والعناية بعلوم الأحياء، مستطرداً الى الانتصار لحظّ النفس والعقل في مشتبك الحضارة القائمة، ملمحاً في ألطف المعاريض الى العواقب التي انتهت اليها المادّية ، واصفاً الزيغ والتسوية معاً ، حتى يكاد يكون هذا الكتاب نادر النظير في تصانيف علوم العقل ، على ما أوخذ به من الايجاز الذي يصل ، في بعض المواضع ، الى حدّ اللّمح – وانما هو كتاب إجمال لا كتاب استقصاء ، تُرى منه هذه الحقائق من منفذ ضيّق، طبعاً. وقد كان لا بدّ للمؤلف ، في كتاب ينظر الى أبعد الأغراض في العلم الروحيّ وفي فلسفة الاجتماع – عدا ما استُطرد فيه من اثارة الى اثارة – من استعمال طائفة من الألفاظ العلميّة التي لا قِبَل لكثير من الخواصّ بها ، ناهيك بالعاميّ وبالمبتدئ الشادي ! فالمؤلف ، على تباعده عن النسق الاصوليّ ، لم يكن له مخلص منها . فانما هو ، بعدُ، بصدد علميّ واجتماعيّ هذه حروفه الخاصّة به، وهذه قوالب الأدآء التي لا يُستطاع طرحها في جميع مواطن القول فيه .

ويا ليت شعري! أيخرج الى الفعل هذا الصواب الذي يفضّله كارّيل ، فتنحطّ كفّة الروحيّة وتشيل كفّة المادّيّة ، ويُعنى العلم بمواجيد النفس ولذائذ نعيم العقل بالتنقيب والكشف ، بعد ان استغرق في خدمة المادّة وهموم الحواسّ في حضارة الميكانيكيّات والطبيعيّات والكيمياء القائمة ، وتؤول هذه الزعازع الى ركود ، فيُطمس على الطمع والزحام والايقاع ، وتهبّ على كرة الارض نسمة الرخاء ؟!

لعمرك ان ذلك الأمل السائغ لا يستحيل جوهره في العقل ، بل يستحيل تحقيقه ، لأسباب ، منها : ان الانسان مطبوع على الترف وتطلّب مناعم الحواسّ . وذلك تكفله المادّيّة ولا تكاد تلتفت اليه الروحيّة . ومنها : ان العلم الروحي يتعلّق بما وراء العقل ، في حين ان العلم الطبيعيّ يتعلّق بما هو دونه — والانسان

من فطرته كَلِف بما يعلم كاره لما يجهل . ومنها : ان ترقّي امة في العلوم والفنون وانحطاط أخرى عنها يدفع بالاولى الى طلب البحبوحة ، في جميع مرافق الحياة ، على حساب الثانية – أضف قضيّة الكثرة والقلّة والمدَجج والأعزل وفضل أرض لأرض ولون للون في الجلدة الآدميّة ، الى آخر القصّة التي لا تنتهي . . . وليس ذلك بأول صواب يقرّه العقل ويكون نقيضه هو الحاصل ، بل هو السنّة المعتصم بها التي يعضّ عليها البشر بالنواجذ ! في الاجتماع الانسانيّ لذلك امـاثيل متعدّدة لا تختلف فيها مفاهيم قدماء عن مفاهيم محدَثين، ولا مفاهيم جمهور عن مفاهيم رجل واحد .

* * *

وهذا الكتاب عالميّ ، بمعنى الانتشار وتطاير الصيت في الخافقين . فقد نُقل الى ارقى لغات البشر ، واحتُفل به في أعلى طبقات العلماء . اما العربية فاوّل عهدها به هذا اليوم .

واذنْ فللأب « سويد » عند أهل اللسان العربيّ خدمة بارّة – وقد أسعفهم بحاجتهم ، وجاء عند الظنّ به في كفاية أمر الكتاب ، باسلوب نُزّه عن القلق واللّبس والترك لمقتضى اللّغة – يعرف قدرها من يعرف قدر ما يعاني كاتب عربي يتجرّد لتعريب هذه الممتعات العلميّة المحدَثة ، وهو الذي لا يزال ، على ما انفتح للغة قومه من بابي الاشتقاق والنحت ، بين مسمّى لا يُدلّ عليه باسم، ومعنًى لا يؤدّى بمرادف .

وقد لحظ الاب « سويد » صعوبة نقل الكتاب ، بالحرف ، الى العربيّة ، ورأى ان الاصل نفسه يحفل بمصطلحات أُدخلت في الفرنسيّة ، ولا تكاد تأنس بها لغة (راسين) الى اليوم ، فكيف بالاستقلال بترجمتها الى لغة (الجاحظ) والاصطلاح على مرادفها ! فعمد الى تلخيص خاطرات المؤلف تلخيصاً ضابطاً ، ملتفتاً فيه الى اضأل الدقائق وأبعد التفاريق ، ثم صبّ الجملة في تفريع وتتابع ورصف ، حتى عاد هذا الموجز وهو أقرب ما تقع محاكاة نقل لأصل .

وعطف طويلًا على ما يتّصل بأطراف كلام المؤلف من شؤون البيئة الشرقيّة ، وعلى ما يُذكر بذلـك ويؤخذ بأخذه من مختلف احوالنا في هذا المقام، فاستطرد استطراداً أخرجه من (موقف الدليل من المتحف) الى موقف

الدليل منه ومما تطلّ عليه نوافذه من قريب وبعيد ، فضلًا عن اجالة قلمه حيث ينبغي تقليب الرأي في نظريّات المؤلف على الاجتماع الانسانيّ عامّةً وتخليص حقائقها واستخراج مخبّآتها والاشارة الى نادرها ومقيسها – فكأن الكتاب كتابان لا واحد ، وكأن المؤلِف مؤلِفان !

وحيّاه الله ما اجمل حفاظه وأوثق ذمّته واعرفه بنصوص الأثبات وهو يدافع بين يدي المؤلف عن حصّة الشرق من تاريخ الفكر ويشيد بفلاسفة القطعة الصفرآء من خريطة الكون ، وهم الذين بيّضوا وجه الجنس الانسانيّ في علوم المنقول والمعقول ، ووضعوا آساس التفكير في المكشوفات والمغيّبات ، واحاطوا بجلّ ودقّ وكثر وقلّ ايام كانت اوروبة نفسها في جاهليّة لا تميّز فيها بين الليل والتراب ! فقد نعى المؤلف على اساطين الحكمة في الشرق الاقصى معالجة علم العقل واستبطانهم جوهره ، وزعم ان ما انبثق لهم من أعطافه ومكاسره ليس الّا أخيلةً صوفيّةً فانية لم تخرج الى التمحيص . وهكذا تجد ان العلّامة كاريل – على اعتزاله الفئة المتحذلقة ، من علمآء الافرنج ، من الذين اولعوا بنقض كل حجر من بنيان التاريخ المشرقيّ ، حبًّا لاسلوب التشكيك في الحوادث المقرّرة وهوساً بالاتيان بشيء جديد ، الى غير ذا وذا من الاسباب ، حتى كاد ينتهي بهم القول الى ان هذه الشمس من الغرب تطلع ! – فكاريل على انزوائه عنهم في كلّ شيء ، وعلى انه النضيج الراسخ العالي المحلّة في مجد العلم ، ما سلم قلمه من تلك الحزازة الاوروبيّة !

الّا ان هذا الكلَف لا يعيب هذا القمر ... فالكتاب في جلالة اغراضه وطرافة مباحثه ، وفي وضعه المحكم ، وفي تلخيصه واستيفائه وسهولة متناوله ، لا يُلزّ به نظير في بابه . ولسوف يشرق غداً بعد ان غرب ، وهو في خير كسآء من لغة قومنا ، وينزل منازله بين ايديهم ويجري في ترادف النعم على لغتهم .

« المطيلة في آب ١٩٣٩ »		امين نخله

الانسان ، هذا المجهول

أو

مدنيتنا القائمة في نظر العلم

للدكتور النطاسي ألكسي كاريل

مقدمة ودرس

من باهرات الغرب التي غمر شرقنا بها بعد الحرب الكبرى الكتب . فلقد والاها علينا مواكب متماوجة ، وكتائب غازية ، تتدافع الينا على صفحات الماء ، ومناكب الهواء ، فأتيح لها النصر وملأت مكاتبنا الكبرى وجوانب الصغرى وجازتها الى الدور والغرف فملأت فسحاتها، فأنت ترى رفوفها المنضودة المتراصة فتأخذك الحيرة حقاً في ايها تقرأ ، وقد راعتك جميعها وتبدت لك بجمال وضعها وطبعها !

ثم تنظر فترى الشرق قد أقبل عليها بألوانها كلها واختلاف طعمها ، وطيب منزعها ومقطعها، اقبال المتهالك جوعاً يصيب منها ولا يفكر الا في الاكثار من لذائذها ما استطاع ، وهي جديدة في عينيه في كل شيء ، ولكل جديد لذة ،فكيف ينصرف عنها ، أشوق ما اقبل عليها ، هو يصيب منها ولا يهمه بعد شيء . فعلى الله الاتكال ! ثم ينثني فيحس أسرع ما ارتد بشيء يثقله ، ويؤلمه ، فيتلوى شاكياً ، وليت ألوان ذلك الجديد الجميل تسكّن عنه قليلاً مما يلاقي ، بيد أنّ له عزاء الجديد ولذة طعمه وان آلم وهاض .

وكان للغرب في شرقنا فتح في كتائب اسفاره ، ومبدعات خواطره ، وآيات حضارته ، لا يقلّ شأناً ولا خطراً من فتحه بسرايا جنوده، وأساطيل مائه وهوائه ! بل لا

تحسبني أذهب مذهب الاغراق ان قلت انّ فتحه بكتائب أسفاره أعظم شأناً ، وأبعد أثراً ، وابقى على الدهر من فتحه المادّيّ الجبّار ، وشتّان بين من يفتح ملك القلوب ومن يفتح ملك البلاد ! فها انت ذا ترى ما فعلت فينا اسفارهم كيف قلبتنا رأساً على عقب ، وبدّلتنا غير ما كنّا ، في خلائقنا ومرافقنا ، فغدونا نسكن بيروت ، ودمشق والقاهرة ، وبغداد ، وكأننا نستوطن باريس ، ولندرة ، وروما ، وبرلين ، فنذهب مذاهب اهلها ولا اقول في عوائدهم وخلائقهم كلها ، وانما فيا نبا منها ونَشَزَ غالباً فنحب ان نلبس لباسهم الانيق ، ونزين دورنا وأبهاءنا على شبه ما نراه عندهم ، ونتعود عوائدهم أيّاً كانت ، أألفها ذوقنا وادبنا في الشرق أم لا سواء عندنا ! فنقرأ الكتب على اختلافها ونَكْلَف بالقصص الغرامية المغرية بالفساد والشعر الداعية الى الاباحة ، ونترك جانباً الرصين العالي منها المقوّم أوَد الاخلاق المهذب المدارك . ونتهالك على دور السينما . نتعرف الى ما لا نعرفه وما لم يعرفه آباؤنا وأجدادنا ! وسرعان ما تطبع فينا صورها المتحركة فتونها وتَبُثُّ اغراءها فننفذُ السير ولكن الى اين ؟ الى حيث ترفرف الفراشة ، الى احراق الاجنحة ، وصَهْر النفوس والجسوم .

ولا تخلني أنحي باللائمة على مجتمعنا في تمثّله بالغرب وتشبّهه به وانما في أخذه عنه ما لا يستوي وأخلاقنا المعهودة ، وآدابنا الراسخة ، وطابعنا الشرقي ، فأوروبا اليوم المنار الاعلى المدنية في الدين والعلم والادب ، وأدبها القائم أدب الانسانية ، ومصباحها متلألئ ساطع ، كما يقول طاغور ، فلنأخذ من شعاعه ولنهتد بهديه : فلعلّنا نعود سيرتنا الاولى ويثوب الينا طامحنا القديم العظيم ، وآمالنا الواسعة ، وهذه الثقة بالنفس التي فقدناها وذاك الجدّ المثمر ، وذلك الدأب الذي كان مضرب المثل في العالمين . ولا أحبّ ان أعيد عليك أمثولة هي ملء السمع والبصر ، فأشيد بمفاخر آبائنا الاقدمين ، وأمثّلهم لك تمثيلاً تلمس منه عظمتهم ، ونبوغهم ، ولكني أحبّ أن الفت نظرك لتقرأ أنت بنفسك وتعرف أن هذه الحضارة الغربيّة الجديدة القائمة ، هي وليدة الحضارة الشرقيّة القديمة الذاهبة ، وتعود ادراجك الى العصور الاولى فالمتوسطة ، فتأخذ عيناك

جمال الشرق ، وترى نبراس المدنيّة يشع من بيروت ، وصور ، وآثينا ، وطيبة ، وبغداد ، ودمشق . ولا تعجب فأهرام مصر وخالد تخيتها ، وسفائن الابيض المتوسط يوم انحدرت تمخر العباب ، وتفتح عالم الماء ، وكان من قبل لغزاً في الوجود وهولاً ، وتذهب الى ما وراء الماء حاملة الحضارة والنور ، وبعلبكّ وبدائعها وآثينا وخالداتها ، قومها من الشرق ومخلّدوها ! ولِمَ لا تذكر فلاسفة الشرق ، وعلماءه وشعراءه العظام ليبدو لك مجدُه بأعظم مآتيه ، وأبهى مجاليه ، فالياذة هوميرس ، وجمهورية أفلاطون وفلسفة أرسطو ، واختراعات أرخميدوس ، ومآسي أوريبيد ومهازل أرستوفان ، ومعاهد بيروت الحقوقيّة ، ومكتبة الاسكندرية ، كل هذه وتلك هي منار مدنيّة الغرب الحاضرة وأسّ بنائها الرفيع ، وينبوع زلالها المتفجّر !

وما لي أطيل عليك فللدهر احوال وهو لا يدوم على حال، وما اصدق كلمة الشاعر الفرنسي الكبير پول ڤاليري في «متنوعاته» إذ يجعل المدنيّات تنطق بلسان حالها فتقول: « نحن المدنيات نوقن الآن أننا للفناء . لقد كنا سمعناهم يتحدثون عن العوالم الذاهبة برمّتها ، وعن الممالك المتقوّضة مع بُناتها ومرافقها بأجمعها ، الراسبة في أغوار القرون وأعماقها بصحبة آلهتها ، وشرائعها ، ومجامعها ، وعلومها النظريّة والعمليّة ، وقواعد لغاتها ومعاجمها ، ومؤلّفيها المدرسيّين والخياليّين ، والرمزيّين ، ونقّادها ، ونقّادهم ، وكنا نعلم علم اليقين ان الارض الظاهرة قد جُبلت كلّها من رماد وأن هذا الرماد انما يمثل شيئاً .

ثم ألق بنظرك وسمعك فلا تكاد ترى شيئاً من مجد القديم قائماً ناطقاً ، ولا تسمع من يحدثك كثيراً عن بدائع مؤلفاته، واختراعاته، وهي في بطون الكتب وعلى صفحات الحجر ، أثر بعد عين . وحذار أن تصدق قول الشاعر القائل :

لا تقولوا حطّنا الدهر فما　　هو الا من خيال الشعراء

بل ان قوله لمن خيال الشعراء تصدّعه الحقيقة ويذهب الخيال هباء ! وقديماً كنا ، وفي الحق ، كما يقول مطران :

كان لنا مجدٌ نزلنا بهِ　　من السماوات العلى منزلا
وكان لا يُنكَرُ منّا اذا　　قُلنا غداة الفخر نحن الالى !

«لكنّه عزٌّ مضى وانقضى» : وانظر ترَ : «لم يبقَ شيء من الدنيا بأيدينا !» وما أقسى حكم الدهر فهل ترانا نستفيد ؟ أين منه حكم ذلك القائد المتجبر : «ويلٌ للمغلوبين !»

ثم ترتفع القسطنطينية عالية ، حالية ، على شاطىء البوسفور ، صلة محكمة بين الشرق والغرب ، ويمدّ البوسفور الى الغرب بأشعتهِ يجتمع فيها كل نور الشرق وازدهائهِ ، ويمتُّ اليه بحياة قلب الشرق فيتلاقى القلبان على المودة ، والعهد ، والصفاء . ويكون هذا الخلاط او الاتصال ويدوم على الزمان مع الاجيال الطالعة ، واذا الحضارة متنقلة ومنارة روما بعد منارة آثينا ساطعة . وتدول الحال ، وتتراخى الآجال ، فيتألق الغرب ويخبو ضياء الشرق شيئاً فشيئاً ، ويزداد سني الغرب يرمي بشعله كل مكان . والشرق ابداً في أفول . وتتوطد أركان المدنيّة الغربيّة وتطلع على الدنيا كل يوم ، في عالم العلم ، والفنّ ، والاختراع ، بكل عجيب ومدهش ، فلا أبعاد بعد ولا مشرق ولا مغرب ، الا في علم الجغرافية ، ولا أسرار ولا مخبآت ، ولا أنباء تستغرق الايام والاعوام ! فهناك اللاسلكي يصل بلا شيء أقطار الدنيا بعضها ببعض وهناك المذياع (الراديو) يطلعك على ما يجري في العالم من اقصاه الى اقصاه ، تتنقل بين عواصمه الكبيرة بلمسة يد يسيرة ، تسمع ما شئت من علم وسياسة وأدب وغناء كأنما أنت ماثل بحضرة من تسمع له ، لاتنقصك الا الرؤية وغداً تكون ، ويكون الاستشراف (*) (التلفزيون) ويقال ان المانيا ، على ما حملت الينا الصحف ، بدأت تجربةً موفّقةً ، وغداً شعاع الموت ، وغداً سرُّ الحياة ، والشباب الدائم ، وغداً قل ما شئت وأحببت

(*) الاستشراف كلمة عربية وضعناها للتعبير عن الكلمة الفرنسية Télévision ومعناها الرؤية عن بعيد ومن يتأمل في الكلمتين عن كثب يجد التآلف بين الكلمة العربية والكلمة الفرنسية .

وما امكنك تخيّلهُ فقد يصبح حقيقةً واقعةً !

هذه الباهرات التي تكاد تُعَدُّ ضرباً من أحاديث « بساط الريح » و« السندباد البحري » و«خاتم لبيك» عند القدماء، لا مجال للشك فيها ولا مساغ لتجاهلها فهي كنور الشمس في رائعة الضحى تغمرنا وتغمر جوانب حياتنا كل يوم. أجل هذه الباهرات هي وليدة مدنيّة الشرق لا يكابر الغرب في عرفانها والجهر بها وكذلك قل عن هذه الآثار العقلية التي نحبها ونستمتع بشتى لذائذها وسائغاتها ، فقد ألفناها وأحببنا أن نلقي بنفوسنا على دفّاتها ، وهي تطلع علينا بكل ساحر ومخدّر ومفيد ، أما ساحرها ، فهذا الاسلوب الجديد الذي تجيء به محكماتها ، يسحر حقاً في دقته وشموله وتحليله للنفس الانسانيّة ، وتصوره لمواقف المرء جميعها في حياته ، وللطبيعة بناطقها ، وصامتها ، حتى لا تجد فيها صامتاً بل تقول حقاً مع ذلك الكاتب السويسري : « إن كل مشهد من مشاهد الطبيعة حالة نفس ! » فليس بعدُ عالم من جماد !

وإلى ذلك الابداع الديباجة الانيقة الرائعة ، فاللغة بين أيدي هؤلاء الكتّاب أشبهُ ما تكون بالمسبك (اللينوتيب) يصب الكاتب الكلمة الجديدة التي يستحبها ؛ فيروع ، ويستهوي ، ويغري ؛ ومن هنا كانت سيطرة الكاتب وقوته ، فهو يتلاعب بقارئه كيف شآء ويبثه فيه ما يشآء ، ويبعثه دافعاً به الى النعيم او الجحيم ، فكلماته مخدر يفعل فيه ما لا يفعله المورفين ! فاذا شآء بثَّ مبادىء الشر ، وعاث فساداً ، وقدّم السم الزعاف في كأس جميلة دِهاق ، وفي لون ورديّ شهيّ ، فلا يحس الشارب بإربداده وتلويه الا بعد ان يستشف تلك الكأس وليت به ان يحطمها ! واما مفيدها فهو تلك الاسفار النفيسة التي تظهر حاملةً علمَ ، وخبرة ، وحكمة رجال الفكر وخبرة ما اختبروه وسبروه ليفيدوا الانسانية ، ويرتقوا بها في مراقي العلآء ، ويخففوا من ويلاتها الكثيرة ، وعاهاتها الوافرة ، فهم ابداً في جهد جاهد ، ودأبٍ مضنٍ في سبيل إسعادها كل ذلك بلغة تدقُّ مع الكاتب في مختلف أغراضه فينال ما يشآء ، وتجلُّ معه فلا يعوزه البيان في جلائل الامور ، بأوضاع محكمة وتعابير تكاد تكون رياضيّةً !

وما أحب أن أتركك وشأنك تفكر فيما تحب ، الا ان اجهر اليك بشيء تحققته انا وتطالعهُ انت صباح مساء ، وتود ان لا يكون فيما نحن مقبلون عليه من تجديد حضارتنا ورفع مستوانا ، يوماً فيوماً ، وعاماً فعاماً ، وهو ان شبابنا الناهض الجاد مقبل اكثر ما هو مقبل من الادب الغربي على القصة (الرومان) ، وعلى هذه القصة الملتوية المغرية التي تبعث الهوى ، وتغري بالشهوة الوضيعة وتحط النفس من عالمها الروحي الارفع الى قرارة عالمها المادي الاسفل فيسود ادنى الانسان أعلاه ، فليس بعد في الحياة وطر ، ولامغامرة ولا جهاد ، ولا ورق غار ؛ بل ضعة ؛ وذل ، وانكسار ، وعار !

ونحن اليوم أحوج ما نكون الى الخلق المتين ، والوجدان الحي ، والارادة الجبارة والدأب ، والثبات ، ومحاولة الصعود ابداً « كنملة تيمورلنك » لا يثبطنا شيء !! والى مطالعة المؤلفات الغربية المحكمة التفكير ، الاخلاقية ، النفسية والعلمية ، وإن تلوت طريقها ، واجهدت ، فنحن واجدون بعد عنائها ، بالغاً ما بلغ ، لذة الراحة وحلاوة الحكمة والهدى في الحياة . وما أشبه أمثال هذه الكتب بالجوزة الخضراء يحاول متناولها خضمها بقشرها فيجدها مُرَّة عاقدة فاذا شقها وتذوق لبابها ، استحلاها واحبها ، وكذلك هي هذه الكتب فلا زهر بيان يكتنفها ، ولا ورد صور يغمرها غير أن لذة الحقيقة والحكمة أرفع من هذا جميعه . وما أقل ما رأيت من امثالها بين أيدي الشباب والطلاب ! ولا تعجب بعد ذلك اذا رأيت اخلاقنا على ما هي عليه لعهدنا . « قل لي من تعاشر أقل لك من انت » هذا مثل فرنسي كلنا نعرف صدقه وحقَّهُ !

« وانما الامم الاخلاقُ ما بقيت		فان هُمُ ذهبت اخلاقهم ذهبوا ! »

فتخيُّر الكتب اذن امر في الواقع ؛ لا بد منه . وكلما اجدنا الانتقاء شارفنا غايتنا وهل اعظم من هذه اللذة المرء في الحياة ، ان يرى ما يسعى اليه ، ويشغل آناءه ، داني المنال ؟ واذا الفرد احسن الاختيار ، فالامة وهي تكرار الفرد ، محسنة صنعاً ، وراقية طبعاً الى مقام بين الشعوب عظيم . فالكتاب الكتاب هو الذي احبه اكثر ما

احب واخشاه أكثر ما أخشى! وليس بدع فالنعيم والجحيم منبعثان ابداً من حروفه وسطوره. وما اصدق ما قال فيه المرحوم امير الشعراء :

تجدُ الكتبَ على النقدِ كما تجد الإخوانَ صِدقاً وكِذابا
فتخيَّرها كما تختارهم وادَّخر في الصَّحبِ والكتبِ اللُّبابا
صالح الإخوان يبغيكَ التُّقى ورشيد الكتبِ يبغيك الصَّوابا!

وضالتنا المنشودة، هو هذا الصواب الذي نبتغيه في حياتنا الفردية وفي حياتنا الاجتماعية، وفي فجر حضارتنا الجديدة، وليس منا من يجهل قول شاعرنا العربي : وخير جليس في الانام كتاب!

ولا بد لي ونحن في الحديث عن ادب الغرب، وتأثيره العظيم فينا، ان احدثك ايضاً عن أثره في لغتنا العربية، فتشعر معي شعوراً حياً بقصورها وعجزها في الابحاث العلمية الخالصة خصوصاً، كأنها لم تكن يوماً لغة العلم، فلقد انحبست احقاباً عن الجري في مضماره، والغرب لا يزال يفاجئنا طالعاً بافانين جديدة، فينهال هذا الجديد في عشرات المئات من الالفاظ والمصطلحات العلمية، وكلها تعبر ادق تعبير عن هذه المبتكرات، وليس لها وجودٌ ولا ظِلُّ وجودٍ في لغتنا، وتحتم علينا الحياة الحديثة مجاراة الاقوام الغربيين لنكون احياء، والا فنحن اموات في صورة الاحياء، ولا بد من عتاد لهذه الحياة الحديثة، وعتادها قبل كل شيء اللغة نتوصل بها الى نقل العلم والحضارة، وبثهما بين الجمهور بلغة يفهمها ويسيغها حتى ترتقي مداركه، ويرتفع مستواه؛ وهل من ضرورة اشد من ضرورة عقد مجمع علمي تكون غايته الجوهرية القيام على اللغة وتقدمها واكتنافها كما يكتنف البستاني شجره، فيزيل جافَّهُ، ويتعهد أخضره فيرفُّ مورقاً ويونع ثمره؟ واللغة ان هي الا شجرة تسقط منها ورقة، وتنبت ورقة، فيجب اكتنافها. وهي الامة بأجمعها بماضيها، وحاضرها، ومستقبلها، فلا بد اذن من مجاراة المدنية والتعبير عنها بالالتجاء الى اللغة ومعالجتها، وايجاد اوضاع لهذه المسميات الكثيرة بالوضع، او الاشتقاق، او النحت، او المجاز أو الاستعارة، او اتخاذ الكلمات

الاعجمية نفسها واشتقاق افعال ومصادر لها، فتزداد اللغة ثروة وقدرة على مجاراة الحياة والتعبير عنها وتفسح المجال لبلوغ كمال الفكر عند العلماء والادباء والشعراء بل في الامة جمعاء !

ولقد قام بحمد الله ، مجامع لغوية متعددة، وكان بدل الاربعين مئات من الخالدين! فأخفقت وما أجدوا الا قليلا ، فلم يكن جلهم اهلاً للاضطلاع بهذا العبء العظيم ، والامر الخطير ، ولم تدم تلك المجامع طويلاً لحسن الطالع ، وحسن حظ العربية ، وهل اقول غير هياب انها قامت وماتت ولم يسر الى الجمهور شيء من حياتها وموتها ولم يحس بها ؟ ولم يُجدِ الا جهدُ افرادٍ افذاذٍ وقفوا حياتهم على خدمة اللغة وتعزيزها . وماذا تريد من مجمع علمي قائم ينتظم للبحث والتنقيب، والدرس ، وعيناه الى باهرات الغرب، وما يترامى الينا من زاخر علمه وفنه امواجاً اثر امواج ثم ينثني بعد ذلك الجهد والاجتهاد والاستغراق الطويل بألفاظ نابية مهجورة يمجها الذوق السليم ، وتتفادى منها الاذهان والآذان كارهة مشمئزة ، وحسبك ان تذكر الارزيز (التلفون) والدويدات (المكرونة) والشاطر والمشطور والكامخ بينهما يعني الصندويش ! وسواها، لتسري فيك هزة عنيفة ولا ادري ايضاً ماذا ! لقد صدق حقاً من قال :

هم في الأواخر مولدًا　　وعقولهم في الأولين !

وقد ضرب لنا كبار رجالنا مثلاً طيباً فكلمات : المجلّة، الرّئية، الدرّاجة، الجرثومة وسواها لفقيد اللغة العظيم المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجي وغيره ، آية في سمو الاختيار ، وسلامة الذوق ، وسعة الاطلاع وكذلك امثال الفاظ : الصحيفة ، الجريدة، الصحافة، المرقب المجهر ، السيارة ، الآنسة الى طائفة صالحة جميلة تسيغها لهاة اللغة، ويحسن وقعها في الآذان فتدخلها بلا استئذان !

ولا يصلح الامر وتنبعث اللغة من جمودها ويأسها الا اذا تولاها وحرص عليها جمهور الشباب المثقف ، وأفذاذه اللامعون ، ولكن يا ترى هل نجد هذا الجمهور اليوم ؟ وأين هو ؟ وأكثر شباننا منصرفون الى إحكام اللغات الاجنبية وترك لغة البلاد

ومجافاتها لا يقيمون لها وزناً ! فاذا وُجد هذا الجمهور الميمون ، والرجاء ان يوجد ، أخذت اللغة في مجاراة اللغات الغربية الراقية فما تأتي سنوات حتى تغتبط بتحقيق مُهمامات لا تتحقق على غير سواعد الشبّان النابغين ! وحينئذٍ نستطيع ان نقول جهاراً اننا أمة لها مكانتها ولها تاريخها قمينة بأن تحيا موفورة الكرامة !

هذه الخواطر نبهها فيَّ كتاب : « الانسان ، هذا المجهول ! ... » للدكتور النطاسي العبقري ألكسي كارّيل Alexis Carrel فاذا لم تتساوق ، فليأخذها قارئي ، على انها خواطر نثار ، تدور حول الموضوع في أبعاد مختلفة ، ولكنها كلها تمت اليه بصلة وهي منه بسبيل . فاني لم أتمالك حين قرأت الكتاب من الاعجاب العظيم به ، وبمؤلفه العبقري ، ومن الشعور ، كما أسلفت عليك ، بثنات الاوضاع والمصطلحات العلمية . وليت شعري ! لا أدري ماذا يكون مبلغ جهدي اذا تبسطت في الحديث عن الآثار التي تركتها في صميم نفسي مطالعته اللذيذة . وأنا أوثر ان أشرك بها قومي فيتذوقون كما تذوقت لذة طرائفها . وسيعرفون كيف تكون العبقرية وكيف تكون دقة الدرس ، ونفوذ النظر ، وسبر أغوار الحقائق ، والاستقراء المحكم للمجتمع الانساني في مناحي مدنيته القائمة والخلوص الى حكم جريء رائع !

والدكتور كارّيل هو من أعلام الطب ومشاهيره في العالَمَيْن . وهو فرنسيٌّ دعاه معهد روكفلر الطبي اليه ، فلبى دعوته ، وانصرف الى أبحاثه وتجاربه التي يعرفها له جلة أهل العلم ، وحسبك ما لمعهد روكفلر من الشهرة العالمية العظيمة . ويحاول الدكتور كاريل الآن الاهتداء الى سر الحياة ، لتجديدها واطالتها ما استطاعت الطبيعة ، وارجاء الهرم أو ازالته ، فيظل الجسم والعقل في شدتها وصفائها ويكون الشباب الدائم ! !

ونحن حين نسمع هذه الانباء نستضحك ، وتطفو على شفاهنا ابتسامة تتجمع في ثناياها معاني المستحيل ، والتهكم ، والانتظار ، ولا أدري أيضاً ماذا ! وقد كان الناس قديماً يلقون بها أولئك العلماء الذين يدفعهم حب الاكتشاف الى التحدث عن خوالج نفوسهم ، وما يخامرها ويضطرب فيها ، من عظيم المنازع والمطامح ، ولا يزالون على

هذا حتى تفاجئهم حقيقة ما اعتقدوا خرافة ومستحيلاً مفاجأة ما كانت في حسبانهم ، وصيحة ارخميدوس : « لقد وجدت » ! لا تزال ترن في مسامع الاجيال !

فاعتقد خيراً بهؤلاء الافذاذ أبطال العلم، وشهدائه ، فلقد حولوا المستحيل وحذفوا لفظه من معاجم اللغة والطبيعة ايضاً كما كان يود نابوليون ! وكانوا لعمري أحق القادة بغار المجد ، واكبار الشعوب . وإنك لتجد صدق كلمة كاريل فيهم : « ان بين أشياء الطبيعة وبين أفراد أفذاذ لصلات دقيقة غامضة، حتى ليُخيَّل انهم يرتفعون سامين أبداً، فيدركون الحقيقة التي ينشدونها، وكبار الملهمين في العلم، والفن، والدّين، في وسعهم ان يدركوا حق الادراك سنن الطبيعة ، والتجريدات العلمية ، والقضايا الفلسفية ، والجمال الاعلى ، والخالق ! » ولا عجب فهم تكاد تكون لهم قدرة الحية في حذق جنانهم ، ومسّ بنانهم ، ومُرْهَف مسامعهم !

ولا تظن ان الدكتور كاريل مأخوذ بعظمة مدنيّتنا ، وباهرات اكتشافاتها ، يطربها ويُغرق في ثنائها ، بل إنك لتراه على عكس ما يخيّل اليك ، لاول وهلة ، فهو يدرسها مدققاً سابراً فيراها لا تلائم الانسان، فلقد أنسته انه انسان ، وعنوان كتابه الانسان هذا المجهول . . . يجزئك وحده . فهذه الحضارة هي من الانسان وليست منه، اذ هي مادية قد طغت عليها المادة فأغرقت النفس والعقل في ظلمات اعماقها، وليس الانسان مادة فقط فأين حظّ نفسه ؟ وأين من يقدر عالم النفس ويتجرد لاكتشاف خبايا هذا العالم الرحب اللّانهائي ؟ ويهولهُ حقًا ان يرى الانسانيّة سائرة عنقاً ناحية هذا الصوت النديّ المردّد من خلال الاحقاب « لقد وجدت ! » متخلفةً عن سماع ذلك الصوت اللطيف الهاتف « اعرف نفسك ! »

ولا اطيل عليك بعد فلنأخذ في مطالعة الكتاب معاً . على أني «سأقف من الكتاب – كما يقول مطران في مقدمة كتابٍ – موقف الدليل من المتحف ، فهو في الحق متحف حافل بالمفاخر ، وكل طرفة من طرفه جديرة بان تطالع في تدبر ورويّة » وعلى ذلك

فسأكون كالدليل الهادي الى اقسام المتحف ، يقف عند حد الهدي من زائريه ، فلا يهمس بكلمة الا اذا سألها الزائر ، ولا أجترىء الا فيما أعرفه حق المعرفة فما أحب أن أهرف بما لا أعرف !

وبعد فاذا اذنت لي في نهاية هذه الكلمة ، قبل ان آخذ في درس « الانسان ، هذا المجهول . . » توجهت الى الشباب ، معقد الآمال في الامة ، بكلمة الشاعر الالماني هانس كاروسا التي خاطب بها شباب امته في آخر ما نشر من المؤلفات النفيسة . قال الشاعر : « ليكن لكل منكم في داخله عزلة يغار كل الغيرة على صونها ، فهناك في الصميم تتولد الخواطر التي يغذوها وينميها الاسى والغبطة ، فتكون ملح المستقبل المصلح وان لم يقدر لها ان يسكبها القلم على صفحات المهارق . وفي فترات الانتظار ، يا اخواني ، تكاتفوا واثبتوا فان السنين تعمل ولا شك ، بجد واخلاص لاولئك الذين يعرفون ان يصبروا ، ومن احلام وخطرات بعض النفوس ، تفجر موسيقى وحرارة لا تلبثان أن تملكا على الجمهور مشاعره ، وتتخللا اطواره ، فيكون لكم دون ان تشعروا اصدقاء على وجه كل صعيد ، وتنالون لعمري هانئين في ساعة تاريخية ما تستحقون من الجزاء ! » واني لارفع دعاء حاراً ان تكون هذه الحياة الداخلية ظاهرة قوية بين جمهور شباننا العزيز ، وان هي الا ثمرة العزلة والتفكير والجد في المطالعات فترى الاسى غبطة ، والاخفاق ظفراً ، والعقاب جزاء ، اي جزاء !

هذا وموعدنا في الغد القريب ان شاء الله



درس

مقدمة المؤلف على كتابه

كتاب « الانسان ، هذا المجهول ! .. » مؤلف من مقدمة وثمانية فصول كبيرة ، ينطوي كل منها على بنود عديدة ، وفي الحق ان كل فصل من هذا الكتاب ، كتاب برأسه ، لغزارة مادته ، وسعة مجاله ، وبعد نظراته يجمع تحت عينيك عالماً كبيراً فيمثله لك ، ويأخذ بدرسه في مظاهره ونواحيه جميعها ، وأنت أشد ما تكون يقظة وانتباهاً ، فترى ثمَّ ما يحملك على الاعجاب والاكبار .

ولأعرض عليك مواد الكتاب وفصوله في كلمة وجيزة ، نعود بعدها الى الدرس والاستفاضة . في الفصل الاول يبحث الكاتب عن ضرورة معرفة ذواتنا ، وفي الثاني عن علم الانسان ، وفي الثالث عن الجسم وأنواع نشاطه او عمله ، وفي الرابع عن أنواع العمل والنشاط العقلي ، وفي الخامس عن الوقت الداخلي في الانسان ، وفي السادس عن الوظائف المتكيِّفة ، وفي السابع عن الفرد ، وفي الثامن عن تجديد الانسان .

أما في المقدمة التي قدم بها المؤلف كتابه فيعرضه أوجز ما استطاع ، فيقول : « ان الكاتب ليس فيلسوفاً ، وانما هو رجل علم ، يقضي الشطر الاكبر من وقته في المختبرات «Laboratoires» يدرس الكائنات

الحية ، ويصرف الشطر الآخر ضارباً في أرجاء العالم الواسع ، يراقب الناس عن كثب محاولاً أن يلم بهم ويفهمهم ، وهو يجاهر أنه لا يدعي ابداً الالمام بما يخرج عن دائرة رقابته العلمية ، فترى في هذه الكلمة التواضع الادبي مجسماً ، والجهر بالرأي الصريح ، فيستهويك هذا الاسلوب الصادق في الكتابة ، وابدآء الرأي . ثم يتابع فيقول : « ان مؤلف هذا الكتاب قد جهد في أن يميز حق التمييز بين ما هو معروف وما هو قابل لان يعرف ، وقد جعل الكائن الانساني (L'être humain) مجمع ومجلى تلك الملاحظات والتجارب التي قامت على مدى الازمان ، وفي البلاد قاطبة . بيد ان ما يكتب هو عنه قد رآه بنفسه ، او تلقَّاه عن الرجال الذين يعايشهم . وكان من إسعاد الحظ له ان يوجد في ظروف مكّنته من ان يدرس بغير جهد — ولا فضل ولا فخر له كما يقول — مظاهر الحياة في أشد وشائجها ومعقَّداتها فاستطاع ان يراقب كثيراً من ضروب العمل او النشاط الانساني وان يتصل بالصغار والكبار ، الاصحآء والاعلاّء ، ضعاف العقول والمجانين والاذكيآء والمجرمين ، وان يخالط طبقات المجتمع كلها ، سواد العامة ، والعمال ، ورجال الشؤون والتجارة ، وأرباب السياسة والحرب ، وأوليآء المعاهد العلمية ، والاساتذة ، والنبلاء ، والعظماء . وفوق ذلك أتيح له ايضاً ان يزيد على هذه الفئات كلها فلا يدع أحداً يُفلت منه دون ان يعرفه ويُلمَّ بحاله فعرف الفلاسفة ، والفنَّانين ، والشعرآء ، والعلمآء ، واتفق له في بعض أحايينه ان يعرف العبقريين ، والابطال ، والقديسين !

ورجل المعي كالدكتو كاريل طوّف ما طوّف ، وعرف ما عرف ، خليق بان يصغى اليه ويؤخذ عنه ، فهو يتكلم ويكتب عن سعة اطلاع ، ودقة نظر ، واختبار واسع ، وهو الذي يجري الآن طائفة اختبارات من شأنها ، اذا وفق فيها ، ان تزيد ارتقاء الانسان وتقدمه ، وتخفف من ويلات الانسانية المتألمة .

والدكتور هو كما رأيت آنفاً ، في معهد روكفلر ، يشارك في عمل ذلك المعهد الطبي العظيم ، وهو لا شك ، متصل بانبغ رجال الطب الحاضر وابعدهم صيتاً ، متجرد لدرس الانسان ، والانسان كما تدري ، قطب الدائرة ، ولا بدع فهو مجتمع الكون كله ، فيه المادة ، والاحساس ، والفهم . هذه القصبة الضعيفة المفكرة ، كما سماه باسكال في «خواطره» هذا هو شأنها العظيم !

ويتكلم بعد هذا المؤلف عن نوابغ الطب امثال الدكاترة فلكسنر Flexner ولوب Lœb وملتزر Meltzer وما قاموا به في درس الكائن الانساني الى ان يقول : ان مؤلف هذا الكتاب لم يرد ان يكتب ، حين كتب ، مجلدات ضخمة ، بل موجزاً ، واضحاً ، مشرقاً . وان نأخذ على الكاتب فما نأخذ عليه الا هذا الايجاز الى حد اللمح ! والايجاز في العلميات من شأن رجال الاختصاص ، ولكنه في الحق هنا ، ايجاز في اعجاز ، لقد صدق التعبير العربي فيه ! والمؤلف في هذا الموجز لا يتوجه الى العالم فقط بل الى المبتدىء الشادي ، ويعتقد ان مثل موجزه لا يشفي رجال العلم ، ولا اهل البحث ، ولا يشفي كذلك

الجمهور لكثرة ما هنالك من الاوضاع والمصطلحات العلمية ، فهو في هذا كمن يجرب تجربة ، والمحاولة ، وان لم تصب هدفها ، هي خير على كل حال من عدم المحاولة مطلقاً .

ولعمري ان كل جملة من هذا الكتاب ، على حد قول المؤلف ، هي حيناً ثمرة جهد عالم ، وحيناً ثمرة تجاربه الطويلة ، هي حيناً آخر ثمرة حياة بجملتها وقفت على درس موضوع واحد . ثم يريك المؤلف ، مصاعبه التي لاقاها حين حاول ان يكتب هذا الكتاب ، ولم يقدم على هذا الامر الا لانه من الواجب ان يقوم بهذا العمل أحد الافراد ، فهو يعلم جد العلم ، ان المرء يعسر عليه جداً ان يتتبع مستقرياً المدنية الحديثة في طريقها الذي اخذت فيه . وقد بهر الانسان جمال علوم المادة الجامدة ، ولم يعلم ان جسمه ووجدانه يسيران بمقتضى نواميس اشد ابهاماً لا تدرك سبراً كنواميس علم الهيئة ، ولا يستطيع الانسان مخالفتها دون ان يستهدف للخطر . ويشرح المؤلف نظريته ويؤيدها بالبراهين الى أن يخلص الى القول بان الانسانية يجب عليها ان تنصرف عن الآلات والعلم الطبيعي الى جسم الانسان وعقله وتلك غاية الكتاب العالية . فلقد بدأ الانسان يشعر بضعف الحضارة القائمة ، وكثيرون يرغبون اليوم في الانقلابات من عبودية المجتمع الحديث ، وكسر قيودها . فلمثل هؤلاء قد كتب هذا الكتاب ، كذلك لاولئك المقدمين الذين يقولون غير هيابين ، بضرورة الانقلابات في السياسة والاجتماع ، ولا يقفون عند ذلك بل يقولون جهاراً بضرورة انقلاب المدنية الصناعية ، وايجاد

وضع جديد للتقدم الانساني . وهو ايضاً مكتوب لاولئك الذين يفكرون في سر جسمنا ووجداننا وفي سر هذا الكون ، وعلى الجملة لكل رجل وكل سيدة ، فهو يتقدم الى الجميع على السواء ، ببساطة الموجز لما ابدته لنا الملاحظة وحققه الاختبار عن ذواتنا .

فها انت ذا قد لمحت في كلمة المقدمة الطريفة جلالة الموضوع ، وعظيم شأنه ، فلنأخذ به في اسهاب لا يُمَلّ بل يلذ لك بشتى طُرَفه .

الكتاب

١

في ضرورة معرفة ذواتنا

ان المرء ليدهش حقاً حين يطالع هذا الفصل النفيس ، اذ يلقي نظرةً على الكون فيرى بدائع الانسان ملك الطبيعة الاصغر ، ملء السَّمع والبصر . ويرى هذا الانسان المبدع المفكر ، فيقول انَّ من العجبَ ان لا يفكر في جسمهِ ، وعقلهِ ، ونفسهِ ، وفي عالمهِ الخاص ، وهو عالم رحبٌ عظيم ، ويساوره الشكُّ في جهله لذاته ! ولكنَّ هذا الدَّهش يزول ، وتنقلب الحيرة يقيناً حين يقرأ للدُّكتور في جهل ذواتنا وضرورة معرفتها . يقول الدكتور : « إنَّ بين علوم المادَّة الجامدة ، وعلوم الكائن الانسانيّ لَبوناً شاسعاً ، وتبايناً عظيماً . فعلوم الهيئة ، والميكانيك ، والطبيعيَّات ، لها في أصلها أغراض يجلوها تعبيرٌ دقيق في لغةٍ بالغةٍ في دقَّتها رياضيَّةٍ . وناهيك ما لها من الاثر في بدائع آثار الاغريق العريقة في القدم ، وفي خطوطها وهندستها المحكمة الجميلة ... وليس كذلك علوم الحياة ، فان من يدرسونها يجدون انفسهم في مُلتفِّ أدغالٍ متشابكةٍ وفي وسط غابٍ مسحور ، أشجاره الكثيرة في تغيُّرٍ مستمرٍّ ما تنفكُّ تتبدل هيآتها ، وتختلف مواضعها . ويشعرون أنهم دازحون تحت اعباء الوقائع التي يستطيعون أن يصفوها لا ان يحدُّوها

بأوضاعٍ جبريّةٍ رياضيّة . وهذه الاشياء التي تقع عليها العين في العالم المادي ، كالنجوم ، والغيوم ، والصخور ، والماء ، والذهب وما اشبه يستطيع المرء أن يجرّد بعض ما لها من الصفات كقياسها ووزنها .. ولهذا كان تقدم الكيمياء والطبيعيات عظيما لانها تجمع بين التجريد والجرم . أما علم الكائنات الحيّة عامة ، والانسان خاصة ، فلم يتقدم كثيراً فهو لا يزال في بدئه ذلك لان الانسان كلٌّ لا يتجزأ في غاية التَّعقيد ، فمن المحال اذن أن تكون لنا عنه فكرة بسيطة ، وليس عندنا أسلوب في استطاعته أن يدركه في جملته ، وأجزائه ، وصلاته بالعالم الخارجي . فدرسُهُ يقتضي أساليب متنوّعة ينتهي كلٌّ منها الى نتائج مختلفة متباينة . » ويمضي المؤلف في شرح نظريّته شرحاً دقيقاً واصفاً الانسان في جسمه الذي يستطيع التشريح أن يتناوله بالدرس ، وفي وجدانه الذي يراقبه علماء النفس ، وأساتذة الحياة الروحيّة وفي شخصيّته التي يجلوها على كل واحدٍ منّا درسُهُ لنفسهِ . فالانسان إذن هو مجمل مركّب الاعضاء والوجدان ، وموضوع اهتمام علماء الصحّة والتّهذيب ، يبذلون جهدهم في ان يوجّهوه الى غايته المثلى ، وكماله الاعلى . وهو كذلك موضع نزعات العلماء وتقديراتهم ، ورغبات الانسانيّة قاطبة . ولاجل هذه الفكرة وهي ان الانسان مادّة وروح متواشجتان متماسكتان معاً كان درس الانسان صعباً جداً وبالغاً في المشقّة والجهد ، وكان درس المادة أسهل وأيسَرَ فهي ماثلة ثابتة على متناوَل كل يد . « وفي الواقع ان جهلنا لعظيم . فان الاسئلة التي يطرحها

على نفوسهم مَن يُعانون درس الخلائق النّاطقة ، يبقى جُلّها بغير جواب .
وأرجاء كثيرة من عالمنا الداخلي لا تزال حتى الان مجهولة : فكيف مَثلًا تتألف خلايا الجسم من تلقاء ذاتها طوائف هي الانسجة والاعضاء ؟ وما هي مدة بقاء الانسان ، والوقت النفسيّ ، والوقت التركيبي ؟ والى اي حدٍّ يمكن الارادة أن تؤثر في البيئة وتُغيّرها ؟ وهل في استطاعتنا ان نلغي الجهاد ، والجهد ، والالم في بنائنا الجسدي والروحي وكيف نمنع انحلال الافراد في حضارتنا الحديثة ؟ وما هي البيئة الاكثر ملاءمةً للانسان المتمدن ؟ وهلمَّ جراً ! ... الى جمٍّ من هذه الاسئلة الدقيقة التي يحار العلماء فيها ، ولا يهتدون الى حل ألغازها سبيلا . « فمن الواضح اذن ان الجهد الذي بذلته العلوم التي موضوعها الانسان ، قد بقي ناقصاً غير بالغ مداه ، وأنّ معرفة ذواتنا هي جدُّ ناقصة ايضاً .

ثم يأخذ الكاتب في بيان أسباب جهلنا ، فيردُّها الى اثنين أولهما : نوع معيشة أجدادنا ، وثانيها : تعقُّد الكائن الانساني ، وفطرة عقلنا . وتجيز لي تعبير الكائن الانساني ، غير متشدِّد ترجمة للكلمتين الفرنسيَّتين l'être humain فهذا مما تقتضيه اوضاع العلم ، ويوجبه التمايز بينها فلفظة الكائن مختلفة هنا مثلاً عن لفظة الانسان او المرء العربيَّتين ولقد قلت غير مرة إنّ لغتنا تعوزها كثيراً الاوضاع العلميَّة الجديدة الواضحة الخاصة ، ولا بأس من ايجادها شيئاً فشيئاً ، وان نبت قليلاً عن لغة سيبويهِ والكسائيّ !

ونعود الى ما نحن فيه من أسباب جهلنا فنقول : أمّا نوع معيشة أجدادنا الاولين فقد كان لزاماً عليهم ان يعيشوا في جهاد ونضال مع قوى الطبيعة بردها وحرها وضواريها . فلم يكن يتهيأ لهم أن ينصرفوا الى نفوسهم ، وهم لا يشعرون بالحاجة الى درسها ، والانطوآء عليها ، بل قصروا مواهبهم العقليّة على تذليل قوى الطبيعة ، وتسخيرها ، واستخدامها في سبيل خيرهم : من صُنع الاسلحة ، وترويض الجياد ، والثيران ، واستنباط الفلاحة . ومرّت أحقابٌ انصرفوا فيها الى رصد نجوم السمآء ونيراتها ، وجزر البحر ومدّه ، والى مراقبة تعاقب الفصول ، وأهملوا نفوسهم . فتقدّم العلم وظل الانسان مجهولاً ، وجاء بين ملايين تلك الخلائق المتوالية بعض النوابغ والموهوبين فالوا بكل نفوسهم الى اكتشاف عالم المادة ، فألقى اليهم بشيء من اسراره ، ونواميسه ، وكان أن هذه الاكتشافات هيأت لهم اسباب استكمال التبسّط والرفاهية في المعيشة فآثروا ذلك على درس الجسم ، وتركيب البنية ، وقوام الوجدان .

بيد أنّ ما يعتري الانسان من مرض ، ووهن ، وألم ، وما يصيبه من موت وما يخالجه من رغبات وطموح الى السيادة ، كلّ ذلك أدار نظر الانسان ، واسترعى انتباهه الى عالم الجسم والنفس الداخلي . وقديماً عالج الطب آلام الجسد ولكن لتسكينها ، ولم يتعهد الا حديثاً درس الجسم الصحيح ، لوقايته من الابتلاء بالدآء . فكانت العلوم التي نراها اليومَ في أوجٍ عالٍ كعلوم الفسيولوجيا ، والجراثيم والجراحة وسواها .

أما السبب الثاني فهو تعقُّد الكائن الانساني وبناء او فطرة عقلنا . ففطرة عقلنا تحب بطبيعتها الاشياء البسيطة ، وتتفادى من المعقَّدة المتلابسة التي تتطلَّب الجهد والعناء وتسير على سنَّة الجُهد الاقل . وناهيك فدرس الانسان شاقّ لا يكون بلا جهد وتضحية ، وليس من ناموس يُطبَّق في عالم النفس الروحي اللطيف كما يطبَّق في عالم المادة الكثيف الماثل بين أيدينا بأحجامه الضخمة تتناولها مشاعرنا كلها . ففي استطاعة البحاثة مثلاً ان يغوص في أغوار البحار ، والاطواد ، والمهاد ، مستقصياً مدققاً ، ولكنه عاجز اشدّ العجز عن ان يستبطن الدماغ ، ويتسرب الى خلاياه والى نظامها المدهش . وتلك لعمر الحق صعاب جسيمة لا تذلل الا بالجهد العنيف والدأب الدائم . وحقيقة راهنة ان علم الانسان بين العلوم كلها ابعدها مطلباً واشقها عناء .

عرفت اذن كيف تقدمت العلوم الطبيعيَّة كالميكانيك والطبيعيات والكيمياء ، ولا عجب فأنت متحقِّق اليوم مداها وشأنها في مدنيَّتنا الحاضرة ، فلقد حوَّلت العالم عالماً جديداً فتبدلت البيئة التي كان اجدادنا الاقدمون يعيشون فيها وكانت تؤثّر فيهم ، بيئةً لا عهد لهم بها ولو قُدِر لاحدهم ان يفتح اليوم عينيه على بيئتنا الحاضرة بعد هجعته المتمادية لانكرها ولم يصدق عينيه ، ولحسب ان ما يرى أضغاث كرىً رانت عليه وليست حقيقة باهرةً كالشمس في رأد الضحى ! كان هذا الانقلاب العظيم فتقبلناه بدون تأثر وتعوَّدناه مع انتظار للجديد ابداً . ولقد يكون من الطَّريف حقاً أن انقل اليك شيئاً من نظرات الكاتب

الالمعيّ العلامة في مدنيتنا الحاضرة ووصفه الممتع لها ، وكيف تمّ الانقلاب وصرنا الى ما نحن عليه لعهدنا بفضل العلوم الطبيعية فذلك صورة ناطقة لما تراه وتسمع به كل يوم .

قال الكاتب : « منذ طَلَعَ عهد الصِّناعة انحصرت طائفة من الناس في أماكن محدودة : لا تتعداها ، فغدا العمال يعيشون جماهير مجمهرة في ضواحي المدن الكبيرة ، او في دساكر بنوها لهم خصوصاً وهم مشغولون في المعامل في ساعات معلومة ومنصرفون الى عمل هيّنٍ يتكرر ابداً على وتيرةٍ واحدة ، وتدفع لهم احسن الاجور . اما المدن فيسكنها الموظفون ، والتجار ، وعمّال الحوانيت ، والمصارف ، والمهندسون ، والمحامون ، والاطباء ، وارباب المعاهد العلمية ، وبالجملة كلُّ أولئك الذين يضربون من التجارة والصناعة بسهم . وقد غدت المعامل والمكاتب فسيحة مضاءة حسناً ونظيفة تستوي فيها الطبيعة ببردها وحرها كما يشاء المرء شتاء وصيفاً . والابنية الضخمة الشاهقة قد جعلت من الشوارع خنادق مظلمة ، وتبدل نور الشمس في تلك المنازل بنور اصطناعي غنيٍّ بأشعة ما وراء البنفسجي ، واستعيض عن الهواء الطبيعي بهواء اصطناعيٍّ ايضاً . فبات سكان المدن الكبيرة مصونين في حياتهم من الطبيعة كلها ؛ وليس كذلك كان الاقدمون في حياتهم فترى الاغنياء اليوم يسكنون الدور الجميلة المطلّة على اجمل جادات المدينة وابدع مناظرها . وملوك العصر الحاضر يملكون قصوراً هي آية في فخامتها وابهتها تحيط بها الحدائق الغناء ، وتكتنفها الرياحين والازهار ، فهم في

المدينة، وكأنهم بنجوة عن ضجتها، وغبارها، واضطرابها، فكأنما هم يسكنون رأس جبل متوارين عن انظار الجماهير، ولم يكن كذلك الامرآء في عهود الاقطاعيات وراء تؤيهم وبروجهم! بل ان من هم ادنى منزلة يسكنون دوراً قد استكملت اسباب رغدٍ لم يكن في بلاط لويس الرابع عشر وفريدريك الكبير! ولقد اصبح الفقرآء اليوم خيراً من الاغنيآء في ذلك العهد.

« ادر نظرك فترى اسباب الرفاهية مستكملة في الافران الكهربائية والمغاسل الكهربائية ايضاً وفي قاعات الحمّامات الحديثة، والبرّادات، وادوات الطبخ، وكل وسائل الراحة في هذه الناحية وما شاكلها.

« ثم تجد فوق هذه المبتكرات تغيُّر الحياة الاجتماعية أوَلا ترى كيف صارت حياة الانفراد كأنها عقاب ؟! فالقاطرات، والطيارات والبواخر، والسيّارات، واللاسلكي، والتلفون او الهاتف قد بدّلت الصلات بين الناس » واي العجائب لم نرها اليوم باهرة في تلك الآلة الصغيرة المسمّاة الراديو (المذياع) وقد مرّ بك كيف اصبحنا ولا شرق، ولا غرب، ولا عالمين، ولا قارّات ولا خارطة جغرافية في الصلات والابعاد!

« فهذه الآلات جميعها قد خفّفت كثيراً الجهد والعنآء في كل مكان فلا حاجة بعد اليوم الى السير على الاقدام، ولا الى العمل باليد، ولا الى الرياضة البدنية بجملتها، فقد اصبح في استطاعة جميع الناس ان

يتوثق عصبهم بدون كد ولا عناء. وليس كما كانت الحياة تتطلب في العهود الغابرة » وكذلك قل ما شئت عن اعداد الغذاء والوان الطعام وآداب المائدة ولا أطيل عليك. « وتخلص بعد هذا الى المعاهد العلميّة وأجل نظرك في جوانبها وفي أساليب التعليم والتهذيب بين جدرانها تدرك حق كلمة الفيلسوف الانجليزي باكون: « العلم قوة » « Knowledge is power ! » وحوّل الطرف الى الطب الحديث ومكانته واكتشافاته لجراثيم الامراض على اختلافها واجتهاد نوابغه في سبيل الانسانيّة جمعاء ترَ حقاً ما أحدث وغيّرَ ! »

ولقد تبدلت بيئتنا العقليّة والادبيّة بالعلم ايضاً. فالعالَمُ الذي يحيا فيه عقل الانسان في هذا الزمان مختلف جداً عن عالم جدودنا. وقد تراجعت القِيَمُ الادبية بعد انتصارات العقل. فألقى العقل بالمعتقدات الدينيّة مطّرحاً ولم يحفل الا بمعرفة نواميس الطبيعة بالقوة التي تهبها المعرفة المسيطرة على العالم المادي والكائنات الحية. »

« ولا ينسى المؤلف الثَّقافة والصِّحافة في المجتمع، فأي رجلٍ لا يطالع اليوم الجرائد والمجلات والكتب والمقالات على اختلافها وتنوعها ولا يجد لذّة في مطالعة الانباء العلميّة كلذّتهِ في ذهابه الى دور السينما. واعجابه بنجومها ! وهكذا حتى يتخلّص الى هذه النتيجة: « لقد اصبح عالمنا عالماً ميكانيكياً أي آلياً فقط، ولا يمكن الا أن يكون كذلك ولا بدع فهو بفضل الميكانيك والطبيعيات والكيمياء صار الى ما صار اليه الآن وكل ما يغمر الخلائق الناطقة ان هو الا كمال علوم المادّة

الجامدة .»

وتأذن لي بكلمة بعد هذا الوصف الدقيق والصورة اللاّحة لحضارتنا وحياتنا في هذا العهد ـ وهذه الكلمة لا تخرج عن دائرة البحث ـ فقد قال المؤلف : « ان العقل وهو في نشوة انتصارهِ على الطبيعة قد ألقى بالمعتقدات الدينيّة مُطَّرِحاً . »أمّا العقل الذي اطّرحَ المعتقدات فهو الذي لا يرى الا المادة الكثيفة ، ولا تشِفُّ له في كثافتها نفسها تلك اليد العلوية والقدرة الالهيّة التي تدبّر الكون كلّه، ولولاها لما استطاع عقل ان يفكِّر ولا يدٌ أن تتناول المادة فتحوّلها عجآئب باهرةً . ولو فكَّر العقل وعلا فوق المادة ، لانجلت له الحقيقة أبدَعَ ما بدت . وما اجمل كلمة الكاتب الفرنسي جوبير : « قليل من العلم يبعد عن الله و كثير منه يقرّب اليه ! » ولا عجب فنحن نرى كبار الرجال ، ونوابغ العلمآء ، وعظمآء الانسانية جمآء على اختلافهم يجلّون الدين ومعتقداته ويقومون بواجبهم نحوَهُ ببساطةٍ وتواضعٍ وعن اعتقادٍ راسخٍ لا تزلفاً ولا ريآء . ولا اذكر لك القائد العظيم فوش ولاباستور ولا ماركوني وامثالهم ممن لا يأخذهم إحصآء ، ولا هذه القداسة المزدهرة في الكنيسة الكاثوليكيّة ولا باهرات عجائب لورد فذلك لا يكابر فيه مكابر في عهدنا الحاضر !

ويمضي الكاتب يسأل عن النتائج المنتظرة لتلك الحياة . ومن البديهي أن يسأل عمّا استفدنا وماذا نتج ؟ ويجيب بدقّته المحيّرة ونظراته البعيدة : « نتج أنّ هذه الانقلابات التي احدثها العلم في عوائد المجتمع ،

كلها جديدٌ غير معهود من قبل ، ولا تزال في انقلاب مستمر . ومن العسير أن نعرف بالدقة مدى هذا الانقلاب المصطنَع الذي قام مقام تلك الشروط الطبيعيّة في الحياة وهذا التأثير الذي بلغ مداه في البيئة وكان له أثر عظيم في الخلائق العاقلة المتمدنة . ولا جَرم أنَّ هذا الانقلاب قد حدث فالى أيِّ حَدٍّ تأثر الانسان بما فرضته عليه المدنية الحديثة في اساليبها جمعاء ؟ ذلك كما يقول الكاتب ما لا نستطيع الاجابة عليه قبل ان ننظر في ما يجري عند الامم المتمدنة التي اقبلت أوَّلَ من اقبل على بدائع الاكتشافات واخذت بها .

« مما لامراء فيه ان الناس تلقَّوا المدنيّة الحديثة بسرور عظيم فسرعان ما اقبلوا من اريافهم وحقولهم الى المدينة ومعاملها ، وما اسرع ما انقلبوا فابدلوا ازياءهم بأزيائها وتحضَّروا ثم اخذوا يفكّرون كما تفكِر المدنيّة الحاضرة آخذين بها نفوسهم ، فهجروا قديمهم لما انه كان يكلّفهم عناء ، ووجدوا عمل المعمل اخف شِدّةً من كدحهم في الحقول فألفوا هذه الحياة الموفورة في منازلها اسباب الراحة ، ولم يعودوا يصبرون على حياة الوحدة فآثروا حياة الالفة والاجتماع وراحوا يستمتعون بشتى ملاهيها منتظمين بين تلك الجماهير الغفيرة واخذوا على نفوسهم ان لا يَخلُوا بها للتفكير . وردتهم الحياة الحديثة احراراً مطلقين فاغرتهم بكسب المال كيف كانت الطريق اليه على شريطة واحدة هي ان لا يمثلوا امام القضاء ! وفتحت امامهم اقطار الارض وآفاقها المترامية ، وحررتهم من جميع ما كانوا يَعدُّون خرافة وباطلاً

واباحت لهم المسكرات حتى المنكرات ! وقضت على تكاليف الحياة فاحسُّوا كلُّهم بسعادة اوفر .

«بيد ان الكثير منهم ما لبثوا ان شعروا بضرر وتفاهة تلك الملاهي التي سوَّغتها لهم الحياة الجديدة ، وبالتواء في صحتهم على كثرة اسباب رغدها فلم يعد في وسعهم مجاراتها في افانين جديدها في الملبس والمأكل والمشرب والملذة وما ماثلها . وادركوا من نفوسهم ان الحياة الاقتصادية تنذرهم بويلاتها ولا امان لهم ولا في التأمين على حياتهم . وفي الحق ان اولئك الذين يفكرون ، كثيراً ما يصير بهم تفكيرهم الى الشقاء !»

ولقد سبق شاعرنا الكبير ابو الطيب فعرف هذه الحقيقة وخبرها فاطلقها في بيت من الحكمة يردده الدهر من بعده منشداً :

ذو العقل يشقى في النَّعيم بعقله واخو الجهالة في الشَّقاوة يَنعَمُ

ثم يتابع علامتنا بحثهُ في نتائج مدنيَّتنا وفوائدها فيقول : « إنَّ من الحق علينا ان نقول إنَّ الصحَّة العامة قد تحسَّنت كثيراً ونحن نرى أثر ذلك ليس في نقص الوفيات فحسب ، بل في المواليد كذلك ، فان الطفل في ايامنا اجمل واكبر واقوى منه في الامس ، وقامات الاحداث الآن تزيد على قامات آبائهم حين كانوا في سنّهم . وحسبك أن تسرّح طرفك قليلاً معي في اندية الرياضة وملاعبها ليتأكد لك صدق ما أقول في هذه الاجسام التى تتدفق حياة وفي هذه العضلات الموثّقة . وقد بلغ منهم اليوم ان يبعثوا ويعيدوا آنق واسمى هيئات

الجمال القديم بأغاليطها . وان كان عمر مرتادي الرياضة لا يبلغ بَعدُ مدى آجال اجدادنا السالفين ، حتى لَيُخيَّل الينا ان اولئك القدماء المتعرضين للرياضة الشاقة واهوال الطبيعة وخطوبها ، هم اشد من ابطال الرياضة اليوم . غير ان نقص الوفيات ليس خيراً كله ، فقد صين به الضعاف كالاشداء، وقلّ الاصطفاء الطبيعي ، ولا نتكهن عن مستقبل نسل يقيه الطب بفعّال وسائله. والى جانب الصحة نرى في عصرنا ضروب الآفات والعاهات ، ونتحقق استشراء الامراض العقلية ، ومآوي المجانين او مصاحهم الكثيرة اكبر دليل وابلغ برهان ، في بعض البلاد يربو عدد المجانين على عدد سائر المرضى المختلفين في المستشفيات كلها . هذا شيء من فوائد حضارتنا ونتائجها ، وعبرها القاسية فهل ترانا نستفيد ؟

ولا يقف الكاتب الاديب عند هذا الحدّ بل تراه يتغلغل في أطواء المجتمع وينفذ الى المعاهد العلميَّة فيقول فيها : « ولا تظننَّ على كثرة المبالغ العظيمة التي تنفق اليوم لتهذيب الناشئة ، ان النُخبة المنصرفة الى الحياة العقلية قد ربا عددها . ولا شك في اننا نرى العدد النسبي من المتعلمين قد زاد في الادب والتهذيب . وعظم الاقبال على المطالعة والرغبة فيها ، وازداد ابتياع الكتب والمجلات اكثر مما كان من قبل . ونما كذلك عدد اولئك الذين يتذوقون العلم والادب والفن . بيد انه ، لسوء الطالع ، لم يجذب الجمهور ويملك عليه مشاعره ، في الغالب ، الا الناحيةُ الدنيـا من الأدب والفن ، والعلم . ولم ترفع شروط الصحة الموفورة في المعاهد مستواها العقلي . ولا ندري أَثَمَّ تضادٌّ

بين التربية البدنيَّة والتربية العلمية ؟ وبعد فلا نعلم هل كان نموُّ القامة والبنية في نسلٍ ما دليلًا على الانحلال لا التقدم كما يعتقد اليوم.
وممّا لا جدال فيه أنَّ الطلّاب اوفر غبطة في معاهد ابطلت القوَّة والشدَّة وهم لا يقومون بين جدرانها الا بما يريدون مخيَّرين وحيث الجهد والانتباه لا شأن لهما، ولا يُسأل عنهما الطالب. فما نتائج مثل هذا التهذيب ؟ هاك نتائجه : يميل الاحداث الى الناحية العملية المادية في الحياة، ويفشو الجهل متعاظماً، ويتسع مجال الروغان والحيلة، ويشيع في البيئة ضعف عقليٌ يقاسي الاعقـاب مُرَّهُ، واذا ضعفت الحياة الاخلاقية ضعف بالنتيجة اللازمة معها العقل.

« ونكاد نحسب ان المدنيَّة الحاضرة عاجزة عن تنشئة نخبة موهوبة تملك الخيال والعقل والشجاعة. لقد انحطَّ المستوى العقلي والادبي في كل البلاد على التقريب عند اولئك الذين يحملون التَّبعات الجسام، تبعات القيادة في السياسة والاقتصاد والاجتماع. وهذه مؤسسات المال والصناعة والتجارة قد اصابها انحطاط هائل ولا بدع فهي متأثرة اضطراراً بشروط واحوال حياة بلادها وحياة البلاد المجاورة لها وحياة العالم اجمع. فالامر خطير، وآمال العالم المعلقة بمدنيَّته خابت فلم تستطع ان تنشئ هذه رجالاً كُفاةً في عقلهم، وشجاعتهم، قادرين على قيادتها في طريقها المحفوف بالمخاطر. ذلك ما يجعل الحضارة في خطر مهدَّد ابداً.»

ويختم الكاتب بحثه الدقيق بقوله : « فمن الواضح اذن ان لهذه الانقلابات التي احدثها العلم في بيئتنا آثاراً بيّنة ولهذه الآثار سِمَةٌ ما

كانت لتخطر على قلب ، وانها لآثار مختلفة جدَّ الاختلاف عمَّا كنا نرجي منها وننتظر إصلاحاً في اسباب حياتنا كلها . فمن اين جاءت هذه النتيجة المتناقضة ؟ »

ذلك كما رأيت وصف الكاتب للحياة في البيئات الغربيَّة الكبيرة فاذا القينا نظرةً على بيئتنا وبلادنا كذلك وجدنا انقلاباً عظيماً في اسباب الحياة ومرافقها كلها . فالشرق اليوم يُعَدُّ بحق قطعةً من الغرب ، وملتقىً لالوان حضارته بأسرها ، وهو يسير قُدماً وعيناه الى الغرب يلتمس منه الهَدْيَ والحياة والتمدُّن . ولَنظرةٌ اسرع ما تكون خطفاً بين دنيا الشرق اليوم ، ودنياه قبل الحرب الكبرى ، ولا سيما في لبنان ، تعطيك في ابدع صورة الحالتين القديمة والجديدة ، وانت تعرف الرخاء الشامل قبل الحرب بلاد الشرق او تسمع به وخصوصاً في لبنان ، والمثل المعروف اشهر من ان اذكره لك فالشرق في هناءة وغبطةٍ بسيطٌ في اسباب الحياة ، يسير ببطء الى المدنيَّة ولكن بتبصر وثبات ثم يبتلي الله خلقه بويلات تلك الحرب التاريخية فيذوق الشرق فيها من ضروب المحن والبلايا والآلام ما يسجله التاريخ على مدى الاجيال ويخرج على ارماقه الاخيرة ، ويفتح عينيه في بحرانه على صوت نفير الحرية ، على الحرية في مجاليها الاخاذة ، ويرى جديد الغرب يتدفق على امواج متوسطه فيقبل اقوامنا عليه ايَّما إقبال وينهالون الى المدن ويحيون حياة المدينة فتسكرهم بكؤوس ملاهيها . ولا تنسَ انهم ليسوا على استعداد لهذا الجديد ولا بد له من ذلك ، لتُسيغ

لُماهم ما يتناولون منه . ولا بأس ان يجرّبوا كل شيء وان تكون تجاربهم « كتجربة الطب بالارنب ! » ثم يؤدهم ما تناولوا ، ونفتح عيوننا جميعاً على هذه الحالة التي نئنّ منها انيناً ويعرفها الجميع . وما اصدق هذه الاغاني الشعبيّة التي نسمعها آناً فآناً لاهين ضاحكين وهي تجيد تصويرها ووصفها : « مرضك منك لا تخفيه وان كنّك شاطر داويه ! » « شي بحيّر ! » وهذا شيء يحيّر حقاً !

ويذهب الكاتب الى مدىً ابعد فلا يقف عند وصف تنوُّعات الحضارة وما أظلّتنا به المدنية من افانين مُبدَعاتها ، موقف المطيل التعجُّب ، بل تراه يدرس ويبحث جهده ليخلص الى الحقيقة فلا يتردّد دون الجهر بها على رؤوس الاشهاد ، بجرأة العالم المدقق وان جاءت جديدة غريبة فهو لا يتمالك من ان يقول : « ان انقلابات البيئة على ما رأيت مضرّة ، لانها حدثت دون معرفة طبيعتنا حقَّ المعرفة والوقوف عند مقتضياتها فهي اذن والحالة هذه لا تلائمنا ولا تشاكلنا . ولقد كانت بفضل الاكتشافات العلمية وفضولها ، وفضول نزعات البشر وتخيُّلاتهم ونظراتهم ورغباتهم . وفي الواقع فانها ليست على متناولنا وان كنّا منشئيها ورافعي منارها .

« ومن المقرر الثابت ان العلم لم يجر على خطّة مرسومة بل انمّا كان ازدهارهُ اتفاقاً على ايدي بعض العبقريين من الرجال وعلى تصوُّرات خواطرهم ، والطريق التي سار عليها فضولهم . ولم يكن قطُّ وجوده لرغبة في إصلاح حالة الانسانية . فلو كان غاليليه ، ولا فوازيه ونيوتن مثلاً قد انصرفوا بكل نفوسهم الى درس الجسم والوجدان ، لكان من

الممكن ان يكون عالمنا غير ما هو عليه الآن . ورجال العلم لا يعرفون اين يذهبون فهم مسوقون بدافع الاتفاق ، وبأساليب علمية في غاية المنطق والدقة ، وبكاشف من الغيب يهديهم . فكل عالم منهم عالم مستقل له نواميسه الخاصة فترى بين آنٍ وآن تلك الغوامض التي تدق على افهام الآخرين مجلوّة لهم . وقصارى القول ان الاكتشافات حين حدثت كانت مجهولة الغايات ، وغاياتها هي التي نفحت مدنيّتنا بشكلها الحاضر . »

ويأخذ الكاتب بعد هذه اللمحة في بيان ضرر المدنية الحديثة في انقلابات البيئة فيستقري اسبابها ويراها في سنَّة الجهد الاقل ، والميل الى البسطة في الحياة ولذة استكمال اسباب الرفاهية وفي هذه الحاجة الملحَّة في الانفلات من ذواتنا . ثم يقول : « ولم يسأل أحد نفسه كيف يطيق البشر هذه السرعة العظيمة التي احدثها في الحياة البرق ، والتلفون والآلات الكاتبة ... أما الاخذ بالطيارة ، والسيارة ، والسينما ، والمذياع (الراديو) ، وقريباً بالاستشراف « التلفزيون » فكان كل ذلك من هذه النزعة التي مالت الى استعمال الكحول في الاجيال الغابرة . ووسائل الرغد والراحة أقبل الناس عليها واخذوا بها لانها مدعاة للهناء في الحياة . ولكن عاقبة هذه المتبكرات كلها لم تؤخذ بعين الاعتبار » .

ويجب ان نقول ان الناس ليس لم يسألوا نفوسهم ، كما يقول المؤلف ، كيف يطيقون هذه السرعة العظيمة في الحياة وفي كل اسبابها ؟ بل انهم أحبوا هذه السرعة وألفوها في كل شيء . واصبحوا لا يطيقون سواها وهم يودُّون لو يجرون في حياتهم مع القطار السريع ! ومن يطيق اليوم

ان يسافر على متن الجواد ساعات؟ فعهد الشيخ اليازجي الكبير ايام كان يذهب الى بحمدون مصطافاً على ظهر الركوبة ويؤلف المقامات او ينظم القصائد اثناء الطريق قد ذهب ولن يعود بعد! فقد عيل صبر الناس حقاً وهم متطلعون ابداً منتظرون ما سيكون!

ويعود المؤلف فيقول: « وهل من ينكر أثر المعمل في حالة العامل الجسدية والعقلية واهمالها مطلقاً؟ والصناعة اليوم انما غايتها بلوغ المدى الاقصى في الانتاج وتخفيض الثمن لتحصيل اعظم المكاسب. وقد تكمَّلت في هذا العهد وبلغت أوج ازدهارها ولم تنظر الى حاجات البشر في الانتاج. وقامت المدن ولم تراعَ في بنيانها شروط الصحة. ونظرة الى المدن الحديثة العهد والى معاملها وضجتها وهوائها الفاسد تجد انه لا يراد في بنائها خير السكان.

ولا تنسَ كذلك الصحافة ومنشآتها وآثارها في المجتمع وطرائق كسبها وأبواقها في اعلاناتها! ولا اطيل ذاهباً مع الكاتب في تبسطه فقد عرفت شيئاً من مضار الانقلابات الجديدة وهي ليست بجديدة عليك فأنت تراها كيف أجلت نظرك في جوانب مجتمعنا. ومن اللذيذ حقاً ان يطالع المرء مثل هذه الابحاث والدروس في تروٍّ وتبصُّرٍ اذ هي تصف مواضع الداء في المدنية الحاضرة وتقدم العلاج للشفاء.

وهنا يعود الكاتب الى الحث على معرفة ذواتنا واجمال الاسباب التي تقضي بضرورة معرفتها وذلك: « لان علوم المادة قد بلغت غاية كمالها وعلوم الاحياء لا تزال في بدء ظهورها لمّا عرفت. ولقد

كان يجب ان يكون الانسان القياس الاعلى في كل شيء. فلم يكن. وهذه الحضارة التي أنشأها لم تراعَ فيها حاجات جسمه وعقله ، ومعرفة طبيعته ، فكانت كغريبة عنه ، وكان هو بين مبدعاتها ابعد ما يكون عن السعادة . فمعرفة ذواتنا معرفة دقيقة هي الدواء الوحيد الناجع لهذا الدآء العضال . فبها نتعلم كيف نتكيَّف مع بيئتنا و كيف ندافع عنَّا ضدها ، و كيف نستبدلها اذا قضت الضرورة ، و كيف نتقصى أمراضنا ونعالجها ... والحق يقال انه منذ ان ابطلت المدنية الحديثة شروط الوجود الطبيعية قد غدا علم الانسان الاول بالضرورة بين العلوم كلها .

ونحن في نهضتنا الشرقية الآخذة في أسباب كمالها ألزم ما يكون لنا معرفة ذواتنا معرفة عميقة ، وسبر الحقائق ، لنُتِمَّ عتادنا ونسير على هدى الى الغاية السامية التي نتوخاها وهي اسعاد الجماعة والفرد في شرقنا العزيز ووصل حاضره بغابره السعيد !



٢

علم الانسان

لا احسبك الا ادركت ضرورة معرفة ذواتنا في عصر مدنيّتنا الحاضرة ، ولا جرم انها أكبر اركان المدنية الحديثة وقد تبسط عالمنا البحاثة في بيانها بأسلوبه المنطقي الدقيق ، وسعة علمه واختباره ، وختم بحثه الممتع بكلمة يجب ان نقف عندها موقف التفكر والتأمل وقد أقبلنا على موعد للحديث والدرس معاً ، فقد قال : « والحق انه منذ ان ابطلت المدنية الحديثة شروط الوجود الطبيعية غدا علم الانسان الاول بالضرورة بين العلوم كلها . »

فعلم الانسان اذن هو موضوع درسنا فلننظر فيه نظرة ملمة . وبعدُ فلي اليك كلمة في مستهل هذا الدرس وهي اننا سنتجنب جهدنا المذاهب والتحقيقات العلمية المتشعبة التي لا تعني الا اهل البحث المتجردين لها فلنعدِ اذن عنها .

بعد ان قرّر نطاسينا ضرورة معرفة ذواتنا كان من المنطق المحكم ان يأخذ في درس علم الانسان أو قل في درس ذواتنا ، فكيف نعرفها؟ و كيف هو جَهل ذواتنا ؟ ويسرع الكاتب فيبادرك بأنه لا يتأتى لا من الصعاب التي نلاقيها في معلوماتنا عنها ولا من عدم دقتها او قلتها بل من غزارتها العظيمة واختلاطها وتعقدها ، وما اكتنفت الانسانية به نفسها على توالي الاحقاب والاجيال ؛ و كذلك من تجزئنا أجزآء لا

تعد في كثرتها البالغة قضت بها العلوم التي تقسّمت درس جسم الانسان ووجدانه . ثم دار الزمان دورته فظلت تلك المعلومات غير مأخوذ بها في جزئها الاعظم ، فهي على الحقيقة صعبة الوضع موضع العمل .. بيد ان هنالك حقيقة حية غنية بين اكداس هذه التعريفات ، والمراقبات ، والمذاهب ، والرغبات والخطرات التي تمثل كلها جهود البشر في تقصيهم معرفة ذواتهم . وهناك أيضاً الى جانب مذاهب العلماء والفلاسفة وتكهناتهم نتائج الاختبار الواقعي التي قامت بها الاجيال الغابرة ، وملاحظات شتى حققها العقل والمذاهب العلمية الراهنة . فيجب حسن الاختيار بين كل ما رأيت في علم الانسان .

وهذه المعلومات عن الكائن الانساني ، بعضها من انشاء العقل فهو لا يتفق والحالة هذه مع حالة كائن انساني في العالم نراقبه وفي استطاعتنا استقراؤه ، وبعضها نتيجة الاختبار الخالص المجرد فعلينا ان نأخذ بهذه ونعتمد أبداً مذهب التحقيق والاختبار . ومن الواضح أننا لا نعرف معرفة صحيحة الا ما نستطيع رقابته . ذلك رأي الكاتب يذهب في تأييده مذهب العلم الراسخ وهو من علماء علم الحياة « البيولوجيا » الاعلام لذلك تراه يقرر في علم الحياة أن المبادىء التي يجب ان يقوم عليها العلم وفي استطاعتها أن تظل حقيقية انما هي تلك التي تقترن بأساليب الاختبار . وبين شتى معارفنا التي نملكها عن ذواتنا يجب علينا ان نختار منها ما يتلاءم مع الواقع الراهن ليس في أذهاننا ، ولكن في عالم الطّبيعة . فيجب اذن ان يقترن النظر بالعمل ويؤيد البرهان العقلي

برهانٌ حسي لا يدفع .

ولا أطيل عليك فاذا أحببت التقصي والاسترسال فعد الى كتاب: « الانسان، هذا المجهول ... » او الى سواه من مطولات العلم واسفاره ولكن الذي أحبُّ ان أردده مع الكاتب هو ان الانسان لا يجب ان يملَّ تكرار الاسئلة على نفسه ، والتطلع ابداً الى الامام ، والانسان لعمري بفطرته طُلَعَةٌ يحب ان يعرف ابداً ، ويسعى دائباً جاهداً الى اكتساب الجديد . وفي فطرته ان شئتَ فقل ، نزعة مستحبة في العلم مكروهة كثيراً في سواه الا وهي الفضول ، او النزعة الى المعرفة ، فالفضول ضرورة في طبيعتنا وحاجة من حاجاتها الجوهرية لا يخضع لنظام كما يقول المؤلف : « وإن عقلنا ليتغلغل في ماثلات العالم الخارجي ويتدسَّس الى صميمنا بنوع ليس من المنطق في شيء لا يرد ولا يُحبَس فهو أشبه ما يكون بدرص الفأر في نوع حفره لجوانب الانفاق التي يلوذ بها » وهو هذا الفضول الذي يدفعنا الى اكتشاف العالم ويجرنا وراءه في مجاهل الطرق فلا تلبث ان تتمهَّد امامه عِقاب الصعاب ، وتتبدد في وجهه كما يتبدد الدخان في الهواء !

فمن الضرورة اذن ، يقول المؤلف : « ان نفحص ذواتنا فحصاً مدققاً لا في مظهر واحد من مظاهر الانسان ، وفي حقبة من حقبه أو دور من ادوار عمره ، او سبر بعض شروط من شروط حياته بل ان يكون الفحص لانواع نشاط الانسان كلها الظاهرة الكائنة والممكنة ، وهذا يقتضي الرجوع الى الزمان الغابر والوقوف على الحاضر للبحث

عن مقدراتنا الجسمية والعقلية . وأداتنا في درسنا التحليل L'Analyse والتركيب La Synthèse نأخذ بهما في درس بنيتنا وصلاتنا الطبيعية ، والكيميائية ، والنفسية بالبيئة الخارجية . وذلك درس مجهد متشعب كل التشعب لا يضطلع بأعبائه الفادحة عالم واحد بل يتطلب جماهير من العلماء يأخذون به ويكمِّل الواحد الآخر في الاجتهاد والتنقيب ، فتُواجَه عندئذٍ حالاتِ الانسان كلها : التكوينية والادبية والعقلية والنفسية بموجب سُنَنٍ علمية وفلسفية قادرة على سبر الانسان والاحاطة به وادراك نواحيه جميعها ، ولاجل هذه الغاية الجليلة يجب ان يقوم علم الانسان . فهو الذي غايته ان يستقصي أنواع نشاطنا ويسبر عالمنا الداخلي ويدرسه في أجزائه باجمعها على أنه كلٌّ ووحدة .

ولقد يكون من الشأن بمكان ان نقول جهراً : « ان لا فائدة في زيادة اختراعاتنا الميكانيكية فلا ينبغي أن نعيرها التفاتاً عظيماً وفي الحق ان العلم الخالص لا يجلب لنا ضرراً وانما يغدو ضاراً حين يتملك لبَّنا جماله الاخاذ ويمسكه ابداً في دائرة مادته الصماء ! والانسانية أحوج ما تكون اليوم حقاً الى حصر اهتمامها بنفسها والنظر في اسباب عجزها العقلي والادبي . ولَأولى بنا ان نصرف نظرنا الى ذواتنا من ان ننشىء مراقب عظيمة لرصد عوالم النجوم ، او نبني بواخر تبلغ المدى الاقصى في سرعتها ، او نصنع سيارات آنق صنعاً وأحدث طرازاً ، او نذيع المذياع (الراديو) بأثمان متدنية هي في متناول كل يد . فليس اذن العلوم الميكانيكية والطبيعية والكيميائية هي التي تردّ علينا أخلاقنا

وحصافتنا ، وصحتنا ، واتزاننا ، وأماننا وسلامنا !

ففضولنا او حبُّ استطلاعنا يجب ان يميل عن طبيعة الانسان وبنائه الى عالمَيْ عقله ونفسه وهذا الميل لا بد منه على كل حال وهو يتطلب رجال علم ورجال اختصاص ، ويجب ان يتقدم هذا العلم الجديد بأساليبه الكاملة الى معرفة الانسان معرفة وافية ليكون محور أعمالنا .

وبعد ما تقدم يعود المؤلف الى البحث في طريقة تحليل الانسان وتركيبه او تأليفه فيقول : « ان الانسان وحدة لا تتجزأ ، بيد انه وان كان لا يستطيع التجزؤ ، ذو مظاهر متعددة متباينة تلتقي في وحدته ولها هيآتها ، ولسنا قادرين حقاً على سبره في بساطته مباشرة ، ولكن في وسعنا ان ندركه وننفذ اليه بآلات حسّنا وآلات مدنيتنا الحديثة فتبدو لنا ، في جلاء ، أنواع نشاطه او عمله الطبيعي ، والكيميائي ، والعضوي والنفسي ؛ فهو في الحق غني متنوع ، ولذلك فوسائلنا اليه متنوعة بالضرورة ايضاً . وناهيك فعلم الانسان يستخدم سائر العلوم ويشعر بحاجته اليها ، ومن هنا نشأت صعوبته ، خذ لك مثلاً يقرب اليك فهم ما رأيت جلياً : اذا شئت ان تدرس أثر احد العوامل النفسية في أحد الافراد الصادقي الشعور فأنت مضطر عندئذٍ الى اتخاذ طرق الطب واستخدام علم التركيب ، والفسيولوجيا ، والطبيعيات ، والكيمياء . تمثّل هذا الفرد وقد نزل به نبأ مشؤوم فترى اثر هذا الحادث النفسي بادياً أجلى ما بدا في ألم نفسيّ أدبي ، واضطراب شفّافٍ على المحيا والاعصاب ، والدورة الدموية . وما نعده من الهنات الهيّنات في

الحوادث يتطلب اساليب علوم جديدة . فوجب من ثم ان يوجد رجال اختصاص أثبات أَلِبَّاء في فروع العلوم كلها ، يتجردون مخلصين لفرعهم الذي آثروه فلا يجاوزونه ، ولا يذهب بهم الظن الى انهم قد غدوا اعلاماً في كل شيء ، حتى لا يعود اختصاصهم ضرراً جسيماً يصيب تقدم الانسانية جمعاء . ولقد تعجب مثلاً من نابغة عظيم مثل أديسون – كما يقول المؤلف – لا يتردد عن ابداء آرائه في الفلسفة والدين ، فيتقبل سواد العامة فيهما آرائه بالاجلال والاكبار ، وهو ليس منهما على حظ كبير من المعرفة والتعمق ، وكان يخيل اليه انه يملك من الفلسفة واللاهوت مالا يملكه أساطين الفلسفة وملافنة اللاهوت الكبار . والحق يقال ان رجل العلم اذا انصرف الى غير علمه وذهب يدلي بآرائه ويصدر احكامه فانه يؤخر تقدم الانسانية ويعوقها في سبيل بلوغ كمالها الاعلى . فنحن شديدو الحاجة اذن الى أهل البحث والاختصاص ، فالعلم في كماله موقوف عليهم وعلى جهودهم الجبارة ، ولكن في دائرة اختصاصهم وتجردهم لما تصبو اليه نفوسهم وقد نصبوها له . ونحن كذلك في حاجة ملحَّة الى نخبة موهوبة من نبهاء شباننا تنصرف الى الدرس والتحقيق في عالم العلم . ولقد قلت الى نخبة لاني لا أرى العدد العديد ولا أقيم له وزناً بل احتفل بالمواهب والمزايا فوق كل شيء . فان تجلت في طائفة قليلة فحسب العلم بها تقدماً وارتقاء ، وتلك هي الطريق المثلى للنجاح .

فاذا استكمل اولئك العلماء عتادهم على نحو ما ذكر الكاتب العلامة اقبلوا على الانسان يتناولونه بالمراقبة والخبرة ، ولا بد انهم

واجدون في طريقهم اشياء جمة ملتوية الفهم عزيزة المنال في عالم الانسان الرحب . وأدع المؤلف يتبسط عليك ببعض هذه المصاعب التي يجدها علماء علم الانسان في بحوثهم وضروب تنقيبهم : « واول هذه المصاعب ان الخلائق الناطقة تتعسر مراقبتها فليس بينها مشاكلة تامة تتيح للعلماء ان يبنوا اختبارهم ويضعوا سنة قائمة وطيدة، فلو اخذنا بالمقابلة اسلوبين في التهذيب لوجب ان نختار احداثاً لِداتٍ اتم ما يكونون شبهاً في فطرتهم وخلائقهم ، وأين نجد ذلك ؟ فاذا اختلف هؤلاء الاحداث بيئة ، وغذاء ، وجواً ، فلن تأتي النتائج متقاربة اللهم الا ان يكونوا توائم فتجيء مرضية . فعلى الباحث ان يكون حصيف اللب ، نفاذ النظر ، متنبهاً جداً في اساليب علمه . فان تعذر عليه البحث بعد هذا في حاضره عاد ، ولكن في الاقل النادر ، الى التاريخ فقد يكون من المفيد احياناً الرجوع اليه ودرسه فلربما وجد في احقابه الغابرة ما يلقي نوراً وهاجاً على بحثه في حياة عباقرة رجال التاريخ ؛ هكذا مثلاً ما هي العوامل التي هيأت في عهد بركليس Périclès ظهور عدد عظيم من النوابغ ؟ وكذلك قل عن عهد النهضة La Renaissance فالى اي الاسباب يجب ان نعزو ازدهار العقل ، وخيال العلم ، والهام الفن ؟ وليس هذا فحسب بل ايضاً قوة البنية ، والجسارة ، والمغامرات في رجال ذلك العهد ؟ ولا يسعنا الا ان نقدر عظم الفائدة من الوقوف على دقائق التفصيل في حياة فترات العهود التي تقدمت ظهور اولئك الرجال الكبار ، ومعرفة الوان غذائهم ، وتهذيبهم ، وبيئتهم العقلية ،

والادبية ، والفنية والدينية .

وثانيها ان المراقب وموضوع رقابته يعيشان معاً في زمن واحد . وتعلم ان نتائج نهج في الغذاء او في التهذيب العقلي ، والادبي ، والسياسي ، والاجتماعي ، هي لا شك بطيئة بحكم طبيعتها ، فنحن لا نستطيع ان نحكم على نهج في التهذيب ونعرف قيمته الا بعد انطواء حقبة لا تقل عن ثلاثين سنة . وبعد مرور جيل نستطيع ان نتحقق تغيراً يحدث في نشاط طائفة في اجسامها وعقولها . اما هذه الاعلانات عن نجاح الافراد في محدثاتهم الشائعة بين الجماهير فهي سابقة لاوانها .

« فسير الانسانية يبدو لنا بطيئاً لاننا نحن معاشر الرقباء جزء من هذا القطيع الانساني . وليس في مقدور الفرد منا ان يقوم بغير نزر من المراقبات . وان حياتنا لجد قصيرة . فلو استطعنا ان ننشىء ما تظل به الاختبارات والمراقبات متوالية الحلقات لا تنفصم بموت منشئيها لكان ذلك خيراً عظيماً ، ونجاحاً باهراً ؛ ولكننا عاجزون اشد العجز عن تحقيق هذه المهامات وهي لا تزال في عالم الغيب . وان تحقق ذلك في غير ما نحن بصدده : هكذا رأينا ثلاثة اجيال من رهبان دير سوليم تتعاقب وتتظاهر متكاتفة على اعادة الترنيم الغريغوري في مدى لا يقل عن نصف قرن . وهذا مستطاع في درس علم الحياة الانسانية فيعوض عن حياة الفرد البحاثة بمؤسسات باقية تضمن موالاة الاختبار الواحد حتى غاية شأوه . ومن الحق ان نقول ان الحيوان

يساعدنا كثيراً فيما نحن فيه» واستخدام الحيوان في صنوف الاختبارات في الغذاء وتأثيره ، في سرعة النماء والقامة ، وفي الادوآء وطول الحياة اشهر من ان يذكر . وطوائف الكلاب والجرذان تنبئك عن نتائجها الباهرة ! فلاجل ان تتكامل المعرفة يجب ان يجري العلم ضروباً من الاختبار في الخلائق العاقلة وهي في وسعها ان تتوالى عليها اجيال كثيرة من العلمآء .

ويختم المؤلف بحثه الجميل هذا بالعودة الى طرق معرفة الانسان ، ولقد رأيت طريقة التحليل كيف تتخلل الانسان نافذة باحثة في كل جزء من اجزائه وفي كل قوة من قواه تدرسها على حدة وترى وظيفتها وصلاتها ومفاعيلها ، ولكن هذه الطريقة لا تجزىء وحدها فهي لا تتناول درس الاجزآء على تأليفها وردها الى غاية شاملة موحدة ، فكان من الضرورة القصوى ان تساعدها طريقة اخرى تتناول الانسان في مجمله وتعيد تركيبه او تأليفه ، وتجعله على عيني الباحث ماثلاً تكفيه نظرة ليلم به ، فتجتمع اذ ذلك الخواطر في وحدة حية وتغدو الجهود مثمرة ، وتداني الانسانية غايتها المثلى في معرفة ذاتها . وهذه الطريقة هي التي دعوناها التركيب او التأليف ويسميها الفرنسيون La Synthèse يعرفها كل من درس الفلسفة . اما المعرفة الاجمالية او الشاملة التي يتيحها لنا التأليف فغايتها مساعفتنا في جعل بيئتنا صالحة لنا وهي كما ترى غاية عملية جليلة النفع . وبهذه وتلك نقرب جداً من معرفة طباع الانسان وأخلاقه التي اثبتها الانتقاد العلمي الدقيق ، فمظاهر

الانسان المختلفة هي أشبه ما تكون بتلك المشاهد التي تترامى اليها انظار من يتسلق جبلاً فهو يجيل نظره فتأخذ عيناه جلامد الصخور ، ومهاوي السهول ، ويجتلي المروج والغابات ، ويسمو ببصره فوق ظلال الوهاد فيؤانس أشعة القمم ساطعة ، وبين هذه النظرات في حالي صعوده وهبوطه يجمع شتى ملاحظاته وهي على الحقيقة علمية اذ انها تؤلف نظاماً من المعارف لا بأس به ولا نقول ان لهذه المعارف دقة ونظام معارف علماء الهيئة والطبيعة ، ولكنها مهما تكن فلها دقتها ، ولها نظامها . فالتآليف اذن شبيه بتلك اللمحات الخاطفة تكون مصيبة وان وجدت ناقصة . ونحن مضطرون ان نختار بين الوقائع الكثيرة المختلفة وهو اختيار ، كما ترى ، استبداديّ فهو يهمل كثيراً ، ويغفل جماً منها ، ويجب ان تلم به نظرة . وانما كان كذلك ليقرّب فهم الوقائع الى العقل الانساني لانه عاجز عن ان يستوعبها كلها في دقائقها وجلائلها . ومهما يكن من الامر فليس في مقدرتنا ان نرسم لذواتنا الا كبار الخطوط والملامح من صورتها كتلك الرسوم التشريحية المنتشرة على الواح المعاهد السوداء فهي صادقة وان أعوزها جم من الدقائق . وهكذا نلم بمعرفة ذواتنا الماماً أدنى ما يكون من الواقع الواضح . »

ولا بد لي من كلمة أعقب بها هذا البحث الذي فرغ المؤلف منه فقد رأيت اذن كيف يبحث العلم عن معرفة الانسان مستقصياً سابراً وليس بدع فمعرفة ذواتنا جدُّ قديمة ، كانت يومَ لم يكن علم حديث منظم . وقد سعت الانسانية دوماً الى معرفة ذاتها ، وان تعذرت عليها

هذه المعرفة أو بعضها في بعض أحقابها الخالية فسعيها مشكور . فانه وجد في مواكب جماهيرها رجال نبوغ وعبقرية رفعوا لحاظها ودأبوا جاهدين على تعليمها وهديها في سبيل معرفة ذاتها أو قل نفسها لا يبالون بالاضطهاد ، والتعذيب ، والتشريد ، وآلام الحياة على اختلافها . ونحن لا نزال نسمع صوت ذلك الفيلسوف اليوناني مردداً من خلال الاجيال : « اعرف نفسك ! » وان أصمّت الانسانية مسمعيها فلا سبيل الى فتوره او تسمع ، وتفكر ، وتعرف !

ثم ينشر الهدى الانجيل ويدعو الى معرفة الذات او النفس فيتحقق ندآء سقراط وتقبل الانسانية الى الانطوآء على نفسها فيزدهر علم النفس ، وتشاد المعاهد عالية له وتكون الفلسفة المسيحية ونوابغها وترتفع ابصار الانسانية سامية الى هذه الآفـاق المترامية ، ويكون علم الانسان غاية جهود الانسان ووطر المسيحية الغرآء ، فالنفس وقواها معروفة اذن ، واهوآء الانسان مدقق فيها معهودة . ولا تزال تلك المعاهد العظيمة على مدى الاجيال سائرة أبداً الى التطلع ، والدرس ، والبحث تنشر لوآء العرفان ، ووطرهـا الاسمى علم الانسان ومعرفة نفسه والارتقاء به الى كماله الاعلى وغايته القصوى الى خالقه العظيم .

ويطلع العلم الحديث من جوانب تلك المعاهد الكبرى ، ويمضي في طريق معرفته واكتشافه ويرفع مناره عالياً ، ويود ان يسير كل شيء ويصل الى صميم كل شيء ، ويحيط علماً بكل شيء فتؤدي اليه الفلسفة جلى الخدمات ، وعلم النفس ركن من اركانه الكبرى التي يعتمد عليها

في بنائه الجديد ، فهو يمزج بينه وبين اساليبه الخاصة ليدرك النفس والجسم ومفاعيلهما المشتركة ومداها عليهما بدقته الحاضرة ، وعتاده الكبير ، والآلة البالغة في كمالها ولا تنسَ ان المؤلف يدعو ملحاً الى معرفة العقل والنفس والعودة الى سماع ذلك الصوت النَّديّ : « اعرف نفسك ! »

والى جانب ذلك كله ، وهو قيّم عظيم ، نرى الادب في جانب من جوانبه الفسيحة يساعد على معرفة ذواتنا ، وذلك الجانب منه هو جانب الشعر التمثيلي وبعض الغنائي منه وخصوصاً الجانب القصصي الشائع ، ومن لا يقرأ القصة ويغرى بها مفتتناً ؟ ومن ينكر عظيم أثرها اليوم في المجتمع ؟ فالقصة تحليل نفسي ودرس مدقق لاهوآء البشر جيدها ورديئها ، وان غلب ، لسوء الطالع ، جانب رديئها . وهي بحث ممتع لتقلبها فيعرف المرء ذاته ، ويأخذ عدته لاكتساب مزايا حميدها والتنكب عن فاسدها ، فالادب اذن كما يقول الاديب الكبير مورياك « قيامة وحياة ! » والقصاص أشبه ما يكون بالعالم في مختبره وبين يديه لا مواد كيميائية بل عواطف انسانية يذهب في تحليلها والتدقيق فيها كل مذهب ! وحبذا هي من وسيلة فعّالة للخير والمعرفة لولا أن الانسان ميّال بطبعه الى الشر ، مفتون بألوانه واسبابه ، يقبل على ما يحطه من رفرفه السامي فيترك جانباً الاعلى ، ويتدلى الى الاسفل ، جاهلاً ذاته ، نسّاء لوطره الوحيد في الحياة لا يمتد الى ما وراءها ، بل يمسك نفسه كما يقول علامتنا كاريل في دائرة مادتها ، ويا للبلاء .

والشقآء !

فأنت ترى ان اشيآء العالم بأسرها توالي الانسان ، وتساعده على معرفة ذاته فهل تراه يعرف ؟!

و كذلك ارى لزاماً عليَّ ان أقف مروناً مفكراً معك عند كلمة مرت في خلال بحث المؤلف ذات شأن في حياتنا الاجتماعية الحاضرة ، بل وفي كل حياة اجتماعية وهي : « نحن في حاجة ملحة الى نخبة من نبهآء شباننا تنصرف الى الدرس والتحقيق في عالم العلم ، ولقد قلت الى نخبة لاني لا ارى العدد ولا اقيم له وزناً بل احتفل بالمزايا والمواهب فوق كل شيء ، فان تجلت في طائفة قليلة فحسب العلم بها تقدماً وارتقآء وتلك هي الطريق المثلى للنجاح .

هذا رأي المؤلف في النخبة من الشباب ، وهذا شعوره بالحاجة الماسة اليها ، والنخبة في اوروبا تأخذها العين في كل ناحية من نواحي المجتمع ، وفي كل شأن من شؤونه ومثلها الاعلى منارها في حياتها ، وصفحات تاريخ بلادها وامجادها تملأ نفوسها ، وتملك عليها حواسها ، وتهيب بها ابداً الى الدأب ، والجد ، والنبوغ ، والى كتابة صفحات لامعة في المجد جديدة ، ليكون الاحفاد اهلاً لاولئك الجدود الاعاظم ويرفعوا مقام أمتهم عزيزاً بين الشعوب .

ونلتفت على وحي هذه الخطرات الى الشرق فلا نرى هذه النخبة العزيزة المأخوذة بمثل اعلى السامية الى الحق ، والخير ، والجمال ! وانها حقاً الدماغ والقلب تتفجر منهما القوة والحياة على الامة وسوادها الاعظم ،

فتفعلان ما لا تستطيعه قوة اخرى عظيمة . وسنبقى لعمري ضِعافاً ، متفككين ، ليس لنا قوة ، ولا حياة تنبث في الجمهور فتحييه وترفعه الى مثل اعلى ، حتى نرى طلائع النخبة بيننا متآلفة تندفع في طريق الخير والعمل ، فتجذب الامة وراءها ، هذه النخبة الناشئة التي قال فيها الشاعر الفرنسي الكبير پول كلوديل : « يقولون ان الشباب هو عهد الملذات ، لم يصدقوا ، انه عهد البطولات ! »

فمتى نرى هذه النخبة الجريئة ، الصاعدة ابداً ، المستمدة قوتها من ايمانها ، وعلمها ، وثبات ارادتها ، وتاريخ امتها ، وحبها لتقدمها ، ومثلها الاعلى في الحياة ، ومن ايده تعالى ؟ ! وحيا الله هذه النخبة العزيزة التي اتخذت كلمة واحدة نهجاً لحياتها وهي « ان اعمل ابداً » وسعداً لامة ترى نخبتها مؤلفة ، انها اذن لامة كتب لها البقاء المجيد على وجه الدهر . واظنك تذكر في هذا المقام كلمة العلامة الكردينال نيومان : « اذا ارتفعت نفس رفعت العالم ! »

أنشىء هذه النخبة تنشىء امة عظيمة ؛ فهل طلائعها مبشرة في الشرق العزيز ؟ !

٣

الجسم وانواع نشاطه الفيسيولوجي

بحث المؤلف فيما تقدم في ضرورة معرفة ذواتنا ، وفي علم الانسان والانسان كما تعرِفُهُ الفلسفة « حيوان ناطق » ويعنون بذلك انه مركب من نفس وجسد ، فمعرفة الانسان اذن يجب ان تكون في نفسه وجسمه . ولذلك ترى الكاتب والمفكر القدير ينهج هذا النهج المنطقيّ المحكم فيأخذ في درس قوى الانسان الطبيعيَّة اعني الجسميَّة ، ويسير بعدها الى درس قواه الروحيَّة ، او قل هنا العقليَّة . فيتحقَّق اول ما يتحقق اننا على يقين من وجودنا ، ونحن نملك نشاطاً خاصاً وشخصية ، ونشعر اننا متمايزون عن سائر الخلائق ، نحكم نفوسنا ، ولنا ملْ الحرية في اعمالنا ، وكذلك نحن إما سعداء او اشقياء ، وتلك حقيقة لا يحتاج معها الى برهان . ويتابع بحثه فيقول : « ان حالات ضميرنا تجري مع الزمان كما يجري الجدول في واديه ، فنحن اشبه ما نكون به في تغيره وثبوته . بيد اننا لسنا كسائر الحيوانات اذ اننا مستقلون اكثر منها في بيئتنا التي نعيش فيها فقد حررنا عقلنا من اسرها . وسِمة الانسان الاولى هي انه مخترع ، فهو الذي اخترع السلاح ، والادوات ، والآلات ، فميزته اختراعاته ، وابدت سماته الخاصة ، الفارقة له عن سائر الخلائق . وبرزت تلك السمات بأعظم مجاليها في اقامة التماثيل ، والهياكل والممثلات (والمسارح) والكنائس الكبرى ، والمستشفيات ، والجامعات

والمختبرات ، والمعامل . وآثار نشاطه على وجه البسيطة تدل عليه ، وتنطق بعلو مـداركه ، في الفن ، والدين ، والادب ، والذكاء ، والاستطلاع العلمي .

« ونستطيع ان ننظر الى مُنبَثَق تلك القوى نظرتين : نظرة خارجية ، ونظرة داخلية فنلم في النظرة الداخليه بخواطرنا ، ونزعاتنا ، ورغائبنا ، وافراحنا ، وآلامنا ، ونشمل بالخارجية جسمنا ، وجسم من يشبهنا . فالانسان اذن ذو مظهرين مختلفين جدّ الاختلاف . ولهذا قالوا بحق انه مركب من جزئين هما النفس والجسد يتمازجان فلا يكون الواحد دون الآخر . اما جسمنا فهو بادٍ للعيان بجرمه ، نشعر بلذة خفيّة في عمله المنتظم ، وهو خاضع لنظم مستترة لا نعرفها ، ولا تبدو الا لعلماء التشريح والاعضاء . ولا يتاح لنا ابداً ان نستجليه في مظهره الخارجي العام ، ولا في مظهره الداخلي الخاص . واذا استبطنّا الدماغ وتغلغلنا في جوانبه الداجية فلسنا نهتدي ابداً الى وجود الوجدان (الضمير) ، فالنفس والجسد في مظاهرهما هما من انشاء اساليب المراقبة ، افرغتها هذه في وحدة لا تتجزأ .

« وتتألف هذه الوحدة من أجزاء ثلاثة هي الانسجة ، والسائلات والوجدان ، وتمتد في المكان والزمان » ثم يتكلم المؤلف عن قياس الانسان وما يملأ من الفراغ في الوجود الى ان يقول : « ان الكائن الانساني هو في غاية التعقيد لا نستطيع ان نلم به في مجمله ، فوجب من ثم ان نجزئه اجزاء ندرسها على حدة وهذه غاية علم الفسيولوجيا

(علم الاعضاء) ، الذي نحن آخذون به الآن .

وبعد هذه المقدمة الوجيزة والتعريف الدقيق ، يأخذ العالم في درس امتداد الجسم وهيئته ولا بأس ان تعرف شيئاً من اراء المؤلف ونظراته فكلها لذيذة وهي طرفة في بابها ، تمدها الملاحظة والاساليب العلمية بأثمن وادق ما عندها ، وهذا لعمري بحث موصول بطبيعتنا اقرب ما يكون منا ، وعلى قربه الادنى ، فكم منا من يجهله كله او جُله ، ولا عذر لنا في جهلنا المتمادي ، فهل نعرف : « ان الجسم البشري هو على منتصف سلم الكبائر في الكون ؟ فهو بين الذرة والكوكب يكون بحسب ما تقيسه اليه كبيراً او صغيراً . فاذا قسته مثلاً الى ذرة الهيدروجين بدا في نهاية الكبر ، او الى جبل بان في غاية الصغر . ومن الحق ان نقول ان كبرنا او صغرنا ليس لهما شأن هنا ، وما يميزنا لا يملك امتداداً في المكان . وهذا المركز الذي نشغله في العالم لا يتوقف حقاً على ضخامة حجمنا او ضآلته » .

ثم يعلل العالم قياس قامتنا تعليلاً علمياً ويعود ذلك الى خلايا الانسجة فيلاحظ ان ضآلة الجسم او جسامته ترجعان الى مؤلفات مواده وقد لا يكون من اللذيذ ان نتبسط مع الكاتب في استقراء دقائق العلم ، واستعراض اجناس البشر ، وتغايرهم في قاماتهم ، وعاداتهم ، وانواع حياتهم وبيئاتهم . ونتخلص بعد هذا الى القول معه : « وفي العادة ان الافراد الاشد احساساً ، وخفة وجلداً هم ليسوا كبار الاجسام . وكذلك قل عن رجال العبقرية ، فموسوليني متوسط القامة

وقد كان نابوليون قصيرها .»

وارجو الا يغضب ذوو القامات المديدة ، فلم ارد بهم الا خيراً حين اوردت كلام المؤلف ، وهو كما يفهمون ، لا يقرر سُنَّةً « ثابتة » غير متبدلة ولا متحولة بل هو يقول في العادة ! وكم من طويل سكب هو متقد الحس ، لطيف النفس ، عبقري لا يدانيه القصير المتآزف !! والمثل العامّي ليس صحيحاً كل الصحة ! وما اصدق قول الشاعر : كل يعد نفسه نعم الفتى !

اما ما نعرفه عن اشباهنا فهو هيآتهم ، ومشيتهم ، فالهيئة تدل على الصفة ، وقوى الجسد ، والوجدان . وهي تختلف في الذرية الواحدة بحسب اختلاف الافراد ، فرجل عصر النهضة مثلاً وقد كان يقضي حياته في مكافحة اهوال الطبيعة وخطوبها ، وتعروه هزة الطرب لاختراعات غاليليه ، وبدائع دي فينشي ، وروائع ميكلنج ، يختلف في ملامحه وشكله عن رجل العصر الحديث ، وهو يقضي عمره ويفني ايامه ، في المكتب ، او في سيارة محكمة النوافذ ، او في دور السينما ، يشاهد تافه الافلام (الاشرطة السينمائية !) او يستمع للمذياع (الراديو) او ينصرف الى لعب الغولف او البريدج . فلكل عصر طابع يطبع به من يعيشون فيه . ونحن نشهد اليوم خصوصاً عند الشعوب اللاتينية نشأة نوع جديد من البشر انشأته السيارة والسينما . اما خصائصه التي يتميز بها فهي انه رهل الجسم ، ذو بشرة تضرب الى الصفرة الفاقعة ضخم البطن ، ازل الفخذين ، تلوح على محياه سيماء الذكاء والفطانة .

وهناك ايضاً الى جانب هذا النوع نوع آخر كأنما هو معد للنزال ، ذو منكبين عريضين ، مديد القامة ضئيلها تتصل بهامة اشبه ما تكون بجمجمة العصفور . واجتزىء بهذا القدر ولا اسهب عليك مع الكاتب فقد مثل لك رجل اليوم بأبرز ملامحه . ويتناول المؤلف بعد اسهابه درس الوجه وما يعبر عنه ولا اظنك الا ذاكراً الكلمة المأثورة الصادقة « الوجه مرآة النفس » لتعرف كمال الوجه ومقامه من الانسان . يقول الكاتب : « ان الوجه يعبر عن اشياء وخوافي لا تعبر عنها حالات الوجدان . فوجه المرء كتاب تقرأ فيه الرذائل والفضائل ، الذكاء والبلادة ، واخفى ما يطويه الانسان من عاداته ، وليس ذلك فقط بل ايضاً بناء جسم المرء ، واستعداداته للامراض الجسدية والعقلية . فالوجه اذن مجمل الجسم ، او قل هو مرآة له ، وهو يحمل للناظر المدقق حالة جسم صاحبه ونفسه .

فاذا أجمل المؤلف درس الجسم سار رويداً رويداً الى تحليله في أجزائه فيتناول اولاً ظاهره ويدرس بشرته ثم ينفذ الى داخل الجسم الى العالم الداخلي ويأخذ في درسه وجوّب انحائه كلها . فالبشرة او الاهاب الذي يستر القسم الخارجي منه هو كممطر لا تستطيع قطرات الماء ان تتخلله ، وهو لا يدع الجراثيم التي تعيش على ظاهره تتسرب نافذة بل ان في استطاعته القضاء عليها . ولكن هناك حييوينات صغيرة جداً تقدر على النفاذ منهُ الى الداخل . ويدرس الجسم درساً علمياً دقيقاً في صلاته بالعالم الخارجي هو من شأن العلماء لا من شأننا . واقف بك عند كلمة

تجمل لك الجسم وتمثله تمثيلاً تكاد تلمسه وهي : « ان الاهاب هو حدودُ لعالم داخلي موصد قد حُرِسَت حراسةً أدنى ما تكون من الكمال »

ونمر كذلك مراً بدرس داخل الجسم في بنائه وخلاياه مع عملها ونظامها . أما الدم فحسبك ان تعلم انه نسيج كسائر الانسجة مؤلف من حُبيبات يبلغ عددها الوف المليارات ، متحرك يجوب اعضاء الجسم واطرافه ويحمل الى كل خليّة من خلاياه ما تحتاج اليه من الغذاء لحياتها . وفي وسعك ان تتسرب في خفاء الى الانسجة وتشهد كيف تتغذى بمساعدة الاكسجين والهدروجين والكربون ، وتتحقق ما هو فعل الغذاء ، وكيف تموت سريعاً اذا أعوزها . ثم جُل مع الدم في انحاء الجسم واطرافه وانظر كيف تمتلىء به الشرايين فتنتظم الحياة بدورته ، وتحقق سرعة الحركة الدموية وارتفع الى الرأس والمس تأثره الشديد اذا نقصه الاوكسجين ، فاذا انقطع سريان الدم دقائق معدودة كان القضاء المحتم ولنخلص الى نتيجة عملية تعنينا وهي ان سلوكنا وسمة خواطرنا متوقفان على ضغط الشرايين .

ثم يتقصى المؤلف صلات الجسم الكيميائية بالعالم الخارجي ، ويروقه البحث . ولا بدع فهذا علمه الذي انقطع له ، وتوفر على درسه ، فقد عرفت فيما مر بك انه يحاول ان يجد سر الحياة ! ويجهد بي حقاً اذا تبسطت قليلاً مع البحاثة العلامة ، ونصير الى آفاق ما قدرنا بلوغها ، ولسنا نعرف كيف نحسن الاضطراب في رحباتها . ولا بد والكلام عن الجسم في اجزائه كلها من بحث العلاقات الجنسية ، يمر بعدها

الكاتب الى الجهاز العصبي ، ويرتقي الى الدماغ ، فيفصل في بحثه ويلم المامة واضحة بحياة الاعضاء التي تعمل عملها دون شعور منها ، وان شئت استجلاء هذه الغوامض فعد الى الكتاب ، او الى اي سفر من اسفار العلم ، ولج عتبات هذا العالم الداخلي فهو يرحب بك وبالآلاف الرواد امثالك .

وبعدئذ يبحث المؤلف في تعقيد الجسم وبساطته فينهي اليك ان جسمنا مؤلف من طوآئف شتى من الخلايا ، وكل خلية منها مؤلفة ايضاً من مليارات من الخلائق الحية ، وهي على كثرتها البالغة واختلافها تتآلف تآلفاً عجيباً ويجمعها الجهاز العصبي ، وتشعر شعوراً واحداً عاماً . وانها لبسيطة على تراكبها وتغايرها ، ترى في الظاهر مختلفة ، اما هي فوحدة في غايتها وعملها اشبه ما تكون بماء الاوقيانوس . وقصارى القول ، ان الجسم مختلف في تركيبه التشريحي Anatomique مؤتلف في تركيبه الفسيولوجي physiologique يأتي اعماله كأنه بسيط في تركيبه ، وانما يبدو لنا متشعباً في بنآئه ، وهذا التناقض منشأه تصور عقلنا الذي يتمثل الانسان في تركيبه كما يتمثل الالة في صنعها .

ولكن صنع جسمنا لا يشبه في الواقع صنع الآلة ، فالآلة مركبة من اجزآء كانت مستقلة بعضها عن بعض قبل تركيبها ، حتى اذا ركبت صارت الى البساطة ، وهي معدودة لوظيفة اوغاية معلومة فهي نظير الجسم بسيطة ومركبة . بيد انها في بادىء امرها مركبة فبسيطة على عكس ما نشاهد في الانسان ، فهو اولا بسيط ثم مركب

يتركب بادىء ذي بدء من خلية عظيمة تتجزأ بدورها الى خلايا ، وهذه ايضاً الى خلايا ، وهكذا الى ما لا يحد ويحصى . وليس بين ايدينا ما يتماثل مع تركيب جسمنا تماثلاً كاملاً لنستطيع ان نقيس عليه . ونواميس الميكانيك ، والطبيعيات ، والكيمياء ، تنطبق انطباقاً تاماً على العالم المادي ، وليس تنطبق كذلك على الانسان . حقاً اننا لا نعرف كيفية تركيب جسم الانسان الا معرفة اولية لا تغني شيئاً . ومن الولجب ان نكتفي الان بملاحظة مجمل اعضائنا الجسدية والعقلية فنتقدم على هدي هذه الملاحظة الى معرفة المجهول .

والمؤلف بحكم الحال متعرض في بحثه ، ليكون كاملاً شاملاً ، للكلام عن قصف fragilité الجسم ووثاقته ، يريك الجسم في غاية اللطافة والتأثر واللين ، ويريك اياه كذلك آية في الشدة ، والجلد ، والاحتمال . وانظر كيف يصفه : « ان جسمنا شديد الاسر متماسك يتعود مختلف المناخات ، فيحتمل الرطوبة ، والجفوف ، وبرد الاقاليم القطبية ، وحرّ المناطق الحارة ويصبر على الجوع ، وضروب العناء وهوج الطبيعة ، والتكاليف الشاقة ، فالانسان بطبيعته اشد الحيوانات احتمالا وهو على وثاقة تركيبه لطيف الاعضاء فتراها تتمزق عند اقل صدمة تصيبها ، ويعتريها التغير سريعاً اذا وقفت دورة الدم ، ولطافة الدماغ وسواه من دقيق الاعضاء لا يحتاج معها الى برهان .

اما متانة الآلة فناجمة عن مادتها ومعدنها ، واما وثاقة الجسم فناتجة عن طبيعة الخلايا وامتدادها ، وصلابتها ، وتجددها ابداً بدل ان تفنى

وتزول . وهذا هو سر تفوق الخليقة الناطقة على سائر الخلائق في الكون كله .

وانا لنجهل حقاً طبيعة هذه الوثاقة في الجسم ولا نهتدي الى سرها سبيلاً ، ونحن نجهل طبيعة هذا التفوق في العصب والعقل ، ولا نعلم الا ان هذه المزايا قد توارثناها منذ اجيال وقد يمكن ان تزول يوماً . وتاريخ الحضارات في القرون الغابرة ينبئنا عن وقوع مثل هذه الاحداث .

ويختم المؤلف بحثه العلمي هذا بالكلام عن الامراض من معدية ، وقالبة مغيِّرة ، فاذا احببت الاستقصاء في جراثيمها والوانها الكثيرة فعد الى المؤلفات فيها فترى الانسان كيف هو معها في جهد جهيد ، وكفاح مستمر حياته كلها . اما النتيجة التي يخرج بها مطالع هذا البحث فهي ان الطب على تقدمه ، وكمال اسبابه ، لم يهتدِ بعد الى معرفة جسم الانسان وما يطرأ عليه ، ويتعرَّض له ، معرفة ليس بعدها معرفة ؛ ولكنه يلمُّ بأشياء وتغيب عنه اشياء لا بد من معرفتها ، فهو لا يبرح عند رتاج عالم مجهول !

ولقد خطرت ببالي كثيراً وانا اطالع بحث المؤلف الممتع عن الانسان وجسمه ، وخوره في الطبيعة وعظمته ، كلمة للمفكر العظيم باسكال في « خواطره (Pensées de Pascal) عن الانسان كذلك أنهي بها قال : « ان الانسان هو في غاية العظمة ، وعظمته هي في ان يعرف شقاه . فالشجرة لا تدرك شقاها . وفي الحق ان من الشقاء ان يعرف

الانسان شقاءه ولكنه من السمو ايضاً ان يدرك الانسان الشقاء. وضروب شقاء الانسان كلها برهان ساطع على عظمته.

« ليس الانسان سوى قصبة هي اشد ما يكون ضعفاً في الطبيعة ولكنها قصبة مفكرة فلا يجب على الطبيعة ان تتسلح كلها لسحقه. فشيء من البخار ، وقطرة من الماء ، في استطاعتهما القضاء عليها. بيد انه اذا سحقه الكون اصبح الانسان اجل وانبل من ساحقه ، لانه يعرف كيف يموت ، وهذا للفضل الذي للكون على الانسان لا يعرف الكون شيئاً منه. »

وحسبك هذا وكفى!

٤

انواع العمل او النشاط العقلي

لقد انهى المؤلف كلامه عن انواع النشاط الجسدي فبسطه بأبدع مجاليه؛ ولكن الانسان لا يملك نشاطاً جسدياً يدير نفسه بنفسه، وينحو غاية في مقدوره ان يبلغها او يحييها عن كثب، الا ان تكون الى جانبه قوة روحية اعلى منه، تنظِمه وتريه غايته، وتحفزه اليها وتلك هي العقل في الانسان، وآثاره بادية للعيان، كآثار قوى الجسم في مظاهرها الخارجية، فهي عقلية، وادبية، وفنية، ودينية واجتماعية. وهنا يمضي الكاتب باحثاً في دقة صلات النفس والجسد شأنه في سائر مباحثه العلمية المحكمة فيقول: «ان الجسم والنفس مؤتلفان ائتلافاً عجيباً، وبينهما وحدة تدهش حقاً كل متأمل فنحن لا نستطيع ابداً ان نقول ان بينهما استقلالاً، او ان نأخذ برأي ديكارت فنراهما على اختلاف ليس بينهما شبه؛ فلولا النفس ما كانت الحياة ولا كان للجسم قوة على الوجود؛ ولا تمايزت الاشخاص والكائنات الحية. فنحن نحيا ونفكر ونتحقق وجود النفس. بيد ان عالم النفس الداخلي لا يزال الى اليوم من مخبآت الغيب. وهذه النزعة الملحّة التي نحسُّ بها نحو ذواتنا تحملنا على ان نطرح على نفوسنا اسئلة لا جواب لها وليست من العلم في شيء. فما هي مثلاً طبيعة الفكر، هذا الشيء الغريب الذي ينشأ ويحيا بين جوانحنا ولا يكلِّف بذل جهد عظيم؟ وما هي صلاته بأشكال القوة

المألوفة ؟ وان العقل ليمرُّ مرًا خفيفاً في صميم المادة لا يشعر بدبيبه ، وعلى ذلك فهو اعظم قوة جبارة في العالم . فلقد غيَّرَ وجه الارض وأنشأ الحضارات ، ثم قلبها ، وابدع عالم النجوم . فا الذي ينشىء العقل اذن ؟ أتنشئه الخلايا الدماغية كما تنشىء الكبد المرّة مثلاً ؟ وما هي سوابق الفكر في الخلايا ؟ وما هي تلك المواد التي يصفَّى بها الفكر في تكوينه ؟ وهكذا ! . . . او على العكس ، هل يجب ان نعتبر الفكر فوق المادة كائناً خارج المكان والزمان وحدود هذا العالم ، يتسرب الى الدماغ بطريقة مجهولة هي سر مظاهره تُعَرِّف خصائصه ؟ لقد قام في البلاد قاطبة على كر الدهور ومر العصور فلاسفة كبار وقفوا حياتهم على استجلاء هذه الغوامض فبآؤوا بالخيبة ، ولم يجدوا لها مجلى !

« وسنطرح أبداً على نفوسنا هذه الاسئلة ونحن على يقين تام من قصورنا عن الجواب عليها . اما شأن رجال العلم معها فليست عندهم ذات بال الا ان يهتدوا الى طرائق علمية جديدة تمكنهم من ادراك مظاهر الوجدان ادراكاً أدق وأكمل . ونحن مضطرون للتقدم في معرفة مظهر الانسان الخاص هذا الى ان نجتزىء بدرس المظاهر التي نستطيع ادراكها درساً دقيقاً باساليب الملاحظة التي نملكها ، وصلات تلك المظاهر بانواع النشاط الجسدي » ثم يقول : ولا يجب ان نفرق بين المادة والعقل في درسنا لانهما عالمان متباينان ؛ فقد ارتكبنا غلطاً عظيماً منذ عصر النهضة : ذلك بان منحنا دون ما نظر ، بعض مظاهرنا شأناً ليس لها . وقد قسمنا المادة والروح الى قسمين مستقلين ، ونسبنا الى

الواحد دون الآخر حقيقة أعظم خطراً . فالعلوم يجب ان تسير في بحثها ودرسها هنا سيراً واحداً فتدرس الانسان كمركّب من مادة وروح يأتلفان ويلتقيان معاً ولهما كلاهما الخطر نفسه والقيمة عينها ، ولهما علينا الحق ذاته في ثقتنا ورعايتنا .

ثم يأخذ المؤلف في درس الفهم او انواع النشاط العقلي ، وأدع الكاتب يتبسط عليك في الحديث فسمعاً : « ان وجود العقل لتسهل معرفته على الناظر . وتلك القوة التي في استطاعتها أن تدرك صلات الامور بعضها ببعض ، تأخذ في كل فرد من افراد المجتمع هيئة وقيمة تختلفان اختلافاً بيّناً ، ونستطيع ان نقيس الذكاء بمقاييس علمية خاصة غير ان هذه المقاييس وان لم يتهيأ لها ان تعطينا الا معرفة ناقصة عن قيمة الذكاء في الخلائق العاقلة فهي مع ذلك تتيح لنا ان نقسم الخلائق بالنظر الى وزن ذكائها الى طوائف متعددة ومتفاوتة . فاذا نظرنا الى الكائنات الناطقة وجدنا في كل فرد من افرادها فرقاً في مقدار الذكاء وصفته . والكل يولدون وفي فطرهم استعداد متفاوت في الذكاء . ولا بد للعقل أكان راجحاً ام خفيفاً من التمرين المستديم ، ومن شروط في البيئة التي ينشأ فيها لا نقدر على تحديدها .

ومن أهم الوسائل في إحكام العقل ، الملاحظة التامة الدقيقة للامور ، وتعوّد التفكير الدقيق ، ودرس المنطق ، ومراعاة الدقة في الكلام باسلوب يكاد يقرب من الارقام الحسابية ، والتنظيم الداخلي في القوى . وعلى العكس فان الملاحظة الناقصة ، القريبة الغور ،

الخاطفة ، والانتقال السريع في التأثرات ، وتعدد الصور والمواضيع ، تمنع العقل من بلوغ كماله .

وليس من الصعب ان ترى خبوّ الذكاء بين اولئك الاحداث الذين ينشأون في بيئة غير راقية ، وبين ابناء العامة ، وبين جدران المدارس التي لا تعنى بتعويد طلابها الجد والتفكير . و كذلك نوع الحياة من شأنه ان يصير الى هذه النتيجة ، فالعمال وابطال الرياضة والملاكمة هم خامدو الذكاء . فالاسراف في الرياضة ، والخروج عن الحد في الغذاء يعوقان ، ولا شك ، التقدم النفسي . والذي يبدو لنا هو ان العقل لا يبلغ كماله الاعلى الا بشروط لم تتحقق في غير فترات من العصور الذاهبة ، ولم تبذل الانسانية جهدها لمعرفة طبيعة تلك الشروط . وليس لنا اي المام بتكوين العقل . ونحن نتوهم ان في وسعنا ان نبلغ به كماله المنشود بارهاف حافظتنا ، او بتلك التمارين التي تعد بها المعاهد طلابها .

ولكن العقل وحده ليس في طوقه ان يولِّدَ العلم ، ولكنه عنصر من عناصره اللازمة والعلم من شأنه ان يؤيد العقل اذ هو مظهر من مظاهره وقد حمل الى الانسانية التحقيق او اليقين الذي يولده الاختبار والتفكير . وهذا اليقين مختلف حقاً عن يقين الايمان ، فيقين الايمان اشد وارسخ لا تقوى على زلزلته البراهين نفسها فهو يقرب من يقين المكاشفين Les Clairvoyants ومن الغرابة ان يكون هذا اليقين غير اجنبي عن قيام العلم . ومن الثابت ان الاكتشافات العلمية الكبيرة ليست من انشاء العقل وحده . فعباقرة العلم يملكون ، خلا قوة

الملاحظة والفهم ، مزيتين هما الزكانة L'intuition والخيال المبتكر . فبالزكانة يدركون ما يستتر على سائر الناس ، ويكتشفون صلات بين أشياء ترى في ظاهرها متناكرة ، ويهتدون الى دفائن الكنوز المجهولة . وكبار الرجال كلهم تزينهم الزكانة ، فتراهم يعرفون دون تروٍّ او تدقيق ما يودون ان يعرفوا . فالقائد الحقيقي المدرب لا حاجة به الى شهادة نفسية اوعسكرية ليختار اعوانه . والقاضي الحكيم لا حاجة به كذلك الى مطالعة دقائق التفاصيل ، حتى ولو اتفق له ان يعتمد على اشياء لا توافق الصواب . ليقضي قضاء عدلاً . وترى العالم يدفع محمولاً الى الناحية التي يوفَّق فيها لاكتشافه . وهذا ما كانوا قديماً يسمونه الالهام .

والعلماء فئتان ، فئة تميزها روح الزكانة ، وفئة تجملها روح المنطق ، ولهما كلتاهما اليد البيضاء على العلم في تقدمه ... ثم يتكلم الكاتب عن الزكانة واثرها في العلم فيقول انها وسيلة عظيمة فعالة ، ولكنها خطرة . ذلك لانه يعسر ان نميز بينها وبين الوهم . واولئك الذين يسترسلون منقادين لها وحدها هم مستهدفون للانخداع والضلال ، ولسنا على ثقة من امانتها . وكبار الرجال وحدهم او السُّذج الانقياء القلوب في استطاعتهم ان يطمئنُّوا اليها فتحملهم عالية بهم الى اوج الحياة العقلية والحياة الروحية . فهي في الحق قوة غريبة . ولا يزال المؤلف متدرجاً في هذا المنطق المحكم الدقيق حتى يريك ان نوع هذه المعرفة يقرب من المكاشفة التي يدعوها العالم شارل ريشه Charles Richet

الحس السادس Le Sixième Sens . ويحدثك بعد هذا عن المكاشفة ، وقد رأيت فيما مر بك انها هي والزكانة تساعدان العقل كثيراً في العلم . فيثبت وجودها معتمداً على الملاحظة فيقول : « ان المكاشفين يدركون بدون وساطة الحواس ، افكار شخص آخر وتتبدى لهم حوادث جد بعيدة في المكان والزمان . وهذه القوة هي من الشذوذ لا تكون الا عند افراد معدودين . اما في حالتها الاولية فتكون عند كثير من الناس . وهي تعمل بدون جهد بديهاً ، وتبين لمن هو متصف بها انها بسيطة جداً . وهي تهبه معرفة في بعض الامور محكمة لا تهبها الحواس نفسها . ولاهون على صاحبها ان يقرأ افكار فرد من الافراد من ان يتقصى ملامح وجهه . » وهكذا ترى العقل مع أعوانه يدأب على معرفة العلم الخارجي ، وترى ان العقل هو الذي وضع بين يدي الانسان الطبيعة بأسرها فملكها به : « ملكٌ أقدر قيّم ! »

« فالنشاط العقلي متميز عن سائر حالات الوجدان المتقلبة وغير متميز عنها ؛ فهو حالة من حالات وجودنا يتغير معنا متطوراً ، وهو شبيه بفلم السينماء (الشريط) يعطيك مجالي حادثة من حوادث التاريخ تمر تباعاً معادة امامك تتغير بتغير المواقف ، او هو اشبه ما يكون بغوارب الامواج تترآى في اغوارها وعلى رؤوسها غيوم السماء المارة فيؤثر في قرارات حالات عواطفنا او تأثراتنا المتقلبة بين الالم والفرح ، والحب والبغض ، وهي هذه الحالات المتأثرة التي تعطي العالم ذلك اللون الذي تراه عليه . وكلٌ يعرف ان الحب أو البغض او الغضب او

الخوف ، في استطاعته ان يدخل الاضطراب على المنطق »

رأيت فيما مر بك أن المؤلف حين تكلم عن آثار العقل قد قسمها الى عقلية وادبية أو خلقية (Morale) وفنية، ودينية، واجتماعية: وهذا هو التقسيم الذي يأخذ به في درسه ، فهو يدرس كل أثر من هذه الآثار على انفراد . ولا بد لي من ملاحظة يسيرة تعود عليك غير مرة في تضاعيف الكتاب وهي هذه الشهادة العظيمة البالغة التي يؤديها العلّامة كاريل الى الكنيسة الكاثوليكية جاهراً بها في اعجاب ، لدرسها وفهمها النفسي العميق لاخلاق الشعوب ، او قل للنفس الانسانية ، واشباع رغباتها العليا ، ومسايرتها الحضارة الحديثة على انواعها كلها ، وانزالها الاخلاق المنزلة الاولى ! وحسبك ان تذكر هنا الفضائل الادبية لتعرف كيف ترى الكنيسة الانسان وكيف تريد ان يكون ! ولست ادري هل كان المؤلف كاثوليكياً ؟ وعلى كل حال ان شهادة مثل هذه الشهادة من عالم كبير مثل كاريل لما يرفع به الرأس كل مسيحي ينتمي إلى الكنيسة الرومانية المقدسة . ان افضال الكنيسة الكاثوليكية على الانسانية جمعاء ، وعلى التمدن والعلم ، والفن ، وعلى كل ما يرقى به الفرد والمجتمع الى مثله الاعلى ، ملء صفحات التاريخ على توالي الاحقاب والاعقاب لا يكابر فيها مكابر !

ونعود بعد هذه الكلمة الى متابعة العالم في درسه ويبادر فيعرفك بأنواع النشاط العاطفي او المتأثر (affectif) فيقول: « ان ضروب النشاط العاطفي تقرب كثيراً من ضروب النشاط الجسدي وهي تؤلف المزاج .

ويتغيّر المزاج بين فردٍ وفرد ومن نسل الى نسل، فهو مزج من خصائص او طبائع عقلية ، وجسمية ، وتركيبيَّة وهو الانسان كله . وهو الذي يهب كلّاً منا ضآلته او اعتدالهُ او وثاقته .» ثم ينتقد المؤلف مجاوزة الحد في النشاط العاطفي والمدنية التي جعلت همها في ان تنشىء رجالا هم اشبه ما يكون بالحيوان في تهذيبهم ونوع معيشتهم ، وغذآئهم ، والخروج بهم عن الحد المألوف في تنمية خوالجهم العاطفية .

اما النشاط الادبي فهو القدرة في الانسان على وضع نهج لحياته يسير بموجبه، وعلى اختيار الجيد بين افعاله، والتحرر من الاثرة (Egoïsme) وشرّهِ، هو الذي يكوّن فيه عاطفة الشعور بالالزام والواجب . ولا يرى الا في نفر من الهيئة الاجتماعية . ولا شك في وجوده ، فلو لم يوجد لَما شرب سقراط كأسَ السمّ . ونحن نراه اليوم بين بعض القوم، وفي بعض البلاد . ولقد نراه بالغاً حيناً مداه . وُجد في كل العصور ، وابدى جليل شأنه على مدى تاريخ الانسانية . وهو يتأتى من العقل والحس الفني والديني معاً ، فيجعلنا نميز الخير من الشر ونؤثر الخير . ولا جرم ان العقل والارادة عند الرجل العالي التمدن لهما وظيفة واحدة بعينها . وينساق الكاتب الى البحث في النشاط الادبي، بحثاً علمياً محضاً نعدّي عنه لنرى ان تحديد الخير والشر مرتكز على العقل وخبرة الانسانية في مدى آلاف من السنين . فالخير مرادف للعدل ، والمحبة ، والجمال . والشر ، للاثرة واللؤم والقبح . وقواعد الاداب والسلوك النظرية في المجتمع الحديث مرتكزة على قواعد الادب المسيحي (La Morale Chrétienne)

وهيهات من يخضع لها ويأخذ بها . فلقد اطرح الرجل العصري كل نظام يحدّ شهواته . ولا قيمة لآداب علم الحيـاة ، وعلم الصناعة اذ هما يجهلان ضروب النشاط النفسيّ الجوهرية .

« اذن كل فرد من المجتمع الانساني مضطر الى اتخاذ نظام داخلي في حياته اذا شآء ان يصون التوازن العقلي حتى الجسدي فيه . والدولة تستطيع ان ترغم على حفظ وقيام الشريعة لا ان تلزم بشرائع الادب ، فكل فرد يجب ان يفهم ضرورة عمل الخير ومجانبة الشر وان يخضع لهذه الضرورة بقوة ارادته . ان الكنيسة الكاثوليكية على سعة معرفتها للنفس الانسانية قد رفعت النشاط الادبي الى منزلة تفوق كثيراً منزلة النشاط العقلي . وهؤلاء الالى ترفع ذكرهم ، وتكرمهم اجلّ اكرام ، ليسوا هم قادة الشعوب ، ولا جماهير العلماء والفلاسفة ، بل هم القديسون اولئك الذين مارسوا الفضيلة ببطولة . ويعرف كل من عـانى درس المدنية الجديدة ضرورة الحس الادبي الماسّة . فالعقل والارادة ، والادب هي اقرب تلازماً بعضها من بعض ، بيد ان الحس الادبي اعظم من العقل شأناً . فاذا فقد في امة أخذ بناء تلك الأمة يتزعزع ويتداعى . »

ودرس الحسّ الادبي لا يكون في جوانب المختبرات ولكن بين هيآت البشر على اختلافهم . وما أقل ما نلاحظ في المجتمع الحاضر أفراداً يستمدون قواعد سلوكهم من مثل ادبي أعلى ! وهنا يطرىء الكاتب الجمال الاخلاقي اطراء بالغاً ولكنه عين الصواب فيقول : « ان جمال الفضيلة الادبية رائع حقاً ، اذا آنسه الناظر مرة رسخ في اعماق نفسه

حياته كلها . وأثره فينا اشد من اثر جمال الطبيعة ، وجمال العلم، فهو ينفح صاحبه بقوة غريبة لا نعرف كيف نشرحها ، ويزيد العقل استحصافا ، ويوطد السلام بين الناس ، وهو أسُّ الحضارة الراسخ يعلو فوق العلم والفن .»

ان من الكلام لسحراً ! وانك تشعر ولا جرم ، بسحر هذا الكلام وقوته ، وبلاغته ، فتأخذك هزة به ، وعشق له ، اذ حيثما التفت في نواحي المجتمع وجدت صدقه وحقه . ولطالما كتب الكتّاب عن الاخلاق الصالحة الفاضلة ، وحثوا عليها ، وعرفوا فضلها وعظيم اثرها في الامة . وهل رأيت امة في التاريخ طال بقاؤها ، وقامت على غير عماد الاخلاق ؟ وهؤلاء الرومان تلك الامة الجبارة الفاتحة حين زالت أخلاقها منحطة اصبحت اثراً بعد عين وعبرة في الزمان ؟ فالخلق هو الرجل وهو الامة كذلك . وما اكثر ترداد لفظة الاخلاق على ألسنة شعرائنا المعاصرين والقدماء ! فحكمة القائل : « وانما الامم الاخلاق ما بقيت » اشهر من ان تذكر . فيا ليت الناشئة العزيزة تأخذ بالخلق الجميل المهذب وتجعله في المقام الاول عندها فما اقل الخلق المتين بيننا !!!
وما أصدق قول شاعر الاقطار العربية مطران :

ان الذكاء لفي الجموع تصيبه　　لكن ترى الاخلاق في أفرادِ

وهل ننسى قول الشاعر القديم :

ما اكثر الناس لا بل ما اقلَّهمُ　　والله يعلمُ اني لم اقل فَنَدا
اني لأغمض عيني ثم افتحها　　على كثير ولكن لا ارى احدا !

وكلمة الفيلسوف ديوجين ليس من ينساها او يذي مصباحه على الزمان فهل نجد من لم نجده ديوجين ؟ !

ويترق المؤلف فيما رسمه لنفسه ليدرس آثار العقل في حسّ الجمال بعد ان رأيت درسَه للحسّ الادبي ، وهنا الابداع ، والتصوير ، والجمال ، فترى ذوق الفنان المأخوذ بآيات الفن والجمال أنىَّ بدت ، سوآءٌ أ كانت من صُنع فنان الكون الا كبر ومبدعه أعني به الخالق عزّ وعلا او من صنع ملك الطبيعة الاصغر ، الانسان . ثم ترى انتقاده اللاذع لهذه الحياة التي نحياها ، وقد اصبحت كما تتحقق ذلك كل صباح كحياة الآلات تسير بسرعة البرق والقطار السريع ! فأصبحنا نستجلي الجديد ، ونُغِذُّ في طلبه ، وكلما رأينا واستمتعنا زدنا شوقاً وظمأً الى ألوان الجديد . وانظر فهل تطيق في هذا الزمان رؤية المنظر المتكرر على عينيك ، وسماع المتردد على أذنيك ، ألا تضيق ذرعاً وتتجافى جانباً ؟ وهل تذهب الى دور السينما لترى الفلم الواحد غير مرة ؟ ! ولقد يكون آية في الابداع بالغاً حدّ الكمال في الاخراج . وهل تشهد الرواية الواحدة مراراً ؟ ولقد تبسط عليك دروساً نفسية عالية أنت أحوج ما تكون اليها والى ترداد النظر فيها وسماعها . وعلى ذلك فأنت تجد من نفسك دافعاً الى الجديد ، تريد أبداً الجديد ! ! وهل في الكون جديد لا تحب ان تراه ؟ وتلك شهادة بالغة وبرهان لا يدفع على انَّ النفس الانسانية لا يملأ رغبتها النزّاعة الا ينبوع جديد من جمال الخالق القدير ! والى جانب ذلك تحس بشيء من الالم عظيم ، حاد ، عند المؤلف وفي

كل كلمة من كلماته ، فهو يأسف الاسف كله لبذلِ الروح في سبيل المادة ؛ وكان يجب ان يكون العكس وهو يرى ذلك ضلالاً أي ضلال !

ولا اطيل عليك بل أحب منك ان تنصرف الى تروية ذهنك ونفسك من آيات المؤلف : « ان حس الجمال يملكه كل فرد من البشر سوآء أ كان لا يعرف للحضارة معنىً أم قد بلغ منها شأواً بعيداً . وهذا الحس يبقى حتى بعد ذهاب العقل ، فالبُله والمجانين مثلا قادرون على الابداع في الفن . وصنع الاشكال والاصوات التي تنبه في نفس شاهدها او سامعها شعوراً بالجمال ، حاجة اولية من حاجات الطبيعة . وقد تملّى الانسان منذ فطرته خلائق الكون بسرور من حيوان ، وزهر ، وشجر ، وسماء ، وماء ، وقمم شماء . واستخدم آلاته العهيدة الناقصة قبل فجر الحضارة ليمثّل على الخشب ، والعاج ، والحجر صور الخلائق الناطقة . ونحن لا نزال نراه اليوم ، إذا لم تعطل حسَّ الجمال عنده ، نشأتُهُ ونوعُ حياته أو المصانعُ والمعامل ، ينصرف بكل نفسه الى كماليات هي من حق فن الجمال يستمدها من الهامه الخاص به . وفي فرنسا اليوم رجال حرَفٍ طهاة او بناة ومن شاكلهم يضربون من الفن بسهمٍ رابح .

واذا كنا نرى الآن هذا الحس الفنّي قوة كامنة لا تبرز الى حيِّز العمل فلأن الحضارة الصناعية قد اكتنفتنا بمشاهد رائعة في سماجتها وشناعة مرآتها وتفاهتها ، وتحولت معها حياتنا الى حياة آليّة ! فأصبحنا

آلات ! (Nous avons été transformés en machines) لحياة العمال متماثلة ابداً في عملها المتكرر الدائم ، ولا نصيب فيها لكدّ العقل والتفكير فهم يماثلون ذلك الجواد المشدود الى الناعورة يدور ابداً على نفسه ! ولعمري ان الحياة الصناعية تعوق قوى الوجدان القادرة على ادخال السرور على نفس الانسان في كل يوم ... وتضحية الروح في سبيل المادة في هذا العصر ، ضلالٌ اي ضلالٍ ! وتفاهة المدنية الحاضرة وسوء بلائها ناجمان ، أكثر ما هما ناجمان ، عن ازالة اشكال ما يبعث اللذة الفنيّة في حياتنا اليومية .

اما العمل الفني فهو يبدو في انشاء آيات الفن واجتلائها ، وهو اسمى ما يكون في الترفع عن الغايات . ولقد يخيل الينا ان الوجدان يكاد يتخلّى عن ذاته في اللذة الفنية ليذوب مستغرقاً في كائن آخر . فان الجمال ينبوع لذة لا ينضب عند من يهتدي اليه ، يجده المرء كيفما ادار نظره ، فهو بين يدي صانع الصيني ، وناشر الخشب ، وناسج الديباج ، وناحت الحجر ، والجرّاح مصلح الجسم البشري ؛ وهو كذلك بين يدي الطبيب ، والمصور ، والموسيقار ، والشاعر ، وهو متجلٍ في ارقام غاليليه ، وخيالات دانتي ، واختبارات باستور ، وفي مطلع الشمس وتلألئها على صفحات اليم ، وفي عواصف الشتاء على رؤوس القمم ، وهو اروع وابدع في عالم النجوم اللانهائي ، وعالم الذرات ، وفي انسجام واحكام الدماغ الانساني ، وفي نفس ذلك الشجاع الباسل الباذل نفسه خفاء في سبيل خلاص الآخرين . وهو في كل صورة من هذه الصور

الكثيرة يظل نزيل جوهر الدماغ المجهول المبدع وجه الكون .

ان حسّ الفن او الجمال لا يبلغ كماله دفعة واحدة ولكن بالتدرج ، وقد يفقد تماماً عند شعب كان يتجلى فيه قديماً بأسنى مجاليه . وهو كالحس الادبي ينشأ في حضارة من الحضارات ويبلغ شأوه في الكمال ثم يزول .

ويدهشك هذا العالم العلّامة بسعة علمه وشموله ، وفي جوانب تحسبها وقفاً على طائفة خاصة من الناس لا تتعداها وجدت في كل العصور ولم يأبه لها الكثيرون واحسبك تدرك ذلك جلياً اذا قرأت كلمة المؤلف عن الروحانية المسيحية (La Mystique Chrétienne) ومحاولة فهمها . ومظاهرها بيّنة لكل عين ناظرة فكيف يكتنهها العلم وكيف يعللها ؟ والطريقة الروحانية معروفة في الدين المسيحي ، ولها قواعدها ومعلموها الاماثل من كبار القديسين في الكنيسة الكاثوليكية . ويكفيك ان تذكر القديسة تريزيا الكبيرة ، والقديس يوحنا الصليبي ، والقديس يوحنا السلمي ، وهذه المؤلفات النفيسة الباقية على وجه الدهر لتدرك وجودها ، وتفهم أنها حقيقة راهنة لا يستطيع العلم ان يشك فيها وان عجز عن اكتناهها . ولقد بدأ المؤلف يدرسها ويحتفل بها بعد اذ رأى من مجاليها ما لفت نظره الى هذه الناحية الجديدة ، وبعد اذ أسعده الحظ فعرف رجالاً قديسين ، وعرف روحانيين ، وسبر أحوالهم ؛ فهو لا يتردد ابداً في الجهر بوجود الروحانية ، والاعتراف بها ، ودرسها ، لانها ضرب من ضروب النشاط الانساني العظيمة

الشأن . فلا عجب بعد هذا اذا رأيت البحاثة يتكلم عنها ويوفيها حق وصفها فيقول : « لا نلاحظ عند رجال هذا العصر مظاهر النشاط الروحاني والحس الديني حتى في شكله الاولي البسيط ، فالحس الروحاني نادر وهو اندر من الحس الادبي . وقد تلقت الانسانية من الوحي الديني اثراً اعمق من اثر الفكر الفلسفي . وقديماً كان الدين ركن حياة الاسرة ، وحياة المجتمع ، ينبئك عن ذلك ما بين ايدينا من آثار الكنائس الكبرى (الكاتدرائيات) الكثيرة ، وأنقاض المعابد الجمة التي شيّدها أجدادنا ، ولا نكاد نفهم لها معنىً . بيد أن هذا النشاط الروحاني قد فتر واصبحت الكنائس في نظر كثير من الناس متاحف تستريح في جوانبها الاديان المائتة . ووقفات الجوّابين (Touristes) في جنباتها ، وتحت حناياها ، تلك الوقفات التي ليست من الدين على شيء ، تريك الى اي حد قد بلغ فساد الحس الديني ، في هذا العصر . غير انه قد ظل في وجدان بعض المعاصرين حياً لم يمسّه فساد ، ثم أخذ ينبعث بين الطبقات العليا الراقية . ومن الغريب حقاً ان تضيق اليوم اديار الرهبانيات الكبيرة بطلّاب الحياة الرهبانية من الشبان الذين يودون ان يلجوا أبواب العالم الروحي عن طريق النسك والروحانية .

« ان النشاط الديني كالنشاط الادبي تتعدد مظاهره فهو في حالته الاولية رغبة غامضة في السمو الى قوة أعلى من أشكال عالمنا المادية والعقلية ، وهو نمط من الصلاة لا لفظ لها ، والبحث عن جمال مطلق يسمو جمال الفن والعلم . وهو قريب من النشاط الفني لحس الجمال

يسوق الى النشاط الروحاني . وطقوس الدين تشترك في مجالي الفن المختلفة فهكذا مثلاً سرعان ما يتحول النشيد صلاة . اما الجمال الذي ينشده الروحاني فهو اغنى وادق وصفاً وتعبيراً من الجمال الذي يسعى اليه الفنان ، فهو لا يتلبس بشكل ، ولا تستطيع لغة من اللغات ان تجليه بأوضاعها . وهو مستتر بين أطواء اشياء العالم الماثل . يتراءى للعدد الاقل . ويقتضي ارتفاع العقل الى كائن هو نِصاب كل شيء ، والى قدرة ، ومركز قوة يدعوه الروحانيون : الله . ولقد وجد في العصور كلها ، وبين أجناس البشر على اختلافهم من تم له امتلاك الحس الروحاني بأعلى درجاته . إنّ الروحانية المسيحية هي حقاً اسمى وجه للنشاط الديني . . .

« فهي في حالتها العليا تقتضي علماً خاصاً دقيقاً ونظاماً قاسياً . فتتطلب ممارسة النسك ولا بد من استعداد لها سابق . والتدريب عليها صعب شاق ولذلك فعدد منتحليها نزر يسير لان من يريد ان يعاني طريقها منقطعاً لها لا بد له من ان يكفر بنفسه ويترك العالم . ثم يمضي فيكتنفه الظلام من كل جانب ، ويقاسي آلام حياة الطهر على حين يبكي وهنه وعدم كفايته ملتمساً نعمته تعالى . ثم يأخذ بعد ذلك رويداً رويداً في التخلي عن ذاته فتنقلب صلاته اجتلاءً (Contemplation) ويدخل في الحياة المستنيرة (La vie illuminative) فلا يقدر حينئذٍ على وصف ما يرى . واذا اراد ان يصف ما يرى ، فيستعير له كالقديس يوحنا الصليبي لغة الحب الجسدي (Le langage de l'amour charnel) وبعدئذٍ يتخلص

عقله مرتفعاً فوق المكان والزمان فيألف ما لا يحده وصف ، ويدرك حياة الاتحاد فيشاهد الله ويعمل معه .

« وهذه المراحل يتبع بعضها بعضاً في حياة كبار الروحانيين جميعاً . ونحن مسوقون سوقاً الى التسليم بخبرتهم كما نأخذها عنهم . فهم وحدهم ، وقد مارسوا حياة الصلاة ، القادرون على الحكم عليها . فالبحث عن الله امر فردي يعني الفرد وحده . والمرء نزاع ابداً الى حقيقة غير منظورة هي في العالم المادي ، وتمتد الى ما وراءه ، فهو يطوح بنفسه في مغامرة أشد ما تكون خطراً ومراساً . وفي الحق ينظر اليه الناس نظرتهم الى بطل او الى من به جنّة! وليس علينا أن نسأل عن صحة خبرة الروحانية او هل كانت وهماً أم هوساً ، او عمّا اذا كانت سفراً للنفس في خارج حدود عالمنا ، او اتصالاً بحقيقة سامية ، بل يجب ان نجتزىء بهذه الخبرة القائمة التي تدل على وجودها وفعلها . فهي تمنح من يمارسها ما يشاء ، وتحمل اليه الكفران بالنفس ، والسلام ، والغنى الداخلي ، والقوة ، والحب ، والله نفسه . وهي في حقيقتها كالالهام الفني ، فالجمال الذي يجتليه الروحاني او الفنان هو الحقيقة الوحيدة عنده . »

هذه أبحاث المؤلف تدور كلها حول قطب واحد ، وان اختلفت الدورة ، الا وهو جهل الانسان لعالمهِ الروحي والجسدي ومظاهرهما الكثيرة البالغة التي حاول العالم ان يريك بعضها وما أصدق كلمة العبقري باسكال : « لا نعرف الكل من شيء ! »

تحدث اليك العلامة كاريل عن آثار العقل المختلفة : العقليّة ،

والادبيَّة ، والفنيَّة ، والدينية او الاجتماعية ، وعن الحواس التي تمثّلها وتقوم بها . وانت تعرف ولا جرم ، ان تلك الآثار جميعها هي ضروب للنشاط العقلي او قل من انشآء العقل فوجب ان تكون بينها صلات ، متينة ، محكمة ، وانسجام ووحدة ، كما نرى بين اعضآء الجسم المتآلفة المتعارفة العاملة ابداً على ادراك غاية بعينها واحدة والا ذوى الجسم واصيب بالشلل في نظامه ، ومني بالموت العاجل . ومثل لافونتين الشهير عن المعدة والاعضآء لا يجهله متأدب . و كذلك قل عن كل علم فانه مهما سما وشمل لا يكفي وحده . ولهذا كانت الصلات وثيقة بين العلوم متماسكة الحلقات ، موحدة الغايات ، وما اجمل كلمة الاب العلّامة سرتّلانج الفرنسي : « لا علم يكفي نفسه بنفسه ، ولا نظام اذا انطوى على نفسه يكون نوراً وهاجاً ، فالاختصاص اذا انفرد بنفسه يضيق ويضؤل ويتحجر ولا يلبث ان يضل عند اول فرصة سانحة : فالرياضيات اذا انفردت مستقلة ازاغت الحكم ، اذ تعوده شدةً لا يطيقها علم آخر وبالاحرى الحياة الحقيقية . والطبيعيات والكيميآء تستغرق العقل بشعابها الواسعة الكثيرة ولا تتيح له التبسط والسعة ، وعلم الفسيولوجيا ينتهي الى مذهب المادة ، وعلم الهيئة يقود الى الذهول وعلم طبقات الارض يجعل المرء ككلب الصيد قوي حاسة الشم ، وعلم الادب يترك في النفس فراغاً ، والفلسفة تنفخ ، واللاهوت يسلم الى السامي الوهمي والى الخيلآء بالملفنة . فوجب ان تتآلف هذه العلوم كلها وتتساند معاً فيصطلح بعضها ببعض ويزول خطرها ، ويتم جليل نفعها . »

فلا بد اذن من هذه الصلات بين ضروب النشاط العقلي ، ولا بد من الانسجام بينها ليجلّ نفعها، ويدوم اثرها في المجتمع. وسيحدثك المؤلف عن هذه الصلات بعضها ببعض وعن العقل والجسد او قل عن القوى الروحية والجسدية وتأثيرها المتبادل ، وعن تأثير البيئة في العقل وسائر الحواس الاخرى . ثم يختم بحثه الممتع بكلمة عن الامراض العقلية والمصابين بها في هذا العصر الحاضر فلنجر مع المؤلف لنستجلي معه جوانب عالمنا الداخلي الداجي : « ان انواع النشاط العقلي الاساسية لا يتمايز بعضها عن بعض ، وحدودها اصطناعية متواطأ عليها ، وهي تجعل مظاهر الوجدان أجلى واعرف . والنشاط البشري شبيه بالذرّة المائية المسمّاة «Amibe» «أميب» فان أعضاءها الكثيرة المتقلبة هي من جوهر واحد وكذلك النشاط البشريّ فهو وان اختلف مظهراً فقد يأتلف جوهراً وهذا الاختلاف هو الذي جعل العلماء يقسمونه الى نشاط جسدي ، ونشاط عقلي ، ونحن مضطرون الى التقسيم حين نتكلم عن الوجدان كما ترى اعضاء تلك الذرّة مختلفة وهي التي تؤلف جسمها ، وكذلك مظاهر وجداننا هي نحن لا تختلف عنا بل تذوب في وحدتنا .

« وعلى هذا فإن العقل لا يجدي كثيراً من لا يملك سواه ، والرجل الذي ينصرف الى العمل العقلي الخالص (L'intellectuel) ناقص وتاعس اذ هو عاجز عن نيل ما يفهم . وهذه القوة المدركة صلات الامور ، لا تثمر الا اذا عملت مشتركة مع قوى اخرى : كالحس الادبي ، والحس العاطفي ، والارادة ، والحكم ، والخيال ، وبعض القوة الجسدية .

فالعقل من دون الارادة يظل مشتتاً غير منظم وعقيماً . فان تنظم غدا قادراً على البحث عن الحقيقة ، ولا يدركها ادراكاً تاماً الا اذا ساعفه الحس الادبي . وكبار العلماء هم أبداً على جانب عظيم من الاباء والنزاهة في مباحثهم يبحثون عن الحقيقة ويرتادونها حيث بدت لهم ، ولا يحاولون أبداً ان يستبدلوها برغباتهم الخاصة او يستروها اذا اعنتت وآلمت . فمن شاء ان يجتلي الحقيقة وجب عليه ان يقر السلام في داخله ، وان يكون عقله هادئاً اشبه ما يكون بصفحة البحيرة الساكنة . وكذلك انواع النشاط العاطفي فانها ضرورية جداً في تقدم العقل ولكن يجب ان يضمها هوى واحد هو هزة النفس (l'entousiasme) وقد كان باستور يدعو ذلك الهوى : « الاله الباطن » (Le Dieu interieur) حقاً ان الفكر لا يعظم الا عند اولئك القادرين على المحبة والبغضة . ولذلك فهو يتطلب فوق مساعدة نشاط الوجدان على اختلافه مساعدة الجسد . ولا بد له حتى في بلوغه الذروة العليا ، واستنارته ، بالحصافة والخيال المبتكر ، من سلاح ادبي وجسمي . »

ثم يتكلم المؤلف عن انماء قوة دون اخرى ، وعن الاضرار الناشئة عن ذلك ، هكذا مثلاً انماء العاطفة والخروج بها عن حدها المألوف يخرّج رجالا منحطين (Inférieurs) وكذلك انماء القوة الفنية يخرّج رجالا خياليين زائفين . ولا نتبسط كثيراً مع الكاتب بل نقتضب اقتضاباً . فكان اذن من مقتضيات القوى العالية ان يتم بينها التوازن . والرجال الذين يتمتعون بالقسط الاوفر من السعادة ، وهم الاوفر نفعاً للانسانية

جمعاء . هم اولئك الذين تم لهم الانتظام في قواهم العقلية والادبية ، والتوازن هو الذي يجعلهم يفوقون سواهم . فانتظام القوى او تآلفها يجب ان يكون غاية جهودنا ، فعلى أمثال هؤلاء الرجال تقوم الحضارة الاثيلة .

وهناك طائفة وان لم يتم التوازن في قواها ومواهبها هي اشبهُ بالمجرمين والمجانين ، غير انها في شذوذها المبدع اشدُّ ما يكون اليهِ المجتمع حاجة . ونعني بهذه الطائفة جماعة العبقريين « Les génies » وهم : اولئك الذين نمت احدى قواهم نمواً جاوز فيها الحد فأضرت بسائر القوى . فكبار الشعراء ، والعلماء ، والفنانين ، والفلاسفة هم رجال كسائر الناس سوى انهم قد خرجت عن حدها فيهم قوة من قواهم . وهؤلاء الذين لم تنتظم قواهم هم في العادة تاعسون ، ولكنهم رجال عبقرية يتركون بعدهم آثاراً تكون ملك الانسانية كلها . فتشوش النظام عندهم يزيد الحضارة تقدماً وازدهاراً . والانسانية على مدى الدهور لم ترتقِ في معارج العمران بالجماهير بل بجهود افذاذ ، ولوذعيتهم ، وبمثلهم الاعلى في العلم ، والمحبة ، والجمال .

ويتناول الكاتب الصلات العامة بين انواع النشاط العقلي والجسمي فيبيّنُ تأثير الجسم في العقل ، واثر العقل في الجسم ، والمثل المعروف القديم : « العقل السليم في الجسم السليم » مبني على الاختبار الطويل وصادق كل الصدق . فكان من الضرورة الماسّة ان يتعهد الجسم تعهداً كبيراً ذلك : « لان النشاط العقلي – كما يقول المؤلف – متوقف على

نشاط الجسم ونحن نلاحظ ان التغيُّر في وظائف الاعضاء ينجم عن اختلاف في حال ضميرنا والعكس بالعكس فالروح والجسم متمازجان تمازجاً شديداً يجعلها اشبه ما يوصفان بالتمثال وهيئته ، لا نقوى على تبديل تلك الهيئة الا ان نتناول التمثال بالتحطيم . وهكذا فاذا طرأ على احد الاثنين طارىء تأثر الآخر تأثراً بيّناً . وانظر مثلاً آثار الشراب في الدماغ ، فإن الكحول تسري مع الدم الى خلاياه فيكون لها أثرٌ يحس به العقل ويربن على قوى الشارب كلها . وفي الحق ان الجسم جميعه هو أسُّ مظاهر النشاط العقلي والنشاط الروحي . والفكرة هي ابنة الغُدد الداخلية ، ووليدة الدماغ ، فكمال الاعضاء وسلامتها شرط جوهري لمظاهر الوجدان . ولا جرم ان الانسان يفكر ، ويحب ، ويتألم ، ويعجب ويصلّي بدماغه وبأعضاء جسمه معاً .

اما تأثير ضروب النشاط العقلي في الاعضاء فجليٌّ تعبر عنه الاعضاء ذاتها . فان التأثرات يليها تغيُّر في سريان الدم في الجسم . تأمل الفرح كيف يصبغ محيا الانسان بالاحمرار ، وكيف يكسوه الخوف الاصفرار . وتتغير الانفعالات بحسب الافراد والامزجة ، فالهموم المستمرة تضعف الجسم ، وتذهب بالصحة ، ورجال المهام العظيمة اذا لم يعرفوا ان يقيموا حدّاً بينهم وبين شؤونهم تخطّفهم الموت المبكر . وللتأثرات على ذوي الاحساس الحاد فعل عظيم مدهش يصيب انسجتهم وأمزجتهم فيحدث فيها أحداثاً . ومما يُروى عن سيدة بلجيكية حكم عليها الالمان بالاعدام في الحرب الكبرى ان شعر رأسها قد ابيضَّ فجأةً عندما تلقت نبأ إعدامها .

وكذلك فان عدم استقرار الحياة الحاضرة ، والاضطراب المتوالي ، وتهديد الامن في كل ساعة، مما ينشئ حالات في الضمير تحدث اضطراباً في البنية، والمعدة، والامعاء، وتسبب كثيراً غير ذلك. وهذه الامراض لا تعرفها الحياة الهادئة المطمئنة ، وينجو منها أولئك الذين يعرفون كيف يكونون بين مهامهم التي تتقسمهم مطمئنين نفوساً .

واما نشاطنا الجسدي فيجب ان يظل على طبيعته لا نأبه به كثيراً، فاذا ألقينا اليه بالنا إضطرب. وخير للمرء ان ينسى ذاته فيبقى سليم الجسم معافى . وذلك لا يقتضي جهداً يفرّق انتباهنا . فصرف نظر المريض الى نفسه من شأنه ان يزيد في علّته. والوظائف العقلية والجسدية لا يتم كمال انتظامها وانسجامها الا اذا قصدنا بنشاطنا غاية معهودة نبتغي منالها . استجماع الرغائب ، وسلوك العقل مسلكاً لا يحيد عنه يهبان صاحبها شيئاً من السلام الداخلي . ويستجمع المرء قواه بالتأمل كما يستجمعها بالعمل . ولا يكفيه ان يتأمل جمال البحر ، والجبال ، والسحاب، ولا روائع الفنانين والشعراء ، ولا كبار خواطر الفلاسفة ومايشرح نواميس الطبيعة ، بل يجب ان يكون تلك النفس المجاهدة أبداً في سبيل ادراك مثل ادبي أعلى، الرائدة النور بين ديجور الامور، تلك النفس التي اذا جابت طريق الروحانية عرفت كيف تكفر بذاتها لتدرك من هذا العالم جوهره الخفي .

« فتوحيد قوى الوجدان يوجد انسجاماً أتمّ بين وظائف الجسم العصبيّة واجهزته ، وحيث يعظم حظّ الحسّ الادبيّ والعقل في بيئات

المجتمع ، تقلّ كثيراً أوصاب الاعصاب ، وتندر الجرائم ، والجنون ، وتتوفر الراحة . فاذا اشتدت وظائف الدماغ ، وتضاعف عملها ، خُشي ان يطرأ على الصحة ما يحرفها . لكن أولئك الذين يريدون ادراك مثل أعلى ، أدبياً كان او دينياً ، او علمياً لا يفتشون عن راحة الجسم ، او عن طول الحياة ، فلقد وقفوا حياتهم على ادراكه . وجُلّ الروحانيين قد عانوا آلام الجسد والروح قلّما يكون شطراً من حياتهم . وقد يمكن ان يرافق حالة الاجتلاء بوادر عصبية تشبه بوادر الهستيريا والمكاشفة (Clairvoyance) ونحن نعرف كثيراً من اشباه هذه الامور الغريبة في حياة القديسين والروحانيين العظام .

« وضروب النشاط الروحي في إمكانها ان تحدث انقلاباً في بنية الجسم ووظائفه ، وهذه المظاهر تبدو في حالات مختلفة وفي جملتها الصلاة . ولكن ليس هذه الصلاة اللفظية ، بل ذلك الارتفاع الروحاني الذي به يقدم الانسان ذاته الى الخالق ، كما تكون قطعة النَّسيج بين أنامل الرسّام ، وكما يكون الحجر بين يدي المثّال . فهو يسأل نعمته تعالى ويعرض عليه حاجاته وحاجات الآخرين . والصلاة على هذا الشكل تتطلب الكفران بالذات ، وتستغرق قوى النفس كلها وتشغلها جميعها . فلا بدّ إذن ان يكون اثر ذلك شديداً في الجسم ، فاذا كانت الصلاة كذلك اتت بالمعجزة . »

وعلى ذكر المعجزة يأخذ العلّامة في دفع اوهام أولئك الذين لا يقولون بوجودها ، فيعود الى ماضي العصور ، وفي البلاد قاطبةً فيرى ،

كما يقول ، : « أن الايمان بوجود المعجزة ، وبالشفاء العاجل في مزارات خاصة معروفة ، لا ينكره الأمكابر . ولم يزل هذا الاعتقاد بالمعجزة ، الا حين تقدم العلم في القرن التاسع عشر ، فأنكر ليس وجود الاعجوبة او المعجزة بل استحالة وجودها ايضا . وحتى يومنا هذا لا يزال علماء الفسيولوجيا يقولون بعدم وجودها . غير ان اعتقادهم لا يثبت بازاء ما نرى ونعرف في اختباراتنا ومشاهداتنا . ومكتب لورد الطبي يثبت وجودها اثباتاً قاطعاً ببراهين لا تدفع . وماذا يقول اولئك المفكرون حين يرون الشفاء الاتم من داء عضال أعيا الطب والاطباء ، في دقائق معدودة ؟ ان قوى الطبيعة لأعجز ان تأتي بمثل هذه الخوارق !

ان الدين المسيحي الحق كان ولا يزال ، بأيد منه تعالى ، ينبوع العجائب والخوارق ، ولم تقف عجائبه عند عهد الرسل القديسين ، بل رأيناها على مدى الدهور ، وتوالي الاجيال ، باهرة ! وحسبنا في هذا العصر عجائب القديسة تريزيا الطفل يسوع ، معبودة الشعوب على اختلاف اجناسها واديانها ، فهي دليل مقنع ، وبرهان لا يدفع على وجود الآيات ، وثبوت المعجزات .

أما اولئك الرجال الكبار ذوو جسام المهام وعظام الشؤون ، فسرعان ما نراهم او نسمع عنهم كيف يتخلون عن مواصلة الجد ، وممارسة الشؤون ، ويلقون بنفوسهم المجهدة بين يدي الطبيعة بعيداً عن المهام والجلبة يتمتعون بذلك السكون الشامل ، وتلك المناظر الخلابة

منقطمين الى استجام قواهم . وما اكثر ما نراهم في مزارعهم يخلطون نفوسهم بالمزارعين ، ويبارونهم في الجد والكد عاملين بأيديهم . ويهتمون كثيرا بشؤون الغرس ، والحرث ، والزرع ، ويجدون لذة لا تعدلها لذة المراتب والمناصب ، وأبهة المجد والعظمة ! وهل تعجب من ان لويدجورج السياسي الشهير هو شهير كذلك بزرع البطاطا والاعتناء بها ، وهو معروف بميله هذا عند الانجليز ؟ ! وما أصدق كلمة العبقري باسكال في امثال هؤلاء الرجال اذ يقول عنهم في خواطره : « ان اهم ما يُسند ارباب المناصب العليا المجهدة في مناصبهم ، هو انهم منصرفون ابداً عن التفكير في نفوسهم ! »

وكان من البديهي ان يتحدث مؤلف الكتاب عن تأثير البيئة الاجتماعية في العقل ، والحس الفني ، والادبي والديني بعد اذ شمل بحثه انواع النشاط العقلي والمؤثرات فيها ، فيعطيك صورة لماحة عن اثر بيئة العصر الحاضر في العقل . وليس كالدكتور كاريل مصور بارع وهو يتقلب في اعظم البيئات حضارة ، واعلاها مناراً ، يطالع مناظرها ، ويتغلغل في جوانبها ، فلا يدع خفياً الا حاول ان يستجليه ، ولا مبهماً الا جهد جهده في حل طلاسمه ، فأنت تراه يبدع في تصويره لمجتمعنا الحديث ، وهيئاته الكثيرة المتباينة ، ويستقصي ابداً الحقيقة ، ينشدها حيث كانت ولا يحفل بسواها ، ثم يؤديها جهراً بالرأي ولا يبالي بشيء بعدها . وحسبه فخراً وعزاء انه ينشد الحقيقة ، ويجهر بها ، ويحب ان يراها سيدة عزيزة . وستراه يعرض عليك صورة حضارتنا القائمة ،

فيروعك حقاً اذ تأخذ الصورة بين يديك متوسماً ثم تجمع بينها وبين اصلها فترى انها لا تعوزها غير مسة من بنان الخالق حتى تنطق ، وتتحرك وتحيا ! فهلم نستجلي في مرسم المؤلف ملامحها : « ان للبيئة اثراً بيناً في نشاط الوجدان ، فأثر البيئة الاجتماعية كأثر البيئة الداخلية عميق فيه . وانواع نشاط الوجدان تقوى بالتمرين ولكنها ليست كالنشاط البدني تكتمل وتنمو و لا غير منقطعة . فابن العالم لا يرث مثلا معارف أبيه ، بل يولد كسائر الناس في جهلهم ، والوظائف العقلية تظل في حالة الامكان اذا لم يتولها التهذيب ، أو غاب عنها العقل والحس الادبي ، والفني ، والديني ، فلا تبرز الى حيز الوجود . وعلى حالة البيئة النفسية تتوقف مظاهر الوجدان ، في كل فرد في عددها وصفاتها واشتدادها فان كانت البيئة النفسية فقيرة معدمة فلا تعين العقل والحس الادبي على كمالهما . ونحن في بيئتنا اشبه ما نكون بالخلايا في بيئتها الداخلية فهي غارقة فيما يكتنفها . فلا نستطيع نظيرها ان ننجو من تأثير ما يحف بنا . والجسم اقوى على نضال العالم الخارجي ودفعه ، من الوجدان على نضال العالم النفسي .

« ان عقل كل فرد يتوقف كثيراً في كماله على التهذيب الذي يتلقاه ، والبيئة التي يعيش فيها ، وعلى نظامه الداخلي ، والافكار الشائعة في عصره ، وعلى الطبقة التي يمتزج بها . وهو يتهذب بدرس الادب على اسلوب منظم ، وبدرس العلوم واحكام المنطق في التفكير ، واستعمال لغة في دقة الارقام الحسابية

« واسباب تهذيب العقل موفورة في معلمي المدارس ، واساتذة الجامعات ، ودور الكتب ، وفي المختبرات ، والكتب ، والمجلات . وفي الحق ، ان الكتب وحدها هي في غاية الضرورة واحوج ما يكون اليها المرء في حياته ، فلقد يعيش في بيئة غير راقية ويكون على ذلك ذا ثقافةٍ عقلية عالية . وقصارى القول ان تهذيب العقل سهل . اما تهذيب القوى الادبية ، والفنية ، والدينية ، فليس كذلك اذ ان تأثير البيئة في مظاهر الوجدان هذه ادق كثيراً . وليس في مستطاع المرء ان يميز الخير من الشر ، والجمال من القبح لمجرد سماعه دروسها . والادب والفن ، والدين لا يتلقاها الانسان كما يتلقى الرياضيات ، وقواعد اللغة والتاريخ . فالفهم والشعور هما شيئان مختلفان جد الاختلاف . وما في مقدور المرء ان يدرك معنى الادب ، والفن ، والروحانية الا اذا نشأ في بيئة يرى فيها ذلك ماثلا امامه يتملاه نظراً ، تكون هذه كلها جزءاً من حياة كل فرد من افراد تلك البيئة . فلأجل ان يبلغ العقل كمالَهُ يجب ان يتمرن فقط ، اما ضروب نشاط الوجدان ، فتتطلّب البيئة الصّالحة والفئة التي يتم الاكتساب بمخالطتها .

« والى الآن لم يُتِح لمدنيَّتنا الحاضرة ان توجد البيئة الصالحة لمجالي نشاطنا العقلي . وضآلة القيمة العقلية ، والادبية في غالب هذا الزمان يجب ان يُنسَب جلها الى عدم كفاية جوهما النفسي ورداءة نظامها . إنّ وضع المادّة والنفع الموضع الاول ، وهما اساس مذاهب الصناعة ، هو الذي ساق الى الغاء ضروب التهذيب العقلي ، والفني ، والادبي

كما كانت تفهمه الشعوب المسيحية أمُّ العلم الحديث . وكذلك انقلابات نوع الحياة هي التي احدثت تفكك حلقات الاسرة والمجتمع وقد كانا يملكان حريتهما الشخصية وتقاليدهما الخاصة . ولم يدم التهذيب على مستواه العقلي في مكان . فانتشار الصحافة المعظم ، والمذياع (الراديو) والسينما . قد هبطت بالطبقات المهذبة الى الدرك الاقصى . ولا سيما المذياع فقد غدا ينقل الى كل دار من التوافه ما يعجب الجمهور ويرضيه . فعمت المعرفة اكثر فأكثر ولم تقف عند دروس المعاهد والجامعات ، واشتملت على معارف ومشاركات في العلوم لا بأس بها . واصبح الطلاب يفرغون عقولهم في قالب واحد هو قالب مناهج (بروغرام) دور الاذاعة والسينما . التي ألفوها . فأمست البيئة ليس عاجزة عن تهذيب العقل وإبلاغه كماله المنشود فحسب ، بل حاجزاً حصيناً في وجه تهذيبه . وصارت على الحقيقة انسب لتهذيب حس الجمال . فأعظم رجال الموسيقى في الغرب هم اليوم نزلاء اميركا . ثم اخذت المتاحف الاثرية حظها الاسنى من الاتقان والكمال لتبسط للملإ نفائسها وكنوزها . وسارت الصناعة شوطاً بعيداً . ودخل فنُّ البناء في طورٍ جديد ، فحوّلت المباني الجديدة البالغة أوج كمالها مناظر المدن تحويلاً عظيماً . فأصبح في مقدور كل فرد اذا شاء ان يهذب قواه الفنيّة .

اما فيما يخص الحس الادبي ، فليس الامر كذلك . فهذه البيئة تجهله جهلاً مطبقاً ، والواقع انها قد ابطلته . وعلّمت كل فرد ان لا يبالي بالتبعات . واولئك الذين يميزون الخير من الشر ، ويعملون بجد ،

ويحسبون للايام حسابها ، يظلون فقراء معدمين و كثيراً ما ينظر الناس اليهم كمن لا شأن لهم من اهل الضعة ، و كثيراً ما تنزل بهم العقوبة . فالمرأة الولود الحانية على ابنائها ، الساهرة على تهذيبهم هي في نظر الكثيرين بلهاء . والرجل المشمّر مالهُ لزوجه واولاده يستلب منه ماله اما الصيارفة الدهاة ، واما الحكومة لتنفقه على اولئك الذين رزأهم الدهر ، فصاروا الى الشقاء بما جنت ايديهم ، وبما جناه عليهم ارباب الاقتصاد والمصارف . و كبار رجال العلم والفن الذين ينفحون سواهم بالرخاء والصحة والجمال ، يعيشون ويموتون فقراء ، على حين ان السَّلابين يتمتعون آمنين بأموال الآخرين . وهؤلاء الأسباد (الدهاة في اللصوصية) يعيشون مطمئنين في اكناف رجال السياسة ، وتخشاهم الشِحنة والقضاة ، وهم الابطال الذين يتمثَّل بهم الصغار في لعبهم ويعجبون بهم في دور السينما .

ان حشد المال اليوم هو كل شيء ، ويبرر كل شيء . و كيف كان الغني سوآء أهجر امرأته المسنَّة مُطَّرحاً ، او ترك والدته وشأنها ، او نهب الاموال التي استُودِعها ، فهو كبير القدر عند اصدقائه ... ولا وجود للخير والشر ، والعدل والظلم . والسجون قد ضمَّت بين جدرانها أقدام المجرمين ، واشدَّهم اختلالاً ، اما سائرهم ، وهم العدد الاوفر ، فيذهبون في الارض مَرَحاً ؟ ... فبيئة مثل هذه محالٌ ان يبلغ الحسّ الادبي كماله المقسوم فيها .

« وليس في مستطاع رجل العصر ان يدفع عنه اثر هذا الجو

النفسي الذي يعيش فيه . فكل يتأثر لا محالة بأولئك الذين يخالطهم . فاذا وُجد المرء منذ نشأته بين المجرمين والجهلاء صار بحكم الطبيعة مجرماً وجاهلاً . ولا ينجي الا العزلة او الفرار من البيئة . ومن الناس من يخلون بنفوسهم فيجدون الخلوة في وسط الجماهير . وقديماً قال مرقس أوراليوس : « في استطاعتك ان تخلو بنفسك متى شئت . ولا عزلة اسلم للمرء وآمن من هذه العزلة التي يجدها في نفسه . » اما اليوم فليس في مقدور احد ان تكون له هذه الجرأة الادبية ، فقد سُقِط في ايدينا واصبحنا اعجز ما نكون في مقاومة بيئتنا والتغلب عليها . »

فأما والحالة على ما وصف المؤلف، فليس بدع ان تنتشر فيها ضروب الامراض العقلية الفتاكة ، وتستشري استشراء مروعاً يهدد الانسانية بأعظم الويلات ، ويحير الطب والاطباء . فالعقل كما يقول المؤلف ليس له قوة الجسم ومناعته ، ومن الثابت المقرر ان الامراض العقلية وحدها تربي اليوم على سائر ضروب الامراض كلها ، يدلك على ذلك ما نشاهد من هذه المآوي الكثيرة الغاصة بمرضى العقل ، وهذا العدد العظيم من المعتوهين الذي يزيد سنة بعد سنة ، في الولايات المتحدة وحدها ما ينيف على اربع مئة الف من المصابين بعقولهم ! ويكفيك هذا العدد الضخم ليريك ان مدنيّتنا واهية ، وان رجال مدنيّة اليوم واهون كذلك وعطبهم سريع .

«ولقد غدت الامراض العقلية تهدد المجتمع، وهي حقاً اشد خطراً وهولاً من السرطان ، والهواء الاصفر ، وسائر ضروب العاهات

الفتاكة . وانتشار هذه العاهات العقلية يدل جلياً على عيب حضارتنا الجسيم . ومما لا مراء فيه ان نوع حياتنا هو الذي يسبب امثال هذه العاهات الخامرة . ولا يزال الطب الحديث عاجزاً عن حماية العقل ووقايته من اعدائه المجهولين . فهو يعرف دلائل الامراض العقلية ، وأشكال الضعف الدماغي ، ولكنه يجهل الجهل كله طبيعة هذه الادواء المتتابعة . ولم يهتدِ حتى الساعة الى اكتشاف أسبابها ليتّقيها . اما ضعف العقل والجنون فالذي يبدو انهما دَين يتحتّم علينا اداؤه الى هذه المدنية الصناعية الحاضرة .

ويختم الكاتب بهذه العبرة البالغة : « ان لحياتنا الحديثة آفةً لا تزال مجهولة . وقوى نشاطنا في احوالها الحاضرة ، وشروطها ، لا تتوفر فيها الوسائل الصالحة لكمالها . ولقد يخيل الينا أنَّ الشخصية الانسانية وهي بين عجائب هذا الزمان ، مآئلة الى الانحلال ! »

وما أصدق قول شاعرنا ابي الطيب :

يَهونُ علينا أن تُصابَ جسومُنا   وتَسلمَ أعراضٌ لنا وعقولُ !

٥

الوقت الداخلي

وتأذن لي ان اتحدث اليك ، بعد اذ أنهينا معاً درس الانسان في جسمه وعقله ، حديثاً لا يخرج عن هذه الدائرة التي رسمناها لنفوسنا ، والحديث ذو شجون ، ولكننا لن نسلك طرائقه الكثيرة المتشعبة ،

بل نقصره على هذا التبدل الذي نال رجل العصر في شؤون حياته ومرافقها باجمعها فتبدّل تبدُّلاً تاماً في عهدنا الحاضر . ولا اقول ان هذا التبدل كان دائماً في سبيل الكمال الذي ينشده كل انسان على وجه الارض وهو مثله الاعلى ، وانما هذا التغير قد كان على كل حال . والفضل في ذلك للعلم فلقد عم وشاع في طبقات المجتمع على السوآء. فاقبل الناس على تحصيله واقتباسه فزالت به المراتب والحواجز في عالم اليوم ، وكان هذا الخلاط الذي نراه بين الطبقات جميعها ، وهذه الآرآء المتبادلة والتمازج في الحياة.وبدا «ذيموس» اي الشعب رافعاً رأسه صاعداً ابداً ، منبعثاً بعد هجعته القرون المتمادية فنال ما نال واستوى في مكانه الارفع ، وتنزّل الارباب عن عروشهم : فلا اخطار ولا القاب ، ولا حقوق وراثية تمنح السيادة والسلطان ، فأنت ترى ابن الخباز ، والنجار والحوذي، والحداد، قائداً، او وزيراً، او سفيراً او رئيس جمهورية، ومكانه في ارفع الذرى ، وبين يديه حياة امة كبيرة بأسرها . وألق نظرة ملمة الى رجال العصر ، وقادة الامم والفكر والشؤون ، تجد صدق ذلك وحقه . فالعقل والمزايا ، واللوذعية ، والعبقرية هي التي غدت تنيل الانسان اسمى ما يتمنى ، وتتيح له تسنُّم الذروة العليا في المعالي وليس الحسب والنسب ومفاخر الآباء والاجداد !

وعد ادراجـك الى عهدين في التهذيب في المدنية هما ادنى ما يكونان دانيين منا فترى انهما ، مع ما بينهما من وشائج الصلات ، مختلفان جداً . وخذ لك مثلاً كيف كان السالفون في الامس الى فجر

القرن العشرين يقسمون الانسان في عمره الى ادوار اربعة هي الطفولة، والشباب والكهولة، والهرم. تفصل بين كل دور ودور هوة سحيقة، وكيف كان المثل المعروف في الشرق : « كل جيل يلعب مع جيله» صادقاً بل سُنَّةً اجتماعيةً يسير بموجبها الكبير والصغير ، فلا يشذُّ عنها احد ايًا كان. فكان الفتى الصغير يمرُّ بحلقات الشبان مرًا لا يجرؤ أن ينتظم فيها ويتعرف الى لهوها ومرحها، وكان الشاب يمر بمجالس الشيوخ ولا يجسر على النظر الى بياضهم المجلل كأنما هو يمر بالاولمب !

ثم يطلع فجر العلم في القرن الحاضر فينتقل العالم معه الى عالم جديد وينطوي عالم القرن التاسع عشر وتجيء الحرب الكبرى فتخرج الشعوب وطبقاتها كلها وتصهرها بنارها هذا في الغرب، اما الشرق فبقي على حاله ، وسبحان من لا يدوم سواه على حال ، حتى وضعت الحرب اوزارها وكانت هذه الصلات بين الشرق والغرب، فاخذت تتدفق تلك الباهرات مع امواج المتوسط الابيض من اوروبة ، كما مر بك وشرع الشرق يودع حياته القديمة ، ويقطع صلاته بها ويتبدل حالاً جديدةً ، لبس لبوسها : فكان ان تطوَّرت الاخلاق والافكار ، وتغيَّرت العادات والمواضعات الاجتماعية ، وجدَّت مآسٍ لم تبد من قبل على ممثَّل العالم القديم !

وابدع ما يَمثل هذا الانتقال من حال الى حال في كتَّاب القرنين الماضي والحاضر ، والكاتب لسان عصره ، فأين مثلا عند الفرنسيين بلزاك من موردياك؟ واين عندنا مثلا بطرس كرامة في شعره من مطران؟

بل ابن مطران القرن التاسع عشر من مطران القرن العشرين ؟ لقد نحت الانسانية نحواً جديداً وتطلعت الى آفاق ما آنستها الاجيال الغابرة ، وما اصدق النقاد الفرنسي ادمون جالو (E. Jaloux) حيث يقول : « من اهم تبدلات المجتمع الحاضر ليس التلفون ولا السيارة ، ولا اللاسلكي ولا الطيارة ، بل تجديد شباب من بلغوا من الكبر عتياً ! » وهذا الذي اريد ان ابلغ بك اليه ، والذي يتمناه الناس اجمع لو يتحقق ! هو هذا التجديد وهو الذي تمناه بلزاك حين قال : « هناك اختبار طالما فكرت فيه منذ عشرين سنة ألا وهو انشاء دماغ الابله انشاء جديداً ! »

وسيحدثك المؤلف العلامة في هذا الشأن حديثاً ممتعاً ويتبسط في ابداء آراء جديدة لم تخطر على قلوب اهل الاجيال الغابرة ، فيما انت منتظر ، « ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ! » وذلك كان لعمري موضع رغائب الانسانية ، ومطمح آمالها . وهل الذ عند المرء من تجديد في حياته لا يحس معه بوهن الشيخوخة ، ووقرها الثقيل ، وعاهاتها الكثيرة ؟ وهل اجلُّ عنده خطراً من ان يملك نشاطه وحواسه موفورة ردحاً اطول ، فيتضاعف نشاطه ، وانتاجهُ ويكثر خيره لامته وربما للانسانية بأسرها ؟ ولعمري ، إنَّ هذه جميعها الا امانيُّ عذابٌ يريد العلم تحقيقها ، وهو يسعى اليها دائبا جاهداً فهل تراه قادراً ؟ ؟ ذلك ما لا يعلمه الا الله ! ولا ازيدك معرفة بمبدإ كاريل الذي يقول ويعمل به : وهو الجهد المتواصل ، فلا ارتقاء ولا تقدم ولا كمال الا بالجهد ، والانسانية لم تبلغ الى ما بلغت اليه الا بالجهد المستمر على مدى

الازمان . والكلمة الفرنسية المأثورة لا يجهلها جاهل : « من لا يتقدم تأخر ! » (Qui n'avance pas recule)

اذن بعد ان درس المؤلف جسم الانسان وقواه العقلية في مظاهرها الكثيرة المتباينة كما عرفت ، يأخذ الان في درس بقاء الجسم والعقل، او في درس هذه المدة التي يظهران فيها على الارض فيتكونان، وينموان في تطور متوالٍ حتى يدركا نهايتهما، ثم يزولان في انحلال ويكون التلاشي فيقول: « ان مدة بقاء كل انسان تختلف اختلاف قامته بحسب الوحدة التي تستخدم في قياسها فاذا قسناها الى حياة الجرذان والفراش بدت لنا جدّ طويلة ، واذا قسناها الى حياة السنديانة الجبارة ، بدت قصيرة جداً . وهي كلا شيء اذا قارناها بتاريخ الارض. فنحن نجري في قياسها على حركة عقربي الساعة الكبيرة ، فهما يدوران على صفحتها فيدلان ، في نسب محدودة ، على الثواني ، والدقائق ، والساعات . وهذا الزمان الذي تدل عليه الساعة مترتب على دورة الارض حول محورها ، وحول الشمس . فحياتنا اذن تقاس بحركة الشمس ووحدات زمانها .. ثم يقول : « ونحن مضطرون الى قياس بقائنا على حساب الساعة اذ نحن مكتنفون بالوقت من كل جانب »

ويذهب العالم متقصياً في امتدادنا المكاني والزماني ، حتى يتخلص الى القول بأن الزمان وان لم ينفصل عن المكان ، فهو عند عالم البيولوجيا ، والطبيعة ، متمايز عنه على وجه الارض ، وفي سائر الكون ويتابع فيقول . ان الانسان ممتد في المكان ، والزمان ، ولو ان أمر؟

اتيح له ان يعمّر اجيالا ويلقي من فوق قمّة السنين العالية نظرات الى الخلائق ، لوجدها اشبه ما تكون بالشهاب اللّامع يمر في عرض السماء فيترك وراءه ذيلًا طويلًا من الضياء .

بيد ان الانسان لا يجتازه الزمان بقواه كلها فهناك فكره يعلو فوق الزمان والمكان وهناك قواه الادبية والفنية والدينية تجوز الزمان كذلك . فالمكاشفون بالغيب(Les prévoyants) يرون الامور الخفية البعيدة ادنى ما تكون، ويشعرون بالمستقبل والماضي على حد سوى حتى انهم ليعجزون احياناً عن الفرق بينهما . ثم يعرض بعدئذ كيف كان الفلاسفة في القرون الوسطى يدركون الوقت ، وكيف يفهمه فلاسفة العصر الحاضر وعلماؤه من امثال اينشتين ومينوسكي . وحسبنا ان نقف عند هذا الحد لنقول مع المؤلف : ان فكرة الوقت تماثل كيفية قياسنا له في اشياء العالم الماثلة ؛ فهو نوع من الحركة الداخلية الصَّميمة فالارض تدور على محورها وتريك آناً صفحة لامعة ، وآناً صفحة مظلمة، دون ان تتبدل او تبطل ان تكون ارضاً ؛ والجبال تنخفض شيئاً فشيئاً تحت تأثير الثلوج والامطار والانهيار وهي باقية جبالاً ؛ والشجرة تنمو دون ان تفقد جوهر الشجرة ، والانسان كذلك في نمائه يصون شخصيته . ان كل كائن يملك حركة داخلية ، وحالات تتوالى تباعاً ، في نظام خاص ، وهذه الحركة هي الوقت الداخلي الصميم .

ومن البديهي ان يجري الناس في قياس أعمارهم على نظام الشمس وان يَعزُوا الى الارض ، وهم على وجهها يعيشون ، امتدادهم المكانيَ

ويقفوا نظام حياتهم على ما بين شروق الشمس وغروبها ؛ وقد اعتادوا ان ينزلوا في قياس وقتهم الداخلي واوقات سائر الخلائق على توقيت الساعة. غير ان وقتنا نحن متمايز ومستقل عن هذا الوقت، كما ان جسمنا متمايز ومستقلّ في المكان عن الارض والشمس.

وبَعدُ فان المؤلف يعرّف الوقت الداخلي تعريفاً أوضح اذ يقول : « ان الوقت الداخلي يراد به تغيرات الجسم ، وتغيرات ضروب نشاطه على مدى الحياة. يريك ذلك جلياً رسم المرء في آماد تتفاوت بين خمس او سبع سنوات حتى لتكاد تخفى ملامح المرء وسماته ، وهذه التغيرات جسميّة ونفسيّة ، اما الجسمية فبادية للعيان في تغير جسم الانسان مع السن وهي اما قابلة التحول منتظمة كدقات القلب ، وحركات المعدة وما اشبه ، واما متكملة لا تتحول كبياض الشعر مثلاً.. واما النفسية فان وجداننا يثبت مسجلاً لا الوقت الطبيعي بل حركته هو الخاصة ، وانتقالات حالاته من جرآء المؤثرات التي تاتيه من العالم الخارجي. فان الوقت ، كما يقول برجسون ، هو نسيج الحياة النفسيّة ، ذاتها. ومدة البقآء العقلي ليست الهنيهة تتكدس على الهنيهة ولكنها امتداد الماضي المتواصل. والماضي يضاف بفضل الذاكرة الى الماضي فيصان من تلقآء نفسه وهو يتبعنا بأجمعه في كل لحظة.

ومما لا مرآء فيه اننا لا نفكر الا بجزء صغير من ماضينا ، غير اننا نرغب ، ونريد ونعمل بماضينا كله. فنحن تاريخ حافل ، وثروة هذا التاريخ تدل بيناً على غنى حياتنا الداخلية وليس على عدد السنين التي

عشناها . اننا نحس احساساً مبهماً اننا اليوم غيرنا بالامس ، ويخيل الينا ان حياتنا تزداد سرعة يوماً فيوماً ، ولكننا لا نستطيع ان نسبر تغيراً من هذه التغيرات ، اذ هي غير واضحة ولا ثابتة ، فحركة وجداننا الصميمة لا تحدُّ ولا تُعرف . » ويجهد بي ان ذهبت مع العالم مستقصياً ، وتنوُّ لغتنا العربية وتعي بهذه الاوضاع الفلسفية والعلمية الكثيرة ، فنحن نقرأ ونفهم ولا نقدر على الابانة بالتعبير ولا بالايماء ، فاذا شئت المزيد فعد الى الاصل تطالع بنفسك فتستذيق لك حلاوته .

ويعود المؤلف الى الوقت على وضح العلم والاختبار فيتكلم عن الوقت الفسيولوجي. والوقت الشمسي فيقول: «ان الوقت الفسيولوجي يختلف جد الاختلاف عن الوقت الطبيعي ؛ فلو غيرت الارض دورتها مثلا فأبطأت او اسرعت ، وكذلك جارتها ساعات العالم اجمع ، لما تغيرت معها مدة بقائنا بل لظلت على ما هي ، ولخيل الينا تخيلًا انها تزيد او تنقص ، وعرفنا عندئذ ان هنالك طارئاً الم بالوقت الشمسي . وبينما نحن نجري مع الزمان ترانا نتحرك ونتنظم بموجب سنن المفاعيل الداخلية التي تؤلف الوقت الفسيولوجي . فلسنا كذرات هباء تتطاير على وجه النهر فحسب ولكننا كذلك كقطرات زيت تنتشر على صفحات الماء بحركتها الخاصة بها . فالزمان الطبيعي اجنبي عنا حالة كون الوقت الداخلي هو نحن ومنا . فزماننا الحاضر لا يتردى اذ يمر بهوة الفناء كوقت الساعة بل يصان راسخاً في وجداننا ، وأنسجتنا ، ودمنا . فنحن آثار تاريخ تبقى على الزمان كآثار القرون الخالية . ان شخصنا يثري مع

الزمان بكل اختبار جديد يجري في تجاليدنا . فكل فكر ، و كل عمل ، و كل داء له أثره فينا اذ نحن متصلون ابداً بماضينا . ولجراحنا وادوائنا آثار في جسومنا تدل عليها ، وتبقى بعدها .

« ان الوقت الشمسي يسير دائماً على وتيرة وفي تساوق فهو هو أبداً اما الوقت الداخلي فهو متغير حقاً مع كل فرد ولا يدوم مع الفرد نفسه على حال واحدة بل تراه في استحالة على مدى ادوار العمر ، فترى الانسان حيناً مغذاً في سيره وتقدمه ، وتخاله حيناً كأنما وقفت به السن وآناً ترى العقل ينمو ويشارف كماله ، ثم لا تعتم ان تراه آخذاً في الانحطاط ودواليك ، فيكون على مقتضى الحالات التي يمر بها ، فهو في حالات الغبطة ، والرخاء ، والسلام ممتلىء نشاطاً وشباباً . واذا تكاثرت المهام ، وفدحت الهموم ، وأسأمت تكاليف الحياة ، وساعات الملالة ، تعجلت الهرم ، و كان من جرائها الوهن والانحلال . فالشيخوخة بطيئة في دبيبها اذا سلمت من العاهات ، فاذا اجهدت فهناك دليل على آفة جسدية او ادبية يجب تلافيها . »

ونقتضب بحث المؤلف في الوقت الداخلي ، وتغيرات خلايا الجسم وأنسجته ، وطوارئ البيئة الداخلية لنصل الى امر ذي بال يعني كل انسان ، وقد عرفته فيما مر بك ، ألا وهو اطالة الحياة او البقاء . و كلٌّ يدري ، ولا بدع ، حرص كل انسان على إطالة حياته ما أمكن ، والبقاء في هذه الدنيا امداً اطول ، والاستمتاع بشتى ما فيها . فهي شهية لذيذة اليه كيف كانت على ضروب عذابها وشقائها . ونزعة البقاء فينا

غلّابة مسيطرة على كل نزعة سواها ، والموت هولة الهول ، لا نتمثله الا في جزع وهلع ، ذلك لان المنية عقاب قاس مكروه لا يوده مخلوق والشعوب كلها تحاذره وهو عندها أشد ما تتصور من الاهوال . وتقاليدها ، واسفارها ، طافحة تفيض بذكره ، وتمثله في اشنع ما تبدو صورة لعين ، فهو تارةً جلاد مخيف ، وطوراً منجل مرهف ، وهو حيناً سيف معلق كسيف ديموكليس ، وحيناً حيوان هائل الى نهاية ما يتصور الخيال الانساني القوي من مروّع التهاويل !

ولا اذكر لك من هـذا الكثير الا مثلاً تعرفه ويعرفه كل متأدب بالادب الفرنسي ، وهو المثل المعروف بمثل الموت والحطاب . ولله ابداع لافونتين في دقيق تصويره كيف يصف الحطاب المسكين وشقاءه في حياته فتراه يكدح عانياً سحابة نهاره في بؤس ثم يعود في المساء :

حاملاً حملاً ثقيلاً حطباً　　　فوق عبءِ السن والهم استقر !

وهو يظن انه مسترسل الى الدعة والراحة بعد عناء يومه فتلتقيه في كوخه الادخن الواهي :

زوجُهُ أولادُهُ والغُرَما　　　وجنودٌ ورسومٌ وسُخَرْ

رسمت منه مثالاً كاملا　　　للشقافاستنجد الموتَ فَكَرْ

ثم يمثل الموت ملبياً نداءه ، آتياً ليريحه من شقائه المجسَّم فاذا هو يتنكر له ، ويهتف به ان « رُدَّ لي حملي على ظهري وسر ! » لا يستحب راحة القبر وقد كان منذ هنيهة يتمناهـا مُلحِفاً ! وما أصدق قول

شيخنا اليازجي الكبير في الموت :

أَلموتُ أهولُ ما يكون مَذاقةً　　وأشدُّ خطبٍ هالَ عندَ وفودِهِ
كلُّ الشدائدِ ليس تحسبُ عِندَهُ　　الأ كأدنى قشرةٍ من عودِهِ
لو خُيِّرَ السلطان لاختار البَقا　　ويكونَ عبداً من اقل عبيدِهِ
ويودُّ من في السجنِ ان يبقى بِهِ　　حياً يعيشُ مُعذَّباً بقيودِهِ !!

فاذا استطاع الانسان ان يطيل بقاءه ، وينعم في صحة وهناء امداً مديداً ، ويبلغ أكلأ العمر واقصاه ، فقد استطاع امراً عظيماً ، وحقَّق في هذا العصر منية البشر الجلى . وأدع المؤلف يحدثك في هذا الشأن الخطير حديثاً لذيذاً ممتعاً فسمعاً : « ان اجل منية الانسان شباب دائم ، وقد كان ذلك موضع اهتمام واحلام كبار الاطباء والمدّجلين على السواء فباؤوا جميعاً بالخيبة ، ولم يستطع احد الاهتداء الى كشف هذا السر . ونحن نشعر بهذه الحاجة الماسة يوماً فيوماً ؛ وقد أغلقت المدنية العلمية دوننا ابواب عالم النفس ، فلم يبقَ امامنا غير عالم المادة الماثل . فوجب علينا اذن ان نحافظ حق المحافظة على سلامة وقوة أجسامنا وعقولنا . وفي الحق ان قوة الشباب وحدها هي التي تشبع رغائبنا وتتيح لنا فتح العالم الظاهر ، فهي ضرورة لازمة لمن يريد ان يحيا سعيداً في المجتمع الحاضر . ولقد حققنا شيئاً من احلام اجدادنا الاقدمين فاستطعنا ان نصون قوة الشباب اكثر منهم ، بيد اننا ، والحق يقال ، لم نتوفق لزيادة اجل الحياة . فالرجل الذي اربى اليوم على الاربعين لا يرجّى ان يبلغ الثمانين كما كان في الزمان الغابر . وليخيل الينا ان طول الحياة

آخذ في القصر ، وان يكن الحد الاوسط فيها قد ازداد كثيراً .

« ومن الغرابة بمكان قصور علم الصحة والطب اليوم ، فلا اسباب النجاح في تدفئة المنازل وتهويتها وتنويرها ، ولا شروط الصحة المستوفاة في الغذآء ، ولا الحمامات والرياضة والمعاينات الطبية الدقيقة ، ولا كثرة اهل العلم والاختصاص استطاعت ان تزيد جميعها يوماً واحداً على الحد الاقصى في وجود الانسان . فهل نقول ان علمآء الصحة وعلمآء الكيميآء والفسيولوجيا قد ضلُّوا السبيل في استقرائهم بنآء جسم الانسان ، كما يضل رجال السياسة ، والمال ، والاقتصاد في فهم حياة الامة ؟ قد يجوز ان يكون التقدم الحاضر ، ونوع الحياة ، عند اهل المدن على اختلاف مع سنن الطبيعة . ولكننا نرى تغيراً بادياً قد حدث في هيئآت الرجال والنسآء . ويعود الفضل في ذلك الى علم الصحة الحديث والرياضة البدنية ، وتوفر شروط الغذآء ، وأبهآء التجميل Salons de beauté ، والى هذا النشاط الظاهر الذي احدثه التلفون ، والسيارة ، فغدا كل فرد من افراد المجتمع ذا شكل اخف وارشق . فترى النسآء اليوم ، وقد اوفين على الخمسين يتمتَّعن بنضارة الشباب . بيد ان هذه الحضارة القائمة قد نفحتنا مع ذهبها الوهاج بذهب مزيف ولذلك نرى ان تلك الوجوه التي عجز المجمِّل ان يصون روآءها ، ولم يعد بعد في استطاعة التبرج ان يردعنها ما يعتريها من تغضُّنات الهرم ، تمسي بعد ذلك الشباب المديد دون وجوه الجدَّات في جمالها وصفآئها يوم كن في هذه السن . اما اولئك المدعون الشباب ،

اللاعبون ، المرحون ، الذين يظنون نفوسهم من فتيان العشرين ، ولا يبالون بشيء ، فكثيراً ما يموتون فجأة في اسرتهم ، ووراء مكاتبهم ، وعلى ملاعب « الغولف » وقد كان اجدادهم في سنهم يمسكون المحراث بأيديهم ، ويقومون هم انفسهم بأعمالهم كلها . حقاً اننا نجهل أسباب هذا الاخفاق في حياتنا الحديثة . ولا مراء في ان لعلماء الصحة وللاطباء قسطاً ضئيلاً في التبعة وليس التبعة جميعها . واني اعتقد ان اسباب الضنى المبكر هي الافراط على اختلاف انواعه ، وتزايد المشاغل ، وكثرة المهام ، وفقدان النظام الادبي ، واضطراب الحياة وعدم تأمينها .

« فعلى اهل الطب ان يعمدوا الى فحص قوى البقاء الطبيعي في الجسم ، فذلك وحده كفيل بالفض لمشكل طول الحياة . وعلينا ان نبحث كيف تستطيع الحياة الانسانية ان تطول . ومثل هؤلاء الذين ادركوا المئة من عمرهم يدل جلياً على امكان ذلك . ومن الواضح ان طول الحياة ينجم عن الوراثة وشروط التكمل في الحياة . غير ان طول الحياة لا يُستحب الا اذا طال الشباب لا الشيخوخة . ومن السهل كثيراً ان يطول زمان الشيخوخة . وقبل ان نبحث كيف نطيل حياة الخلق ، يجب ان نجد الوسيلة التي يمكن الانسان بها ان يحفظ بنشاطه الجسمي والعقلي . ولا ينبغي ان نزيد عدد الضعاف والمرضى ، والمقعدين ، والبله ، والمعتوهين ، حتى لو استطعنا ان نصون سلامة الصحة الى ما قبيل الموت ، فلا يكون من الحكمة ان نهب

الجميع على السوآء بقآء طويلاً ، فقد غدونا نعرف اسباب المضرة في حفظ العدد الكثير اذا لم يكن ثم من المزايا والمواهب ما يجعله خليقاً بذلك . ولماذا نزيد على عمر اولئك الذين هم تاعسون ، وافدام ، واثانيون ، وعالة على المجتمع الانساني ؟ ولا يهم العدد الجزيل في الخلق وانما المهم فيهم مزاياهم ومواهبهم .»

هذه هي نظرة العلم الخالصة المجردة ، وهي ترمي اكثر ما ترمي ، الى النفع العائد على المجتمع من الفرد ، والى بقاء الأنسب ، فحياة الفرد بقيمة ذكائه ، وكده ، واجتهاده ، ولا يهم بعد ذلك شيء . والدكتور كاريل لا يقول بتقصير العمر ، بل يذهب الى ان اطالة حياة من اعترتهم آفة ، فاصبحوا عاجزين عن العمل ، لا تفيد المجتمع وقد تكون ضرراً على الانسانية .

اما نظرة الدين المسيحي فهي لعمري فوق العلم والنفع ، وهي تتناول كل خليقة ناطقة من حيث غايتها السامية التي وجدت لاجلها ولا سعادة راهنة دونها . فحق لكل فرد من بني الانسان كيف كانت حاله ، ان يتمتع ما استطاع بطول البقآء . وهو ينهى عن تقصير اجل الانسان بوسائل العلم او غيرها ، فحياة كل ناطق مقدسة ، وحرة ، لا سلطان عليها لاحد في الارض . ومن الجرم العظيم ، وانتهاك حق الخالق ان نحاول الاجهاز على حياة بالغاً ما بلغ عذابها . وعلينا معالجتها ، وتخفيف ويلاتها ، فهناك السعادة او الشقاء الابدي وهناك الفدآء الشامل لكل نفس انسانية ، ولها ملء الحق ان تشترك وتنعم به .

وشريعة الرحمة المسيحية تملأ صفحات الانجيل ، وتشع من ثنايا سطوره ومُجرَح اريحا اشهر من ان يذكر !

ثم لا تنس كيف كان اليونان ، وسائر الشعوب قبل المسيحية السمحة ، ينظرون الى الحياة ، ولا يرون فيها الا فائدتها للوطن ، فلا يقيمون وزناً للحياة ذاتها وهي بين أيديهم ان لم تكن قوية ، سلعة مزجاة لا قيمة لها ، فكان حظ اولئك الاطفال الذين يولدون ، وبهم آفة في بنائهم ، الطرح من فوق « الصخرة الكريئة » الهائلة ! و كذلك وأد البنات عند العرب في الجاهلية من هذه التقاليد الظالمة . وأذكر اليوم وثنية المبادىء الالمانية وجورها وعسفها . ووقفة الكنيسة الكاثوليكية المشرفة في وجه الظام ينجلِ لك الحق بأبهى مجاليه .

ويعود الكاتب فيوفي الموضوع حقه في بحث اساليب التجديد فيقول : « لقد يكون اجدى نفعاً ان نجد اسلوباً لتجديد حياة اولئك الذين امتازوا بصفاتهم الجسدية والعقلية ، وهم قمينون بذلك . ونستطيع ان نتصور التجديد في انقلاب الوقت الداخلي انقلاباً تاماً . فيعود ذاك المعاني عملية التجديد الى عهد مضى من عمره ، على حين تبقى حالة النفس على ما هي عليه في وقتها ، و كذلك الذاكرة ، فلا يتجدد الا جسم الانسان . ويكون في استطاعة المتجدد الاعضاء العائد الى كمال قوتها ان ينعم بخبرة عمر مديد . ولقد كانت محاولات في هذا السبيل لكبار الاطباء من امثال إستيناك وفورونوف فلم يصلوا الى نتائج باهرة ، ولكن اخفاقهم لا يعني استحالة تجديد الشباب . فان

معدّاتنا الفنية لا تزال ناقصة ، وقد يأتي يوم يصبح فيه الامر واقعاً .
ومحاولات التجديد بنقل الدم كانت من المعتقدات القديمة ، ولكنها لم
تفلح حتى اليوم ... ولن يعتري الانسانية كلال في سبيل ادراك الخلود.
ومن المحال ان تدركه اذ هي مقيدة بسُنن تكوينها وجبلتها . ولا
نشك في انها ستوفق في تحويل الزمان الفسيولوجي وتأخيره . وليس
في استطاعتها مطلقاً ان تنتصر على الموت فهو قضاء محتوم ، وجزية يجب
ان نؤديها عن دماغنا وشخصيتنا . وعلى قدر ما يتقدم علم الصحة في
معرفة الجسم والنفس ، سنعرف ان الشيخوخة السليمة من المرض لا
يجب ان تخشى ، وان جلَّ مصائبنا انما ينجم عن المرض وليس عن الهرم.»

ثم يتكلم المؤلف بعد هذا عن قيمة الوقت الطبيعي في عهدي
الطفولة والهرم ، و كيف يرى المرء الوقت في جريه ، سواء في سرعته او
في ابطائه ، فيشبّه الزمان بنهر يجري في السهل ويسير الانسان على ضفته
سحابة نهاره ، فهو في الصباح مسرع يغذّ السير فلهذا يرى النهر بطيئاً
ويأخذ الاعياء منه شيئاً فشيئاً ، فينظر الى النهر فيراه يسرع في جريه ،
ويأتي الظهر على ذلك ، ثم يكون الاصيل فيرى الماء وثاباً في تحدره
طليقاً ، لا يستطيع مجاراته ، ويسود الظلام فينقطع عن سيره
والنهر . والحقيقة ان النهر منذ الفجر الى المساء لم يتغير في سرعته ، بل
هو باقٍ على حاله ابداً ، ولكننا نحن الذين نتقلب في مسيرنا . فاذا احب
المرء ان يرى ايامه بطيئة في كرها فعليه ان يملأها باعماله العقلية ،
والروحية ، وعلى كل كائن ان يعمل . اما الهرم فلا يخلي صاحبه من

العمل ، وعلينا ان نقسم العمل فنعطي كلًا ما يلائمه ، فينال الشيخ قسطه من الكد لا من الراحة .

ويعرض العالم لمدة بقاء الانسان ، وبقاء الحضارة ، فيبدع في ملاحظاته الدقيقة شأنه في سائر ما يتناول بالبحث والتنقيب . ولقد كان لكتابه رجة عظيمة في العالم اجمع فتضاربت فيه الآراء ، وانقسم العلماء الى فريقين ، فريق اكبر يقول بآراء المؤلف ويعجب بها جدّ الاعجاب وينادي جهراً بمبادئه ، وفريق اصغر يقف وقفة المتردد . ونحن لا يعنينا الا ان ننظر فيما يقول هذا العالم العلّامة ونبسط آراءه وللقارئ اللبيب ملءُ الحرية في ان يأخذ اولا يأخذ بها . والزمان بعدئذ كفيل بابداء صحتها واقرارها او نبذها فكم من نظريات لاقت في عهد ظهورها الجفاء والازدراء ، ثم دار الزمان دورته فاذا هي في مقام الكرامة ، والحقيقة المعبودة تقول بها الشعوب وتعظمها . ولنعد الى المؤلف لنقول معه : « ان مدة البقاء تؤلف جزءاً من الانسان ، فهي منوطة به اشبه ما تكون بشكل التمثال من حجره المنحوت منه ، واذ كنا نحن قياس كل شيء فترانا نعزو الى بقائنا بقاء الحوادث في عالمنا ، فنستخدمه كوحدة في تقدير الارض ، والسلالة البشرية ، وحضارتنا الحاضرة . فمدة دوام الانسان هي التي تجعله يشعر بطول أعماله او قصرها . وليس ينبغي ان نستعمل مقياس الزمان الواحد للفرد والامة . فقد تعودنا ان نأخذ بعين الاعتبار الواحدة شؤون الفرد والمجتمع فكانت اختباراتنا ونظراتنا قريبة الغور قصيرة المدى . ولا بد من مضيّ قرنٍ من الزمان

على حياة امة من الامم حتى يحدث تطور وتغير في اسبابها ومرافقها المادية والادبية وتتَّسِم بسمات جديدة .

« وقد اصبح الان درس الشؤون الكبرى الاقتصاديّة ، والاجتماعية ، والسلالية ، يعتمد على الفرد . فان ذهب الفرد انقطع الدرس . و كذلك قل عن المؤسسات العامية والسياسية . ولم تفهم حقاً الا الكنيسة الرومانية وحدها ان سير الانسانية بطيء جداً وان انتقال الجيل في تاريخ العالم المتمدن حادثة ليست ذات شأن . اما حين نعرض للمسائل التي تعني مستقبل السلالات الكبيرة ، فان مدة بقاء الفرد وَحدة صالحة لقياس الزمن . ونحن نشهد اليوم اخفاقنا الادبي ، والعقلي ، والاجتماعي ، ولا ندرك اسبابه الا ادراكاً ناقصاً . وحكم الامم برجال لا يقدّرون الوقت الا بنسبة بقائهم الفردي ، يسوق كما نعلم الى اضطراب عظيم في الشؤون والى الخيبة والانكسار . ومن الضرورة القصوى ان نهتم بشؤون المستقبل ونعدها ، ونهذب الناشئة للغد ، ونمد آفاقنا في الزمان الى مدى يعدو اجلنا الشخصي ...

« ان فكرة الزمان الفسيولوجي تشرح لنا كيف نحن مختلفون ، بعضنا عن بعض ، ومتباعدون في عوالم متمايزة . ومن العسير جداً على الابناء ان يفهموا آباءهم ، وبالاحرى كثيراً اجدادهم . واذا ألقينا النظر الى اربعة اجيال متعاقبة تباعاً نراها على اختلاف عظيم بينها . فالشيخ وحفيد ابنه كائنان مختلفان في كل شيء ، وغريبان احدهما عن الآخر لا تجمعهما صلة. وتأثير الجيل في الناحية الادبية على الجيل الطالع

التالي يكون عظيماً على قدر ما يكون بينهما الزمان قريب المدى . . .

واظنك لا تنسى هذه الشهادة العالية التي يؤديها هذا العلامة الى الكنيسة الرومانية لفهمها الدقيق للانسانية على توالي الاحقاب ، وتعاقب الاجيال ، فان لها قيمتها ووزنها ولوتأملها هي وامثالها المسيطرون اليوم الذين يريدون ان يعودوا بالانسانية الى عهود الهمجية والوثنية لارعووا عن غيهم وفاؤوا اليها . «فتاريخ الكنيسة – كما يقول باسكال في خواطره – يجب ان يسمى تاريخ الحقيقة » وسيبقى كذلك أبد الابد ! وكلمة ذلك الوزير الانچليزي الشهير غلادستون لا تزال الاجيال ترددها من بعده ، فتقول معه : « شيئان هما هذبا العالم أجمع المسيحية واللغة اليونانية ! » وحسبك هذا فلا نزيد !

٦

الوظائف المتكيفة

يأخذ المؤلف بعد درس انواع نشاط الجسم والعقل ، ومدة بقاء الانسان ، في درس الوظائف المتكيفة ، فيدرس تلاؤم الاعضاء وعملها المشترك ، ولقد تغلغل مع درس الوقت الداخلي الى داخل الانسان فتراه يضطرب في ارجائه سابراً مدققاً ، فهناك الدم وهو حياة الانسان ، وهناك الانسجة ، وهناك عالم واسع الآفاق ، رحب الجنبات على ضيقه ، وصغر خلائقه التي لا تحصى عداً ولربما فاق عددها سكان العالمين

اجمعين! ومن هذا الداخل تتولد العلل وتنشأ الامراض ، وتحدث التغيّرات بأنواعها . فدرسه لذيذ وان شق بغموضه فلا يستلذه الا المتجردون له . وفي الحق ، من منا لم يدفعه الفضول ، وهو يتحقق مفاعيله البادية للعيان ، أن يتساءل عنه ، ولا يود ان يعرف أشياء كثيرة تهديه اليه وتلقي شعاعاً عليه ؟ على اننا سنجمل الكلام فيه اجمالاً ، تاركين التزيد لمن يشاء ذلك في رجوعه الى بحوث العلم الخاصة الوافية ، ومن حق القارىء بل القراء وهم في الغالب ليسوا من اهل الاختصاص ووقتهم محصي عليهم ، معدودة دقائقه ، ان يتذوقوا الثمر يانعاً بين ايديهم ، وليس عليهم ان يُنصبوا نفوسهم في معاناة قطفه والذهاب اليه بعيداً

يقول المؤلف : « يوجد تضادٌ واضحٌ لكل عين بين مدة بقاء الجسم ، وطبع عناصره المتحول . فالكائن الانساني مركب من مادة رخوة متغيّرة في وسعها ان تتحلل وتتزايل في ساعات قلائل ، ولكنه في بنائه ابقى مما لو ركب من الفولاذ ؛ وليس هذا فحسب ، بل تراه يتغلب دوماً على مصاعب البيئة الخارجية واخطارها ، ويوافق الحياة في شروطها اكثر من سائر الحيوانات ويعيش برغم الانقلابات الطبيعية ، والاقتصادية ، والاجتماعية . وثباته ناجم عن خاصة في نشاط أنسجتنا واخلاطنا . فيتكيف الجسم بحسب الحوادث الطارئة ، فبدل ان ينحل فانياً يتغير تغيراً ، وهو يُعد عدته لكل حادث جديد بوسيلة يواجهه بها . ومن شأن هذه الوسيلة ان تمد في بقائه اقصى ما يستطاع ... وفي

مقدرة هذه الوظيفة الغريبة او هذا المحرك العظيم ، ان يجعل وجود الانسان ممكناً بطبائعه الخاصة ، وهذا الذي نسميه تكيفاً . ان ضروب النشاط الفسيولوجي تملك قوة التكيف . ويأخذ التكيف هيئات لا تحصى يمكن ان تقسم الى طائفتين : داخلية وخارجية . والوظائف المتكيفة عاملة ابداً على مدى الحياة ، وهي لها الفضل في بقائنا » .

ثم يبحث العالم عن التكيف الباطني ولا سيما عن تركيب الدم ، وأخلاط الجسم ، بحثاً علمياً خالصاً ، وحسبك ان تعلم ان نظام اعضائنا مهما تكن مشاقنا وافراحنا ، ومهما يضطرب العالم من حولنا لا يتغير الا قليلاً . فالتبادل بين خلايا الجسم واخلاطه في مواده الكيميائية لا يتأثر بشيء . وهو متواصل على كل حال . والدم يدور في العروق وفي ثنايا الانسجة بسرعة لا تكاد تتغير . وهناك فرق بيِّنٌ رائع ، بين انتظام الحوادث التي تجري في جسمنا وبين تلك التي تحدث في البيئة الخارجية وشدة تقلبها . فان حالاتنا الداخلية تتمتع بثبات عظيم وان كان هذا الثبات لا يساوي حالة راحة او اتزان ، وهو حاصل بنشاط اعضاء الجسم جميعها . . .

اما صلات الاعضاء بعضها ببعض او تلاؤمها فيتحقق بوساطة البيئة الداخلية والجهاز العصبي . فكل عنصر من عناصر الجسم يتلاءم مع العناصر الاخرى وهي كذلك معه . وكل عنصر على ما يبدو يعرف حاجات المجموع الحاضرة والمستقبلة ويتكيف بحسب ما تقتضي منه .

فالتعاون تام بينهما في سبيل ادراك هدف واحد . وهكذا اجزاء العضو الواحد تعمل معاً على نيل غاية معلومة محدودة ، فاذا تبسط الدماغ تحت الجلد فليؤلف عصب النظر وشبكة العين فيصير الجسم شفافاً وينشيء صفحة العين وانسانها . ولسنا نستقري عمل كل عضو من هذه الاعضاء فذلك لا يطيقه مثل هذا المقام .

وتلاؤم الاعضاء وانسجامها مدهشان حقاً ، يريك المؤلف ذلك في الانسجة اذا حدث لها حادث : من مثل حرق او جرح او كسر وما اشبه، فترى عندئذ الجسم بجميع اعضائه يتكيف بحسب الحالة الجديدة . ويدأب على اصلاح الانسجة ، وهذا ما نراه مثلاً في شفاء الجراحات . وتطوي هذه الابحاث لنصل مع العالم الى الجراحة الحديثة . وما احب اليَّ واليك ان نسمع كلام الكاتب الالمعي فيها . ومن يجهل اليوم عجائب الجراحة الحاضرة ؟ واحسبك دخلت احد المستشفيات الكبيرة وتنقلت في ارجائها بين المرضى تسائلهم قليلاً وتتثبت بأم عينك ما تأتيه الجراحة كل يوم من الآيات الباهرات ! فهناك من بترت ساقه او قطعت يده ، ولا يزال معافى ، وهناك من سملت عينه ولا يبرح ذا عينين ، وهناك من شُقَّ جوفه ، فتناول مشرط الجراح أمعاءه فيفريها ثم هو يصلها ، ويرتقها حتى لتكاد تحسب الطبيب آنئذ خياطاً صَنَعاً يفصل ويخيط ، ويرفأ ، فهو يبرئ ويعيد كانما بنان العناية في مسّ بنانه وقدرتها في حذق جنانه ! و كأنه حقاً ملاك الرحمة يحمل الشفاء والعزاء واكسير الحياة الى هذه الانسانية المتألمة ! فما اصدق قول الكتاب

العزيز فيه: اعطِ الطبيب كرامته فان الطب من لدن العلي . وما اصدق قول شاعر الاقطار العربية مطران في وصفه حيث يقول :

لو صَوَّر الله في جسم امرىء مَلَكاً   لصوَّر الملك الانسي في آسي!

فالجراحة كما يقول المؤلف : « مرتكزة على الوظائف المتكيِّفة وعواملها ، واحسبك عرفت حق المعرفة كيف تستخدمها ولقد عدت الجراحة اقصى آمال الطب القديم، بفضل اساليبها المبتدعة ، وهي اسمى ما نال علم البيولوجيا — علم الحياة — من ظفر . وهؤلاء الالى ملكوا قيادَ فنِّها ، واستبطنوا كنهها ، وفهموا حق الفهم الخلائق الناطقة وعلم الامراض هم اشبه ما يكونون — كما يقول اليونان — بالخالق ! فان لهم القدرة على فري الجسم وسبر اعضائه واصلاحها دون ان يستهدف المريض للخطر . وهم يشفون او يزيلون ما يعوق الفرد عن ممارسة حياته المنتظمة، ويخففون، كثيراً على من اعيا داؤهم، ما يلاقون من تباريح الالم . ما أقلَّ امثال هؤلاء الرجال اليوم وأقلَّ عددهم ! بيد انه ليس ما يمنع من زيادة آحادهم بتهذيب فني وادبي وعلمي !

اما الجراحة في نجاحها فالفضل فيها راجع الى سبب بسيط جداً : وهو انها قد تعلمت ان لا تعوق عوامل الاصلاح الطبيعية ووفِّقت لان لا تدع الجراثيم تتسرب الى الجراحات، وغدت تحرك الانسجة كيف شاءت دون ان تغير وضعها . فسرعان ما كانت الجراثيم قبل اكتشافات باستور وليستر تهاجم الجسم على اثر العمليات غازية فتتولد الغنغرينا وسواها من الادواء الفتاكة و كثيراً ما يتبعها الموت . لكن الوسائل

الفنية اليوم قد وُفِقت توفيقاً عظيماً لمنع الجراثيم من انسرابها الى الجراح، فهيأت للمريض الوقاية والشفآء. والجراثيم هي التي تمنع الاصلاح وتعوقه. ولم تتقدم الجراحة الا يوم وفق الطب في وقاية الجراحات، فنالت نجاحها على ايدي : أوليه، وبيرت، وكوشي وامثالهم من معاصريهم، ولم يمر عليها ربع قرن من الزمان حتى اصبحت قوة عظيمة بين ايدي كبار الاطبآء.»

ويتخلص المؤلف الى القول بان كل تقدم يحدث في معرفة اسباب الاصلاح في الانسجة، يقابله تقدم في فن الجراحة. بيد ان شفآء الجراحات في اعظم المستشفيات التي نالت الذروة في كمالها، وكذلك في الفلاة المنقطعة، والغابات الكثيفة، متوقف قبل كل شيء على الوظائف المتكيفة.

وكان لا بد من البحث في الجراثيم، وشأنها ذلك الشأن الخطير في عالم الطب. ولهذا يقول المؤلف العلامة فيها : « عندما تتسرب الجراثيم نافذة الى بيئة الجسم الداخلية يطرأ على وظائف الاعضآء ما يغيرها حالاً فيبدو المرض حينئذ. وتتوقف طبائعه على نوع تكيف الانسجة بتقلبات البيئة المعتراة بالداء فالحمى مثلاً هي اجابة الجسم على مهاجمة بعض الجراثيم الغازية بالقبول. والدآء او المرض هو كفاح الجسم ضد غاز يريد ان يعيث فساداً، وجُهدُهُ في الحفاظ على بقائه في الزمان. ولكنه يمكن ان يكون، كالسرطان والجنون، علامة الانحلال الانفعاليّ في احد الاعضآء او كذلك في الوجدان. والجراثيم منتشرة في كل

مكان : في الهوآء ، والمآء ، والغذآء . وهي مقيمة ابداً في ظاهر الجسد، وفي غشآء باطن الانف ، وفي الفم والحلق ، والمداخل الهضمية . وهي عند كثير من الناس غير مضرة . وبعض الناس معرّضون للامراض والآخرون أبعد ما يكونُ عنها . اما مناعة الجسم فناشئة عن تركيب خاص في الانسجة والاختلاط يمنع من تسرّب حاملات الدآء او يبيدها قبل ان تتسرب ، وهذا ما نسميه العصمة الطبيعية . وهي تقي بعض الافراد الامراض جميعها على التقريب ، وانها لاسمى المزايا التي يمكن المرء ان يتمناها . ونحن نجهل طبيعتها . والذي يبدو لنا انها متّصلة بخصائص تتّصل من الاجداد ، وبخصائص اخرى تكتسب في عهد التطوّر والاكتال . اما السلالات فمختلفة من جهة الامراض : فمنها ما هي قابلة لها ، ومنها ما هي متمنعة عليها . ولكن العصمة الطبيعية لا تكون من البنية الموروثة فقط ، وانما هي تنشأ ايضاً من نوع الحياة والغذآء . » ويتكلم بعد هذا عن مقاومة الامراض ، والمقاومة اما طبيعية تقوم بمناعة الجسم كما رأيت ، واما اكتسابية تقوم بالتلقيح . وعلى الجملة فان الصحة يجب ان تكون فينا شيئاً طبيعياً لا نأبه له .

وللمؤلف كلمة جامعة في الامراض المعدية التي تتسرب بالجراثيم كالتيفوئيد مثلاً وفي الامراض التي تحط القوى وينحل معها المرء شيئاً فشيئاً كالسكر وما شاكل ، يبحث فيها بحثاً علمياً دقيقاً ، ويدرس حالة الانسجة عند طروء هذه الآفات والادوآء ، ووسائل الكفاح لتعود الى حالها المعهودة السالفة . ولقد رأيت فيما مر بك التكيف الباطني ، ولا

بد من الوقوف على التكيف الظاهر كما اخذ المؤلف في تقسيمه آنفاً .

« في التكيف الظاهر ينظم الجسم حالته الباطنية على وفق تغيرات البيئة ، ويتم هذا بتلك العوامل التي تصون ثبات انواع النشاط الجسمي والعقلي وهي التي تهب الجسم وحدته . ان لكل تبدل في الشروط الخارجية صدى في الوظائف المتكيفة ، وجواباً عليه . والهوآء هو أبرد من الجسم او أحرّ منه ؛ لكن الاخلاط التي تغمر الانسجة ، والدم الذي يسري في الاوعية تبقى على حالة واحدة من حيث قياس حرارتها. وهذا المظهر يتطلب تدخل الاعضاء المستمر . اما درجة حرارتها فتميل الى الارتفاع اذا ارتفعت درجة الجو ، او اذا ازداد التبادل الكيمياني كما يحدث في الحمى مثلاً . فعندئذ تزداد سرعة الدورة الرئوية ، وحركات التنفس ، ويتبخر مقدار كبير من الماء في خلايا الرئتين فتتدنى حينئذ درجة حرارة الدم ، وتتمدد الاوعية المغشاة بالجلد ، يحمرُّ الجسم . ويصل الدم غزيراً الى ظاهر الجسم فيبرد عند مباشرة الهوآء له . واذا كان الهوآء حاراً كثيراً ، فان غُدَد العرق تغشي الجسم بغشاء منه ينقص درجة الحرارة اذا خف وتطاير . ويأخذ في العمل الجهازان العصبي المركزي والعاطفي الكبير فيزيدان في سرعة دقات القلب وفي تمدد الاوعية . . . فان هبطت درجة الحرارة انكمشت الاوعية متقلصة وابيضَّ الجسم .وتكاد تحسب الدم عندئذ منقطعاً عن جريه فيلوذ مستكناً بالاعضاء الداخلية العميقة ، فتزداد به حركتها ويتضاعف تبادلها الكيمياني . فنحن اذن نقاوم البرد والحر بتبدل في اعصابنا ، وسريان

دمنا، وغذاء جسمنا كله . فتغيُّر درجة الحرارة، والتعرض للحرّ والبرد، والهواء، والشمس، والمطر من شأنها ان يؤثرا ليس في الجلد فحسب بل في الاعضاء جميعها.

« ونحن نتكيّف موافقين لمهيجات العالم الخارجي بأسرها حتى عندما تهز أطراف أعضاء حسّنا هزاً عنيفاً أو خفيفاً . فالنور اذا اشتدّ كثيراً أصبح ضاراً . وقد تجنَّبه الناس من قديم بدافع الغريزة . والجسم يملك أسباباً كثيرة يتَّقيه بها . فتحفظ العين الاهداب حين تشتد الاشعة ساطعة . ويقل شعور شبكة العين في الوقت نفسه . . . فان نقصت الوسائل الطبيعيَّة الواقية طرأ على الشبكة ، والبشرة ، ما يضر بهما، وكان اضطراب في الاعضاء الداخلية والجهاز العصبي . وربما ساقت قوة النور الساطع على التمادي الى نقص في الشعور والذكاء . ولا يجب ان ننسى ان السُّلالات العريقة في الحضارة التي ادركت شأو المدنية ، كأهل اسوج ونروج أهلها بيض البشرة يعيشون منذ اجيال متطاولة في بلاد ضعيفة الضياء .

« ان الجهاز العصبي المركزيّ يتلقى من العالم العلويّ ، ما خلا الاشعة الساطعة، أنواع المهيّجات الجمّة . تكون تارة قوية وطوراً ضعيفة . فنحن اشبه ما نكون بصفيحة الآلة المصورة المسجلة ابداً على نحو واحد ما تتلقى من أشعة متباينة في قوتها واشتدادها . وفي هذه الحال يرى أثر النور دقيقاً على الصفيحة بفضل محجبها Diaphragme . غير ان جهاز الانسان ينحو نحواً مختلفاً فهو يلائم شدة المهيجات المتنوعة في نقص

قبوله أو زيادته . وشبكة العين المتعرضة للنور القوي تفقد كما نعلم قسطاً كبيراً من احساسها . و كذلك غشاء باطن الانف يصبح في مدى يسير فاقد الشعور بالرائحة الكريهة . والضجة الصاخبة اذا دامت أو تجددت على وتيرة واحدة ألفناها ولم ترعج . واصطخاب البحر واصطفاقه على الصخور ، ودوي القطار لا تذهب بالنوم ، فلا يشعر والحالة هذه بسوى تنوع الشدة في المهيجات :

ويخلص بعد هذا الى النظر في حال مجتمعنا الحاضر ، وتأمل كيف يتناوله بالنقد اللاذع ، فكاريل هو أحد جهابذة النقد العلمي والاجتماعي ، واليك ما يقول : « لقد اوجدت الحضارة مهيجات لا نقوى على دفعها ، ولسنا نعرف السبيل اليه . ونحن نقاومها مقاومة سيئة ، واننا لعاجزون لا نستطيع التغلب على الميل الى السموم المنومة : كالحشيشة ، والكوكايين . وأغرب ما في الامر ان نألف دون عناء حالات المدنية الحديثة . بيد ان هذه الالفة تبعث على التغيرات الجسمية والعقلية التي تحدث في الفرد تغيراً جوهرياً . »

اما آثار التكيف في الجسم والوجدان ، فاليك ما يقول المؤلف فيها : « ان بعض التغيرات في الجسم والوجدان تنشأ من التكيف . وتطبع البيئة اثرها في الكائن الانساني ، فان طال عملها في الاحداث فأثرها لا يزول . فتبدو حينئذٍ اشكال جديدة في بنية الفرد وذكائه وكذلك في السلالة . فسكان نورمندا مثلاً ، من انسان وحيوان ونبات ، يختلفون كثيراً عن سكان بريتانيا في فرنسا . وتعوّد احتمال

الجوع والعطش يظهر جلياً في الحيوانات . فالحيوانات التي ترد الماء قليلاً تشرب كثيراً ، وتتعوَّد انسجتها ان تصون مقداراً كبيراً من الماء زماناً طويلاً ، و كذلك قل عن النوم ، فلقد يعتاد المرء ان ينام كثيراً في بعض حقبه ، وان ينام قليلاً في بعضها الآخر . ومن السهل ان يتعود المرء الافراط في الطعام والشراب ولكنه لا يقوى فيما بعد على ترك هذه العادة وقطعها ، ولا نزال الى يومنا هذا نجهل مغبة الافراط في اعضاء الجسم وفي العقل . غير اننا نعرف ظهورها في زيادة الحجم ونماء القامة في الهيكل البشري . وليس من الاكيد ان العادات المتَّبعة في الحياة الحديثة تساعد على النمو الطبيعي الصالح في الخلائق الناطقة . وقد اخترنا نوع هذه الحياة لما فيه من الهناءة والراحة . وهو مختلف تماماً عن نوع حياة الاجداد الاقدمين وعن حياة هؤلاء الذين لا ينعمون بهذه المدنية الصناعية . ويخالجنا الشك ان تكون حياتنا خيراً من حياتهم . ان الانسان يستطيع ان يألف البيئة التي يعيش فيها وان يتعودها كيف كانت ، أوُجِدَت على ارتفاع عظيم ، ام في منخفض عميق . وللغذاء تأثير بالغ فأولئك الذين يغتذون بالحليب واللبن والبيض والبقول وما شاكلها يختلفون في تركيبهم عن هؤلاء الذين يأكلون اللحم ويشربون الخمر ، والجعة ، وسائر صنوف الشراب . فوجب اذن ان نعود طلّاب الجامعات الذين يتنعمون بضروب الرفاهية ، والنعيم ، حياة تنشىء فيهم عوائدها رجولة اشد واكمل . »

تلك نظرات خاطفة ولكنها نفاذة ، ولوحات جامعة ، ترى على

نورها وصفحاتها الامم العريقة في الحضارة من اقاصي أوروبا الى آفاق العالم الجديد متمثلة فيها أبدع ما تمثلت ، فتراها على عراقتها وتقدمها لم تهتدِ بعد الى نوع من الحياة يكون خيراً في معظمه ، بل انك لترى ان هذه الامم الراقية كلما تقدمت في العمران والارتقاء عظمت آفاتها وتضاعفت ويلاتها ، وقد أراك شيئاً من هذا علّامتنا فيما مرّ بك . وهو لا يزال ماضياً في نقد آفات هذه المدنية الحاضرة باسلوبه العلمي المحكم عن سعة في العلم وبسطة في الاختبار . وليس عليك ان تذهب بعيداً وتطوف في آفاق الدنيا ليتأكد لك صدق قوله ، فنظرة الى مجتمعنا الحاضر والى ناشئة اليوم ، تريك حق ما يقول ، نظرة الى مجتمعنا الشرقي ، وعفواً ! فما يجب ان انعته بالشرقي فليس هو شرقياً ، ولا غربياً ، ولا مزجياً ، ولا ادري ماذا ؟ ولكنه شيء مسيخ فيه من الصور كلها ، ومن الالوان جميعها ، ومن آفات وسمات الدنيا بأسرها ؟ فهناك الجعة ، والشامپانيا ، والروم ، والوسكي ، والعرق ، تمثل الغرب والشرق معاً ، وهناك الازياء المتباينة المتهاوية من حواضر الغرب وخصوصاً من عاصمة الفرنسيين — قلب الدنيا — كما سماها الشاعر ! وهناك المسيو ، والجنتلمان ، والسنيور ، والسيدوّ وا ! ... وهناك الاوديون ، والامبير ، والليدو ، وامثالها ! .. وهناك الادواء الفرنجية من سلّ ، وزهرة ، وعاهات لا ادري ما اسميها ! وهناك فوق هذا جميعه الشباب الهرم وهذه الصحة السقيمة ! .. وهناك ما تدري ! .. وهناك ما لا تدري وادري ! وليس بدع فالشرق الكريم مضيافٌ

اريحي كان وما برح على الدهر « جسر الفاتحين ! »

اما البيئة فهي طبيعية واجتماعية ، وقد طالعت ما كتب المؤلف عن الطبيعية، وموافقتها ، وآثارها ، وبكلمة موجزة عن التكيف بها . ولست احب ان احرمك شيئاً من لذائذ ما كتب هذا المفكر القدير في البيئة الاجتماعية ، وما يتصل بها ، فهي نظرات صادقة ، وملاحظات جامعة ، فهلم نطالعها معاً ، يقول المؤلف : « ان المرء يألف البيئة الاجتماعية كما يألف الطبيعية . وصنوف النشاط العقلي كانواع النشاط الطبيعي ، نزاعة الى التغير في الناحية المثلى لبقاء الفرد في الحياة . فهي تسمت سمتاً يؤلف بيننا وبين بيئتنا . ونحن لا نتلقى ، في العادة ، من الفئة التي ننتظم فيها منزلتنا مجاناً . فان كل واحد يريد ان يملك ، ويعرف ، ويأمر ، ويتمتع . وهو مدفوع بنزعة المال ، والطمع والفضول واللذة ، يعيش في بيئة لا تحفـل به بل هي حربٌ عليه في كثير من الاحيان . وسرعان ما يعرف انه يجب ان ينال ما ينشد . فالوجدان يتأثر بالبيئة ، اما نوع الفتها فيتعلق بحـالة الفرد . ويألف البيئة المرء اما بالتغلب عليها ، واما بالفرار منها ، وفي الغالب لا تتم الفتها على حال . لكن موقف الانسان الطبيعي من العالم ، ومن اشباهه ، هو موقف جهاد . ويجيب الوجدان على عداوة البيئة بجهد يوجهه ضدها . فيتكمل العقل حينئذ ، وتتسع الحيلة ، ويقوى الانتباه الحر ، وتزداد رغبة التعلم ، والعزم على العمل ، والامتـلاك ، والسيطرة . ويأخذ حب الامتلاك وجوهاً مختلفة تشاكل الناس والبيئة والحب هو الذي يبعث

على المغامرات العظيمة جميعها ،وهو الذي دفع باستور الى تجديد الطب، واستفز موسوليني الى انشاء امة عظيمة ، وحدا اينشتين الى خلق عالم. وهو الذي يسوق كذلك عصابات اللصوص الحديثة الى النهب، والفتك، والسلب المالي ، والاقتصادي في المجتمع ، ويرفع المستشفيات ، والمختبرات ، والجامعات ، والكنائس ، ويطوح بالمرء الى النشب او الى الردى، الى البطولة او الى الجناية . بيد انه لا يلقي به ابداً الى السعادة.

اما النوع الثاني في الفة البيئة فهو الفرار منها . فيترك البعض الجهاد ناكصين ، ويتدلون الى مستوى لا حاجة بهم الى الجهاد فيه ، فلقد انقلبوا عمالاً في المصانع ، وصاروا من اهل الذل والفاقة . والبعض يخلون الى نفوسهم معتصمين بها ، وفي وسعهم ان يألفوا بيئتهم بعض الالفة ويتغلبوا عليها بفضل ما أوتوا من الذكاء العظيم ، الا انهم لا يجاهدون ، ولا يتصلون الا في الظاهر بعالم تفصلهم عنه حياتهم الداخلية. والبعض الاخر ينسون بيئتهم لاستغراقهم في عمل يشغل آناءهم كلها. واولئك المكرهون على العمل يألفون الحوادث الطارئة على اختلافها. فالثاكل التي رزئت ولداً، ولها سواه من الابناء يجب ان تحوطهم بعنايتها كانفة ، لا وقت لديها لتنصرف الى التفكير في حزنها . ان العمل وسيلة افعل من المسكرات والمورفين لاحتمال شروط البيئة المتباينة . ولقد يقضي الحياة بعض الافراد مسترسلين الى احلامهم وآمالهم بالثروة ، والصحة ، والسعادة . والاوهام والامل وسيلة فعالة في التبدل . فالامل يولد الفعل . والدين المسيحي على حق اذ يعتبر الرجاء فضيلة عظيمة ، ذلك

لان الرجاء من اقوى البواعث في مساعدة الانسان على احتمال وتعود بيئة غير صالحة . فان العادة تساعد على الالفة . والآلام اسرع من الافراح في النسيان . اما الفراغ فيزيد في آلام الحياة . واشد شقاء حملته هذه المدنية العلمية الى الناس هو البطالة . . .

ان كثيراً من الناس لا يألفون الطبقة التي يخالطونها ومن هؤلاء ضعاف العقول . فقد غدوا ولا محل لهم في المجتمع الحديث سوى مآويهم الخاصة بهم . وكثير من الاطفال يولدون بين المصابين بالانحلال والمجرمين ، وفي هذه البيئة الموبوءة تتكامل جسومهم ، وينمو وجدانهم فلا يستطيعون فيما بعد ان يألفوا الحياة المنتظمة ، فهم يؤلفون جماهير السجون ، وتلك الجماهير التي تعيش من السلب والفتك ، حرة طليقة . وهذه الخلائق هي النتيجة اللازمة للفساد الذي دهتنا به المدنية الصناعية وهي بطبيعة حالها غير مسؤولة عن اعمالها . وكذلك هم اولئك الطلبة الذين يترعرعون بين جدران المعاهد الحديثة ويتخرجون على اساتذة يجهلون ضرورة الجهد ، والجد العقلي ، والنظام الادبي . فاذا نظروا بعدئذ الى العالم فرأوه غير حافل بهم واخذت تحدق بهم المصاعب المادية والادبية من كل جانب في الحياة رأيتهم عاجزين عن التمرس بها وتألفها الا بالفرار والتماس المدد والحماية ، واذا اقتضى الامر فبالجريمة والانتحار . وكثير من الفتيان مَن هم صلاب العضل ، ولكنهم ليسوا على اهبة للكفاح والثبات يتراجعون عن الجهاد الذي قضت به الحياة الحديثة . فهم ابان الازمة والشدة يهرعون الى الطاعنين في السن

من ذويهم يسألونهم القوت والمأوى . وكذلك قل عمن تنبتهم بيآت الجرائم والشقآء فانهم عاجزون عن اخذ مكانهم من المجتمع الجديد .

« ان بعض اشكال حياتنا تنتهي بالافراد الى الانحلال حتماً . ولبعض الشروط الاجتماعية أثر سيء في ذوي السلالات البيضآء لا يقل عن أثر المناخ الحار والبارد . ونحن نظفر بالعمل والجهاد فنتعود الفقر والمهام ، والاشجان . وفي مستطاعنا ان نقاسي الاضطهاد ، ونعاني الثورات ، والحرب دون انحلال ؛ ولكننا عاجزون عن تعود الشقآء او الرخاء . فالفقر المدقع يسوق حتماً الى ضعف في الفرد والذرية معاً . وكذلك الثروة التي لا تكون معها تبعة من التبعات . وهناك اسر حازت الثروة والسلطان قروناً برمتها وظلت قوية جبارة . وقديماً كانت الارض مصدر السلطان والغنى وكانا يسوقان بالضرورة الى الجهاد والجهد ، والدأب الدائم . اما اليوم فالثروة حرة طليقة من كل واجب تنتهي بالناس الى الضعف ابداً . والفراغ من دون الثروة ؛ محفوف كذلك بالمخاطر . فلا دور السينمآ ولا دور الغنآء ولا المذياع ولا السيارات ولا الرياضة في استطاعتها جميعاً ان تقوم مقام العمل المنظم والنشاط المجدي . ونحن أبعد من ان نقول اننا قد وجدنا حلاً لمعضلة المجتمع الحاضر الا وهي البطالة . ولسنا نحلها الا بثورة ادبية واجتماعية والى الآن لا نبرح عاجزين في مكافحة البطالة كعجزنا في مكافحة السرطان والامراض العقلية » . وقديماً قال الشاعر العربي :

إن الفَراغ والشَّباب والجِده مفسدةٌ للنفس ايُّ مفسدَه !

اما البطالة فأين ادرت نظرك وجدت منها الناس شاكين متألمين ووجدت في الطليعة دول الارض كلها تتذرع بالذرائع كافة في معالجتها ومكافحتها وهي لم توفق لازالتها بل انك لترى ان هذه الازمة العالمية الخانقة تشتد يوماً فيوماً مهددة بالثورات والويلات . فنحن نطالع كل يوم في كبريات الصحف اخبار الملايين من العاطلين عن العمل في حواضر الدنيا الكبيرة يرفعون اصواتهم وينظمون التظاهرات ويهددون الحكومات ! ولقد بحث علماء الاقتصاد والمفكرون أسبابها الكثيرة وبسطوها للملأ اجمع ، لعل قادة الامم يتوصلون بدأبهم ومساعيهم الى تخفيفها . ومن اسبابها الجمة المختلفة الاساسية شروط الحياة الحاضرة وما تفرضه مما لم يعد مغنياً كما كان في الماضي القريب . ولقد غيرت تلك الحرب الكونية وجه الارض ومرافق الحياة بأجمعها . وكأن دنيا اليوم لا تمتُّ بصلة الى دنيا الامس القريب . والى جانب ذلك كان احتكار الثروة ، فكبار المثرين في العالم يخزنون الذهب مكدساً في الصناديق ولا يجرؤون على التجرِ به مخافة الافلاس ، وهم يرون العبر البالغة بأم اعينهم . وكذلك قل عن الحكومات وخوفها من حرب عامة فهي مضطرة حتماً الى خزن اعظم ما تستطيع من مقادير الذهب في أنفاقها ، استعداداً للطوارئ . فقد علمتها التجارب ما عانت من البلايا والرزايا ، وما كانت حاجتها اليه ابان المكاره . هذا فضلاً عن كثرة الانتاج وقلة الاستهلاك وعدم الحاجة الى اليد العاملة . فلقد زادت هذه المخترعات الجبارة في بلايانا لا في كمالنا من هذه الناحية .

وغدت الآلات العظيمة تعمل وحدها وتنتج اضعاف اضعاف ما تنتجه الايدي العاملة على كثرتها . وأنت تفهم هذا حق الفهم حين ترى مثلاً مصانع فورد الكبيرة تسرح عشرات الالوف من عمالها وتستعيض عنهم بالآلات وتجتزئ ببضعة آلاف عامل . ومما يزيد كذلك في اضطراب هذه الحال التي نتألم منها نزع الثقة بين الدول ؛ فكل دولة متخوفة موجسة من الاخرى واقفة لها بالمرصاد ، تدب لها الضرآء فلا امان ولا اطمئنان . هذا نزرٌ يسيرٌ من اسباب الازمة العالمية . وامهات الصحف في العالم لا تني تكتب طوال الفصول فيها ، وتستقري تطوراتها فاذا شئت فعد اليها او الى ابحاث رجال الاقتصاد وافذاذه اللامعين اليوم . فكان لا بد والحالة هذه ان يتأثر شرقنا بحالة الدنيا اجمع فتتعسر احواله . والى جانب ذلك كثرة المتأدبين في ديارنا او قل انصاف المتعلمين ، فقد ملكنا هوى العلم فأقبلنا عليه متهالكين ، فامتلأت جوانب المعاهد الكثيرة ومضت تخرّج الناشئة فتتوالى افواجها منذ عشرين سنة خصوصاً فكاد عدد انصاف المتعلمين يربي على الاميين . ولا تنسَ ان جل هؤلاء قد هجروا قراهم ومزارعهم وتراءى لهم الغد سعيداً فتاناً فأغذوا السير وكان سيرهم كسير الظمآن الى السَّراب فأخفقوا ايما اخفاق وأبوا بعد تخرجهم أن يعودوا الى حقولهم يعمرونها بأيديهم جادين كما كان آباؤهم واجدادهم . واذا قرأت بعض مؤلفات الكتّاب الفرنسيين كبازان ، وپيير لرميت وسواهما علمت الى اي حد بلغت هذه الآفة في فرنسا . ولا ازال اذكر حديثاً لاحد

وزراء المعارف اللبنانية . شكا فيه من كثرة المتعلمين في لبنان الذين نالوا شهاداتهم العالية وهم لا يدرون ما يصنعون ولا تدري الحكومة ما تصنع بهم وما اشد حيرة الحكومة بامثال هؤلاء الشبان ! ويتأكد لك الامر حين تلتمس استاذاً للتعليم فترى عشرات هؤلاء ينهالون عليك وبين ايديهم شهادات الحكومة والمعاهد يقبلون على التعليم راضين براتب ما احراه ان يكون في بيع الفجل ومسح الاحذية !! فلا تعجب اذن ان رأيتَ المؤلف يقول في هذه المعضلة التي اعيت : « ولن نحلها الا بثورةٍ ادبية واجتماعية والى الآن نحن لا نبرح عاجزين في مكافحة البطالة كعجزنا في مكافحة السرطان والامراض العقلية . »

وكأن المؤلف لا يريد ان يترك ما ابتدأ به في وظائف التكيف دون ان يعرض لمبدأ جوهري في حياة الانسان الطبيعية والادبية ، يقول به وطالما حث عليه الا وهو سنة الجهد la loi de l'effort وقد عرفت ان بلوغ الفرد الى كماله متوقف عليه وكذلك كمال الانسانية جمعاء . فالجهد اذن سنة الخالق في خلقه من يوم ابدع الكون . وكما سمع الانسان الاول تلك الكلمة الرهيبة : « بعرق جبينك تأكل خبزك » لا يزال كل انسان الى ابد الابد يسمعها في رهبة وخشوع ، وليس من يستطيع مخالفتها . ولكن الجهد وان كان سنة مفروضة لا يجب ان يكره ويُزدَرى ، فهو السبيل الى ارتقاء الانسان وكماله ولا اذكر اسم من حدَّ النبوغ بأنه : « جَلَدٌ طويل ! » واليك ما يقول المؤلف فيه : « كلما عمل العضو ترقى الى كماله ، فبدل ان يخلقه العمل ويبريه ، يقويه ، فالجهد

اذن لا مندوحة عنه حتى ينال الفرد كماله المقسوم ، وكما تصاب الاعضاء بالضعف اذا لم تعمل دائبة ، هكذا العقل والحس الادبي فأنهما يضعفان خاسفَين اذا لم يدأبا . وسنة الجهد اعظم شأناً من سنة الثبات في حالات الاعضاء . ان ثبات البيئة الداخلية ، لهو من غير شك ، في غاية الضرورة لبقاء الجسم . ولكن تقدم كل فرد منا ، الجسمي والعقلي ، قائم على نشاط وظائفنا ، ونشاط جهودنا . . . وقصارى القول ان عناصر الجسم كلها تعمل معاً في سبيل خير المجموع ، كما تعمل النحلة لخير جمهوريتها . وهي تعلم المستقبل كما تعلم الحاضر وتتلاءم مع الحوادث الآتية بتغيرات سابقة تتكيف بها في هيئتها ووظائفها . »

وهنا ينتقل النقادة الى مقابلة طريفة بين حياتنا وحياة اجدادنا من حيث استجماع شروط الصحة ، واستعمال وظائف البنية ، ناظراً مدققاً . ولقد يُخيَّل اليك في اول وهلة وانت ترى ما انتهينا اليه من كمال الوسائل في الحياة ، وضروب الرفاهية ، ان حياتنا الحاضرة الناعمة خير من حياتهم الغابرة الخشنة . فاستمع اذن لما يقول هذا العلامة الخبير : « لقد غدونا نستعمل وظائف التكيف اقل من اجدادنا السالفين . ومنذ ربع قرن خصوصاً اصبحنا نألف البيئة ونتكيف بها بمعدات انشأها عقلنا ولم يستنبطها جسمنا . وهذه المدنية العلمية قد امدتنا بوسائل نصون بها توازننا الداخلي وهي اشد لذة واقل عناء من الوسائل الطبيعية فكادت تجعل شروط الطبيعة في حياتنا اليومية ثابتة غير متغيرة فألفت موحّدة عمل الاعصاب والغذاء والنوم . وأَلِفت الجهد

والتبعة الادبية فبدلت نشاط انظمتنا كلها .

« فغدا سكان المدينة الحديثة لا يعانون تقلبات الجو . فاستكمال المنازل ووسائل التدفئة والتبريد ، وجودة اللباس ، والسيارات المقفلة المدفأة ، كل هذه قد حمتنا حماية منيعة من تقلبات الجو على اختلافها . في الشتاء لا نقاسي لذعات البرد الشديد ، ولا لفحات الوهج امام المدافئ . والمصطليات التي كان اجدادنا قديماً مضطرين الى الاصطلاء بها وليس لجسمنا بعد مجال لحركة اعضائه وهي التي تزيد فيه نشاط التبادل وتغير السَّرَيان فالمرء الذي يرى نفسه عاجزاً عن اتقاء البرد بثياب لا تقيه ، مدفوع بطبيعة حاله الى الحركة العنيفة ليحافظ على توازن حرارته الداخلية . اما الذي يتقي البرد بالفرآء الثقيلة ، وبأكسية لا يجد اليها الهوآء نفاذاً ، وبالسيارة المحكمة النوافذ ، المستجمعة لاسباب الدفاءة ، والغرفة الدائمة حرارتها على درجة واحدة فليس به حاجة الى الحركة ، ونظامه الطبيعي في غنى عنها . ولقد تجد كثيراً من الناس من لا يباشر الهواء بشرة جسمهم ، فلا حاجة بهم الى اتقاء المطر ، ورطوبة الثياب المبللة ، ولا الى حرارة الشمس المتحدمة في ساعـات العناء الطويلة . فهم والحالة هذه لا تعمل فيهم تلك الحركات المنوط بها اتزان الدم والاخلاط ، ومحرومون تمريناً لا غنى عنه لكمالهم المنشود ، بل لكمال الفرد في حياته . . .

« لكن جهد العصب لم يُلغَ تماماً وان نقص نقصاً بيّناً ، وقامت مقامه الآلات . ولم نعد نرى هذا الجهد الا في المنازلات الرياضية ،

وعلى نظام خاص ثابت . ويجب ان نتساءل هل هذه التمارين الاصطناعية تسد مسدّ التمارين الطبيعية في شروط الحياة القديمة ؟ فساعات الرقص واللعب القليلة في خلال الاسبوع لا تغني الرجال والسيدات عن ذلك الجهد الذي كانوا يبذلونه في اتمام اعمالهم وهم يجوبون الشوارع على الاقدام ، وليس من حاجة بهم الى الآلات جميعها . اما اليوم فالناس يعيشون في دور يتسلقون درجها بالمصعد ، ولا يُعنّون نفوسهم في السير على الاقدام ، فهناك السيارات وحافلات الكهرباء . . . اننا بقضائنا على جُهد الجسم قد قضينا على ما كانت اجهزتنا في حاجة اليه لتحافظ على ثبات بيئتنا الداخلية . . . وقد غدا الجهد الطبيعي مقصوراً على بعض الزمان او بعض الايام .

« وكذلك بدّلنا استعمال وظائف الهضم فألوان الطعام الجشب : كيابس الخبز ، وجاسئ اللحم ، قد هجرها الناس وابطلوها ، ونسي الاطباء انفسهم ان الاسنان هي لما صَلُبَ وقسا ، وأنّ المعدة خلقت لتهضم ما تنتجه الطبيعة . وغذاء الاطفال بانواع الطعام اللين ، السهل ، كالحليب وما شاكله ، لا يتيح لاسنانهم واعصابهم ان تعمل كما يجب : وكذلك وجبات الطعام في نظامها ، وكثرة الوانها ، وتفاوتها ، قد أغفلت وظيفة كان لها شأن عظيم في بقاء السلالات البشرية الا وهي عادة الصبر على الجوع . وفي العصور الاولى كان الناس خاضعين للصوم شاؤوا أم أبوا . ولقد سنّت الاديان كلها شريعة الصوم ، وقالت بضرورته . ومفاعيل الصوم في الجسم لا ينكر اثرها فهو ينقي الانسجة ويحدث فيها تغيراً .

وعلى اضطراب الحياة ، ونشاط الرياضة الكاذب ، وسرعة المواصلات ، فان اجهزتنا المنتظمة العظيمة لا تزال في دَعَةٍ . وقصارى القول ان نوع الحياة الذي اوجدته المدنية العلمية ، قد ابطل محركات في الخلائق الناطقة طالما انبعث منها النشاط متواصلاً على مدى القرون المتطاولة . »

فاذا انتهى العالم من تبيانه لابطال جلّ الوظائف المتكيفة ، أخذ في بيان ضرورة نشاطها ، فأراك : « أن استعمال هذه الوظائف أمرٌ لا بدَّ منه لنماء الفرد نماء صالحاً . والانسان انما يبلغ كماله المنشود في تعرّضه لتقلبات الطبيعة كلها ، وتمرّسه بها ، واحتماله حرّها وبردها وصنوف اختلافاتها من شدّة ورخاء ، ونضاله المستمر معها . فان جسمنا متقلب في بيئة تختلف أحوالها . وكمال الانسان يتطلّب حتماً عمل الاعضاء بأجمعها ، وجهدها الدائم ... فسنَّة الجهد يجب ان تطاع . وانحلال الجسم والعقل جزية يدفعها أولئك الافراد الذين يتناسون ضرورة سنَّة الجُهد ، وكذلك تلك السُّلالات التي تتجاهلها .

« ومن نتائج الملاحظة الاولية أنّ تكاملنا الصالح الجيد يتطلب نشاط أعضائنا كلها . ولذلك نرى قيمة الانسان ناقصة اذا مالت الى النقص فيه اجهزة التكيف . ولا بد من عمل الاجهزة المتواصل في عهد التهذيب . والاعصاب لا فائدة لها سوى أنها تساعد على قوة الجسم وانسجامه . فعلينا ان ننشىء رجالاً عصريين لا ابطالاً للرياضة . وهؤلاء الرجال هم أحوج الى التوازن في عصبهم ، والى الذكاء ، والجَلَد على العناء ، والجرأة الادبية ، منهم الى قوة العصب . ولا يتم اكتساب هذه

المزايا إلا بالجهد والجهاد ، أعني بعمل الاعضاء كلها . . . وبعد فإنّ غاية المدنية ليست تقدم العلم والآلات ، بل تقدم الانسان . »



الفرد

حدثك المؤلف عن وظائف التكيُّف في الجسم وعن شأنها الخطير ، ولا بدع في ذلك فهي التي بها ينال الانسان كماله الطبيعي ، ويبلغ شأوه في وجوده ، وبها نملك قوة عجيبة نستطيع معها ان نوجه أنواع نشاطنا الجسمي والعقلي الى غاية مثلى وهي بناء الفرد وتجديده . وعلى ذلك فسيحدثك النطاسي عن الفرد اولاً ، ثم عن تجديده على نور العلم الساطع ، ووَضَح الاختبار الواسع . ولا بأس أن نُلِمّ قليلاً عند تحديدنا للفرد ، وتعريفنا لمزاياه ، باوضاعٍ فلسفيةٍ لا بدّ منها في الفصل والفرق . ولكنك واجد بعد ذلك لذةً عقليّةً لا تعدلها لذة الأدب والشعر والفن ومُطالعُ طرائف لا تتيسر مطالعتها والظفر بها الا في القليل النَّادر . وما الذّ لنا ، ونحن افراد من المجتمع الانساني ان نطالع عنّا ما نجهله منّا ، فيبرح الخفاء ، وينجلي السر ، وتتفتّح امامنا أبواب عالمٍ طالما اوصد في وجوهنا فلم نهتد الى ولوجه سبيلاً !

يبتدىء المؤلف فيعرف الفرد والكائن الانساني تعريفاً محكماً ، فيقول : « ان الكائن الانساني ليس له وجود في مكان من الطبيعة فلا نلاحظ الا الفرد ، وهو متمايز عن الكائن الانساني بأنه حقيقة ظاهرة

صريحة ، فهو الذي يعمل ، ويحب ، ويتألم ، ويجاهد ، ويموت . أما الكائن الانساني فهو فكرة افلاطونية يحيا في عقلنا و كتبنا ، ويتألف من مجردات يدرسها علماء الفسيولوجيا ، والنفس ، والاجتماع ، وسماته هي الكليّات . وها نحن أولاء من جديد أمام مسألة جدّ قديمة أثارت المناقشات الحادة في القرون المتوسطة ، وشغلت الفلاسفة في الحقب المترامية ، وتلك هي حقيقة الافكار الشاملة la réalité des idées générales وأظنك لا تجهل ذلك الجدل العنيف الذي كان بين أنسلموس وأبيلار ، وتلك المعركة التي لا نزال نسمع دويها من خلال ثمانية قرون وقد دُحِرَ فيها أبيلار . والحق يقال ان اولئك العلماء المجردين réalistes الذين يقولون بوجود الكليات ، واولئك الذين كانوا ينكرون عليهم وجودها لعلى حق جميعهم . فنحن بحاجة الى العام والخاص ، الى الكائن الانساني والفرد معاً . ذلك لأن حقيقة العام والكليات هي غاية في الضرورة لقيام العلم ، فعقلنا لا يأخذ مداه الآ في المجردات . والافكار هي في نظر العالم العصري ، كما هي عند أفلاطون ، الحقيقة القائمة الوحيدة . وهي هذه الحقيقة المجردة التي تولينا معرفة الواقع الصريح Le concrets . ويعود الفضل في مثول الفرد مثولاً بيناً وفهمه فهماً صحيحاً الى المجرّدات التي أوجدها علم الكائن الانساني . كذلك درس الاختبار للوقائع يهيء تطوّر الافكار والكليّات ، وهو لها مادة غنى لا تنقطع . ان ملاحظة جموع الافراد تنشىء علماً للكائن الانساني يتكامل يوماً فيوماً . فبدل ان تكون الافكار جامدة على حالها كما ارادها افلاطون تتحرك وتطرد

كابرة على حين يرشف عقلنا مرتوياً من معين الاختبار .

انا نحيا في عالمين مختلفين عالم الوقائع ، وعالم رموزها . ولا بدّ لنا حتى نعرف ذواتنا واشباهنا من سلوك طريق الملاحظة وطريق التجريد العلمي . ولقد يتفق لنا ان نخلط المجرد بالصريح ، ونجري مع الوقائع والرموز على حدٍ سوى ، فنخلط الفرد بالكائن الانساني ولا نفصل بينهما ومن هنا نشأ جلّ ضلال علماء التربية ، وعلماء الاجتماع ، والاطباء فاولئك العلماء الذين ألفوا مذاهب الميكانيك ، والكيمياء ، والطبيعيات ، والفسيولوجيا ، ولم يحيطوا علماً بالفلسفة والتهذيب ، هم معرّضون للمزج بين نظم شتى ، وعدم الفرق بين العام والخاص . فكان لزاماً علينا إذن في معرفة ذواتنا أن نعطي كلًّا من الكائن الانساني والفرد حقه . ولا صلة لنا بغير الفرد في التهذيب ، والطب والاجتماع . ومن البلاء الجسيم ان نأخذهما كليهما كرمزين او ككائنين انسانيين . فالفردية هي السمة الاساسيّة للانسان . ولا تقوم فقط في مظهر من مظاهر الجسم والعقل ولكنّها تتخلّل كياننا وتجعل منه حادثاً وحيداً في تاريخ العالم . فهي تظهر من جهة في المجموع المؤلف من الاعضاء والوجدان ، وتطبع من جهة ثانية أثرها في كل عنصر من عناصر هذا المجموع المؤلف وتظلّ غير متجزّئة . ولهذا كان من السهل علينا أن نأخذ على حدة اشكالها النّسيجيّة ، والأخلاطيّة ، والعقليّة . »

ثم يأخذ الكاتب في درس صفة الفرد في انسجته واخلاطه ، وتعفيني من التغلغل طبعاً مع العلامة المدقق في هذه الغامضات فلقد

يشق عليّ وعليك ، وعلى القرّاء في كثرتهم الغالبة مثل هذا الحديث ويثقل وان عظمت لذته لجهده عظيم . ويكفيك ان تعلم ان الافراد يتمايزون بسهولة بملامح وجوههم ، وحركاتهم ، ومشيتهم ، وخلائقهم العقلية والادبية . ومهما يحدث الزمان في مظاهرهم فلا يتنكرون ، بل تظل لشخوصهم بعض المعارف وفي استطاعة التحقيق ان يثبتها ويردها الى نصابها معتمداً على بعض اجزاء في الهيكل الانساني . . ان كل انسان تاريخ قائم بنفسه لا يشبه تاريخاً آخر في حال .

ويهمنا كثيراً ان نصل الى الفردية النفسية وملاحظات العالم كاريل فيها . ومن الممتع ان نتبسط في بحثه ولا نحرم نفوسنا لذة مطالعتها . وهذه طبقات المجتمع الانساني ، واجناسه ، وأنماطه تمر بك وتعرض عليك فدقق نظرك ، وانظر في اي مصافها انت ، وما ابدع المشهد واروع الحفل !

« ان الفردية النفسية تضاف الى الفردية النسيجية والاخلاطية وتتوقف عليها بمقدار ما يتعلق النشاط العقلي بمؤلفات الدماغ والوظائف العضوية الاخرى . وهي التي تهبنا سلامة وحدتنا وتجعلنا نكون نحن لا سوانا . فالتوأمان الاخوان اللذان استمدا حياتهما من اصل واحد يختلف كلاهما في الشخصية . . والناس يتمايزون بالعقل والمزاج اكثر مما يتمايزون بالوظائف الفسيولوجية . فكل فرد متمايز بتعدد انواع نشاطه النفسي ، وصفته وشدته . وليس من افراد عقلهم واحد . وفي الحق ان اولئك الذين يملكون وجداناً في بدء تكوينه

هم اقرب ما يكونون بينهم شبهاً . فكلما عظمت الشخصية عظمت كذلك الفوارق الفردية . ومن النادر جداً ان نرى ضروب النشاط في الوجدان بالغة كمالها في فرد واحد . فهي عند هؤلاء وأولئك مختلفة قوة وضعفاً . وليس الفرق عظيماً في عددها بل في صفتها ؛ وفوق هذا فان تمازجها بعضها ببعض لا يحد ولا يحصى . وليس اعسر من معرفة بنية فرد من الافراد . ولسنا نستطيع ان نضع مراتب للشخصية العقلية في الخلائق الناطقة لكثرة تعدد الخلائق وتنوعها ، ولكنه في وسعنا ان نقسمها بحسب سماتها العقلية ، والعاطفية ، و الادبية ، والفنية والدينية و كذلك بحسب تمازج طبائعها بينها ثم مع سماتها الفسيولوجية. وهناك ايضاً صلات بينة بين تمازج الاشكال النفسية والهيآت الظاهرة. فشكل الفرد يدل على بنيته النسيجيّة والمزيجية والعقلية . واننا لنجد بين اشد النماذج تبايناً جم الصلات . فمراتب التقسيم المستطاعة كثيرة ولكنها ضئيلة الجدوى .

« ولقد قسموا الافراد الى ذوي العقل ، وذوي الاحساس ، وذوي الارادة ، وفي كل من هذه الطوائف الثلاث : المترددون ، والمضادون ، والمقدمون ، والمخالطون ، والضعاف ، والمشتتون ، والمساورون القلقون ؛ وهناك المتنهبون ، والمالكون قوام نفوسهم ، والسليمون المتزنون . ونحن نجد كذلك بين رجال العمل العقلي فئات متمايزة ، فهناك العقول الراجحة الفياضة التي تسيغ كل ما تتناول من مختلف العناصر فتنظمه وتؤلفه . وهناك العقول المقصورة العاجزة عن

ادراك الشاملات ، النافذة الى صميم ما تجردت له . اننا لنتحقق وجود العقل المحقق المدقق اكثر من العقل القادر على الاحاطة بالشاملات . وهناك ايضاً فئتان فئة المناطقة ، وفئة الملهمين بالزكانة les Intuitifs والفئة الثانية هي التي تنشىء جل اعاظم الرجال . ومما يلاحظ ان هناك تمازجاً بين ذوي المواهب العقلية والعاطفية . فذوو المواهب العقلية حساسون ذوو هوى مقدمون ، وهم ايضاً جبناء ضعاف ، ويعوزُ فيهم الروحانيون كثيراً . وهـذا التعدد يبدو كذلك بين الفئات ذات النزعات الادبية ، والفنية ، والدينية . ومثل هذا التقسيم انما غايته ان نرى التنوع العجيب في النماذج الانسانية . ودرس الفردية النفسية اذا لم توضح معالمه وحدوده اصبح معيياً كدرس الكيمياء اذا تعدد عدد الاجسام البسيطة الى ما لا نهاية له .

« ان كل واحد منا يحس انه واحد مستقلٌ وما من شك في حقيقة هذه الوحدة . ولكن هناك تفاوتاً عظيماً في درجات الفردية . فبعض الافراد يملكون شخصية عظيمة الثروة والحزم ، وبعضهم ضعاف يتقلبون مـع البيئة والظروف . وللامراض اثر عظيم في الفرد ، فالمريض قد يمسي ذا شخصين متمايزين متباينين . وربما الح المرض واجهد فأبرز المريض في حالة منكرة لا يعرف معها بعد . والى جانب هذا التضاعف والتمدد في الفرد يقوم الانحلال الجزئي كما قد يحدث لاولئك الوسطاء في التنويم المغناطيسي .

والى الآن لا نزال قاصرين عن معرفة الفردية النفسية ، واحصائها ،

وسبر عناصرها ، وتحديد ماهيتها ، وعما يختلف به الفرد عن الفرد .
ولسنا بقادرين على اكتشاف الطباع الجوهرية في فرد محدود وبالاولى كثيراً على اكتشاف مستكنات مقدرته . ومن الواجب ان يأخذ كل فرد مكانه من المجتمع على حسب مؤهلاته ، وضروب نشاطه الجسمية والعقلية ، ولكنه عاجز اذ هو يجهل ما هو . ويتقسم هذا الجهل الاهلون والمربون . فهم لا يعرفون كيف يميزون في الاولاد طبيعة شخصيتهم ، بل تراهم يجهدون في اخذهم ونظمهم على السواء . ورجال الشؤون لا يستخدمون مواهب موظفيهم ، وهم يجهلون ان الناس يختلفون فيما بينهم . وفي الغالب نحن مقيمون على جهل لمؤهلاتنا الخاصة . وليس في استطاعة كل فرد ان يقوم بكل عمل فلذلك كان من السهل على كل فرد ان ينصرف الى عمل ونوع من الحياة يؤثرها بطبيعته . بل ان نجاحه وسعادته هما في الملاءمة بينه وبين بيئته . وعلى الاهل والمربين ان يوجهوا اهتمامهم قبل كل شيء الى معرفة صفات الطفل الراهنة ومقدرته الكامنة في أطوائه ، وان لا يركنوا الى معرفة النفس العلمية ، فليس بوسعها ان تساعفهم في مهمتهم الشاقة ...

« ان علم النفس لا نستطيع حتى الان ان ندعوه علماً ، والى هذه الساعة ليس في مقدورنا ان نسبر غور الشخصية وكوامن القوة فيها . بيد ان ذا النظر الثاقب ، الذكي ، الذي يعرف الناس حق المعرفة يستطيع ان يكتشف احياناً مستقبل الفرد في خلائقه الحاضرة . »

وما اصدق قول المرحوم شوقي وادناه من قول المؤلف حين يصف

الطلّاب وحقائبهم بأيديهم كانما هم يحملون مستقبلهم في اطوائها :

وتلك الاواعي بأيمانهم　　حقائبُ فيها الغدُ المختبي
ففيها الذي إن يقم لا يُعَدّ　　من الناس، اويمض لا يحسب
وفيها اللواء وفيها المنار　　وفيها التبيع وفيها النبي
وفيها المؤخر خلف الزحام　　وفيها المقدّم في الموكب!

وتحضرني كلمة لپاسكال قرأتها وهي مما نحن منه على سبيل يصف فيها قوة العقل الانساني وقوة ضعفه ويريكه في منتهى العظمة ثم في منتهى الوهن فيقول : « ان عقل اعظم انسان ليس بمستقل استقلالاً كاملاً بحيث لا يستهدف للاضطراب عند ادنى ضجة فلا ينبغي له قصف مدفع حتى يقطع عليه تفكيره ، فحركة كحركة البكرة كافية . ولا تعجب ان نظرت فرايته لا يقوى على التفكير في هذه الساعة ، فلقد توالى على اذنيه طنين ذبابة وكان كافياً لان يحرمه صفاء التفكير ، فاذا شئت ان يجد الحقيقة فاطرد تلك الذُبابة التي تغلبت على لبه واحدثت اضطراباً في هذا العقل الجبار الذي يسوس المدائن والممالك ! »

ويبحث المؤلف بعد هذا في قوام المرضى وفي الطب فيقول : « على الطب ان يأخذ بعين الجد طبيعة الانسان ووحدته ، فغاية الطب التي كان من اجلها هي تخفيف الآلام وشفاء الانسان فعليه ان يلجأ الى العقل والى اساليب العلم معاً . ويجب ان يكون الطبيب راهن الحكم صبوراً ، ثبتاً ، دائب السعي والنشاط . اما مهمته فهي مختلفة عن مهمة العلماء جد الاختلاف ، فهؤلاء في وسعهم ان يبقوا في عالم النظريات

ولكن الاطباء هم امام حقيقة صريحة ونظريات علمية في الوقت نفسه . وعليهم ان يدركوا الاشياء العملية والنظرية في آن واحد وان يسبروا غور الاعضاء وغور الوجدان ، ويدخلوا مع كل فرد الى عالم مختلف . ونجاحهم موقوف لا على علمهم فحسب بل على مهارتهم في معرفة طباع ما يجعل من كل كائن انساني فرداً .

وندع الاسهاب لمن يؤثره في اصل الفردية وشأن الوراثة فيها ، لنجيء الى تأثير التكامل والتهذيب في بلوغها لكمالها . اما العوامل التي تؤثر في الفرد منذ نشأته ، وترافقه مدى حياته ، وتعين الانسان على تقدمه وتكامله كلما علت به السن ، او على وقفه وعاقته في طريقه الصاعدة ، فهي ثلاثة : كيميائية ، وفسيولوجية ، ونفسية . وإليك ما يقول المؤلف : « لا نستطيع ان نميز عادة في الفرد ما هو موروث فيه وما هو اكتسابي الا ان بعض الخصائص الوراثية بينة : كلون العينين ، والشعر ، والحَسَر ، وضعف العقل . غير ان سائرها ناتج عن اثر البيئة في الانسجة والوجدان . ولنوع حياة المرء والتهذيب الذي يتلقاه ، والبيئة الاجتماعية تأثير فعال في تحويل اثر الوراثة . »

وندع العوامل الكيميائية والفسيولوجية فهي من شأن العلماء والاطباء ، لنخلص الى العوامل النفسية التي تعني الناس جميعاً ، واثرها اعظم كما يقول كاريل من اثر العوامل الطبيعية فهي التي تنشىء مثال حياتنا العقلي والادبي ، ونظام نفوسنا او توزعها وملاكها ، او تركها وشأنها . فان تلك العوامل تغير ضروب النشاط وبنية الجسم بما تحدث

من التغيرات الدورية والغُددية . فلرياضة العقل وامتلاك الشهوة اثر معلوم ليس في القوام النفسي وحده في الفرد ولكن في بناء انسجته واخلاطه . ولسنا نعلم مدى ما تبلغ اليه آثار البيئة العقلية في تقوية نزعات الجدود فينا او خنقها . غير ان ما نعلمه هو انها ذات شأن عظيم في مصير الفرد . ولقد تبطل في بعض الاحايين اعظم المزايا الروحية ، وتبلغ بافراد الى حد لم يكن منتظراً ، فتسعف الضعيف ، وتزيد القوي قوة فوق قوة . فبونابرت الفتى كان يطالع مؤلفات بلوتارك ، ويجهد جهده في ان يترسم رجال العصور الغابرة في حياتهم . . ومهما تكن نزعات الفرد الموروثة عن الجدود فانه مدفوع بشروط نموه وتكامله الى ان يسلك الطريق التي تبلغه اما الى ذرى القمم المتفردة العالية ، او الى سفوح الروابي ، او تنحدر به الى مرتطم الحماة حيث تنعم الانسانية هانئة . وعلى الجملة فان مدى تأثير البيئة في الفرد لا يعلم منتهاه . »

والفرد في بيئته وحياته ، هو كما تعلم محدودٌ في الزمان والمكان ولذلك نرى المؤلف يتناوله في المكان والزمان فيبحث فيه بحثاً علمياً ويرى اثره في ضيقه واتساعه وما لبعض الافراد من عظيم الاثر في بيئتهم التي يعيشون فيها ، ثم في آفاق واسعة وعالم مترام ولا خفاء ، فان الرجل العظيم هو ملك الانسانية جمعاء ، وابنها الخاص ، وليس هو ملك امة واحدة وابن شعب من الشعوب : فهوميروس ، وارسطو ، وراسين ، وپاستور ، وشكسبير ، واديسون ، وماركوني وشمس

المدارس القديس توما الاكويني وامثالهم من العظماء الخالدين ، هم خالدون عند الانسانية بأسرها فوق خلودهم عند امهم ، وآثارهم ومبتكراتهم هي للانسانية كلها تراث نفيس ، ومعين سلسال يرتوي منه على الزمان الجيل بعد الجيل ، وكوكب هادي يضيء البصائر والابصار وما اصدق قول المرحوم شوقي:

لقد زيّن الارض بالعبقريّ محلّي السّماوات بالكوكبِ

وما اجمل قول المؤلف في حدود الانسان المكانية حين يتناول النابهين النابغين : « ان قادة الشعوب ، واكبر المحسنين الى الانسانية والقديسين هم جبابرة يبسطون ايديهم العظيمة على بلد من البُلدان ، وصعيد من الارض ، وعلى العالم قاطبة . فان بيننا وبين بيئتنا لصلاتٍ وثيقة . وكل فرد له مكانة في الفئة التي ينتمي اليها ، وهذه المكانة في عينيه اجل خطراً من حياته نفسها . فاذا حرمها كأنْ يصيبه الدهر في ماله او بالمرض اوباضطهادات خصومه فقد يحدث ان يؤثر الانتحار على حرمانهومن الواضح ان الفرد يتجاوز حدوده الجسمية من كل جانب ».

« بيد ان الانسان وان كان محصوراً مقيّداً بجسمه فهو طليق بعقله ونفسه فتراه يقطع الابعاد الشاسعة وليس عليه بُعدٌ فيجتاز البحار ويجوب البلاد في زمان يسير لا يؤبه له . وينتقل الفكر من فضاء الى فضاء بسرعة موجات الكهرباء . . . ولبعض الرجال قوة يسيطرون بها على الآخرين فيحفزونهم ويقنعهم منهم تافه الكلام فيدفعون بهم الى ميادين الحرب ، والتضحية ، والى الموت . فقيصر ونابوليون وعظماء

قادة الشعوب جميعاً يكبرون حتى ليحسبهم الناظر فوق الطبيعة الانسانية ، يملكون بارادتهم وخواطرهم الجماهير الغفيرة . ان بين اشياء الطبيعة وبين افراد معدودين لصلات دقيقة غامضة حتى ليخيل اليك أنهم يرتفعون سامين أبداً فيدركون الحقيقة التي ينشدونها ، وكبار الملهمين في العلم والفن والدين في استطاعتهم دوماً ان يدركوا حق الادراك سنن الطبيعة ، والتجريدات العلميّة ، والقضايا الفلسفيّة ، والجمال الاعلى والخالق . »

اما حدود الفرد في الزمان ، وصلات الجسم والوجدان بالماضي والمستقبل فحسبنا ان نقف عند أهمها موقف المتردد غير المؤكد ولاسيما فيما يخص مناجاة الارواح . ولقد كتب فيها الذين يقولون بها ويؤيدونها الفصول الوافية بل الكتب ، وقاموا يوهمون ايهاماً ويخترعون اختراعاً . وهي لا تزال الى يومنا هذا في حاجة الى برهان لامع قاطع على وجودها وثبوتها وليس في وسعها ذلك . فأشياع المناجاة يريدون التضليل والتدجيل ، ولا يغرون الا السذج . والعلم لم يقل كلمته الفاصلة ، فليس هناك ما يؤيد اهل هذا المذهب . والكنيسة المقدسة عمود الحق وقاعدته تنبذ المناجاة نبذاً مطلقاً وتنكرها معتمدة على الفلسفة الراهنة والعقل الحصيف النير ، وتعتقد اعتقاداً راسخاً ان ليس من صلة بين ارواح من ماتوا ، وبين ذاك المشعوذ ! فليأتنا أشياعها اذن بالدليل المقنع حتى نرى ونؤمن . انهم لعاجزون ، وانا لمنتظرون !

واليك ما يقول المؤلف : « ان الفرد يجاوز حدوده في الزمان كما يجاوزها في المكان . فحدوده الزمانية كحدوده المكانية ليست بواضحة ولا ثابتة . ونحن مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالماضي وبالمستقبل ، ولو ان شخصيّتنا لا تتغلغل فيهما . وهذه الشخصيّة تولد يوم نوجد ونحن مديونون بها لوالدينا فمنهم نستمدها ، ومرتبطون بالماضي الذي يرتبط به آباؤنا . ولا جرم ان صفاتنا متولدة عن صفاتهم . فالقوّة والبأس في الناس متحدران عن الاصل كما يكون في جياد السبق . فيجب ألّا نفكر في إبطال التاريخ ، بل علينا ان نستخدم معرفتنا للزمان الماضي في اعداد المستقبل وتوجيهه . ومعلوم ان الاخلاق التي يكتسبها الفرد في حياته لا ينقلها الى ذراريه ، ولكنّ بذرة الحياة تتغير أحياناً من جراء تأثير البيئة الداخليّة ، فيطرأ عليها التغير من جراء الامراض والسموم والغذاء . . . فداء الزهرة في الآباء يمكن ان يكون السبب لتشويش كثير بليغ في الجسم والوجدان . ولهذا كثيراً ما ينسل العبقريون أفراداً منحطين ضعافاً ينقصهم التوازن . و كذلك مدمنو الشرب ، والمورفين ، والكوكايين يلدون مُعَوَّهين يكفرون في حياتهم عن رذائل والديهم . حقاً ان من السهل على المرء ان ينقل الى اعقابه عواقب ذنوبه ، ومن الصعب عليه جداً ان يشركهم بمزاياه ، فمزايا المرء التي يكتسبها في حياته كلها لا يتم انتقالها مباشرة ، ولسنا نستطيع ان نمتد متمادين في الزمان الآتي بغير أعمالنا .

« فكل فرد يطبع اثره في بيئته ، واسرته ، واصدقائه ، ويحيا كائنا

هو محفوف من نفسه بنفسه. ويعود الفضل في مورث ابنائه لاخلاقه الى ما انشأ واوجد. فالطفل يلزم اهله زماناً مديداً، وعنده متسع من الوقت ليتلقى منهم ما في استطاعتهم ان يلقنوه. واذ انه يملك ملكة المحاكاة فتراه نزاعاً الى التشبه بهم. فيأخذ عنهم لا بسأ وجههم الصحيح، لا ذلك الوجه المستعار الذي يلبسونه في حياتهم الاجتماعية العامة. وهو يشعر لهم، في العادة، ببعض الامتهان والازدراء، بيد انه يتلقى منهم بالقبول: جهلهم، وابتذالهم، واثرتهم، وجبانتهم. غير ان بعض الافراد يتركون لاعقابهم مورثاً كريماً: ذكاءهم، وكرمهم، وطيب اخلاقهم، وبصرهم بالفن، ومروءتهم. ويتوالون على الزمان بجلائل اعمالهم الفنية واكتشافاتهم العلمية، ومنشآتهم السياسية، ومؤسساتهم الاقتصادية والاجتماعية، او بما هو دون ذلك بالمزرعة التي اوجدوها وتمهدوها، والحقول التي عمروها بايديهم. ولقد قامت حضارتنا بأمثال هؤلاء الرجال.

« اما تأثير الفرد في المستقبل فلا يعادل تمديد ذاته في الزمان. ولكنه يدوم باعقابه او بمنشآته الاثرية، والعلمية، والفلسفية الباقية. وفي استطاعة شخصيتنا ان تمتد الى ما هو ابعد من مدى وجودنا المادي. » وهنا يتكلم المؤلف عن تأثير المكاشفين بالغيب وتأثير وجدانهم في الزمان والمكان، ولقد مرّ بك شيء من هذا فيما تقدم من مباحث الكتاب فنجتزئ به.

ولا بأس ان تعرف رأي المؤلف في مناجاة الارواح، لترى رأي

اهلها ، فان المتجردين لمناجاة الارواح كما يقول الكاتب يعللون مظاهر التنبؤ عن المستقبل كبرهانٍ على بقاء الوجدان بعد الموت . ويعتقد الوسيط ان روح المتوفى حالَّةٌ فيه . فيكشف احياناً لمن يودون اختباره تفاصيل لا يعلمها الا الميت وحده . يتأكد لهم صدقها فيما بعد . اما العالم برواد Broad فيقول : إن في استطاعتنا ان نعلل هذه الحوادث بأنها تدل لا على بقاء الروح بعد الموت بل على وجود فاعل نفسي في مقدوره ان يلابس بنية الوسيط الى حين . وهذا الفاعل النفسي حين يمترج متحداً بكائن حي يؤلف نوعاً من الوجدان مشتركا بين الوسيط والمتوفى . اما وجود هذا الضرب من الوجدان فوقتي زائل ، وهو ينحلُّ شيئاً فشيئاً ويزول بأجمعه متلاشياً . ونتائج اختبارات علماء المناجاة ذات شأن خطير . لكن تعليلهم لها مشكوك في قيمته . فنحن نعرف ان عقل المكاشف بالغيب قادر على ادراك الماضي والمستقبل على السواء فليس عليه سرّ . والواقع انه من المحال حتى الآن التمييز بين بقاء مبدأ نفسي وبين مظهر المكاشفة بالواسطة . »

ولا بد للعلَّامة النقادة في آخر كل بحث من بحوثه الشائقة ان يتناول المجتمع الحاضر بالنقد النزيه المحكم ، فيرى آفاته الكثيرة ، وينتقدها منبهاً مفنداً . وهو كما عرفته جري، همه كله ان يجاهر بالحقيقة وان يحببها الى الناس وان جرحت وآلمت ففي جرحها الشفاء . وهو هنا في كلامه عن الفرد يرى حالة الفرد في تهذيبه ، فيمرّ بآفات التهذيب الكثيرة وينتقل من المدرسة الى البيت فيتناول الام التي هي ركن

العيال وقوام البيت ، واستاذ الانسانية الاكبر ، بلاذع النقد في حياتها الحديثة ، وخيانتها ، واغفال واجبها الاعظم ألا وهو تهذيب الطفل الصغير . فهي المدرسة الاولى التي لا غنى عنها لكل فرد من افراد الانسانية ومن حُرِمها فقد حرم اعظم الاشياء في دنياه وربما النبوغ ! ومن يجهل منزلة الام من المجتمع ، وشأنها الخطير فيه ؟ وكلمة نابوليون فيها معروفة : « إن الام التي تهز السرير بيمينها تهز الدنيا بشمالها ! » فما إعظمها واسمى مقامها ! انها علة التقدم والكمال والنبوغ كما انها علة الافساد ، والانحطاط ، والموت ! وما اصدق قول المرحوم شاعر النيل حافظ :

مَن لي بتربيةِ النساء فانها　　في الشرقِ علّة ذلك الاخفاقِ
الأمّ مدرسةٌ اذا اعددتَها　　أعددتَ شعباً طيب الاعراقِ
الأمّ استاذ الاساتذة الأُلى　　شغلت مآثرهم مدى الافاقِ

وكذلك قول شاعر الاقطار العربية مطران يصف جليل اثر الام في الخلق والتربية :

وكذا الفتاةُ اذا اضلّت ساعة　　مرآتها نظرت بعينَي أمها !

ولا ازيدك من هذه الحِكَم البالغة ، فلقد نُسهب ونخرج عن دائرة موضوعنا . واليك ما يقول المؤلف : « ان المجتمع الحاضر يجهل الفرد ، ولا يحفل الا بالكائنات الانسانية ، فهو يعتقد بحقيقة الكليات les Universeaux ويعاملنا كأننا نحن اشياء مجردة . فلقد خلط معنى الفرد بالكائن الانساني فأنساق الى هذا الضلال المبين بأن جعل الناس كلهم

سوآء. ولو كانوا كذلك للزم ان يربوا ويعيشوا، ويساقوا الى العمل كقطعان السائمة. ولكن لكل فرد منهم شخصية متمايزة فليس بقابل ان يعامل كرمز لا وجود له. وجل كبار الرجال قد تهذبوا على انفراد تقريباً وابوا ان يسبكوا في قالب المدرسة. وفي الحق ان المدرسة في غاية الضرورة للدراسات الفنيّة. وهي التي تشبع حاجة الطفل اذ تتيح له الامتزاج بامثاله؛ الا ان التهذيب يجب ان يسير على طريقة منظمة مطردة من واجب الأهل ان يسلكوها بأبنائهم، فالأهل ولا سيما الام، هم الذين يلاحظون الخصائص الجسمية والعقلية التي يتوقف التهذيب على توجيهها. ولقد جنى المجتمع الحاضر ذنباً جسيماً، ذلك ان اناب المدرسة عن البيت ومدرسته منذ نشأة الطفل وطراءة سنه، وكان هذا من جرآء خيانة الامهات.

« فالامهات اليوم يُلقون بأطفالهن بين ايدي الخدم، ويجرين وراء المناصب والمآدب ويستسلمنَ الى الملاهي والملذات على اختلافها، والى شتى المتع الادبية والفنية، او الى ما هو دون ذلك كثيراً الى اللعب بالورق، والذهاب الى دور السينما، وتزجية الوقت في شبه لا شيء. وهكذا تفككت روابط الاسرة، حيث كان الصغير ينشأ ويتعلم كثيراً في صحبة الكبار. والفرق بالغ بين اولئك الاحداث الذين ينشأون كابرين على عيون اهلهم، وفي اكناف عطفهم، وبين اولئك الذين ينشأون محرومين صحبة الاهل وعطفهم، متشردين بين طوائف الاحداث. ولا يخفى ان الصبي ينظِّم نشاطه الجسدي،

والعاطفي ، والعقلي على نشاط بيئته . فاذا حُكِمَ عليه ان يكون في المدرسة وحده نشأ نشأة غير صالحة . فالفرد يتطلب العزلة النسبيَّة ، ورعاية الاهل ، وعنايتهم ، حتى يتم له النجاح .

« والجناية الاخرى او الضلال الآخر الناجم عن مزج الكائن الانساني بالفرد هو هذه المساواة الديموقراطية . ولقد بدأت هذه العقيدة تنخلُ شيئاً فشيئاً حين توالى عليها ضرب اختبارات الشعوب الأليم دراكاً . فنحن بغنىً إذن عن تبيان غلطها وتفنيده . والامر العجيب حقاً ان يدوم نجاحها أحقاباً . فكيف اعتقدتها الانسانية طويلاً؟ انها لا تأخذ بعين الاعتبار بنية الجسم والوجدان ، ولا تطابق الواقع الصريح الذي هو الفرد . فالكائنات الانسانية متساوية ، اما الافراد فليس بينهم مساواة . ومساواة الحقوق بينهم وَهْمٌ من الاوهام . فالفرد البليد الخامد الذكاء العاجز لا حق له بالتهذيب العالي . ومن المحال ان يعطى الحق في الانتخاب كما يعطى الفرد النابه الكامل . فلا مساواة بين الاجناس ، ومن المضر جداً ان نجهل هذه الفوارق . ان المبدأ الديموقراطي قد ساعد على انحطاط الحضارة حين مَنَعَ النُّخبة من بلوغ كمالها . ولا حاجة بنا ان نقول إن الفوارق بين الافراد يجب ان تكون مصونةً محترمةَ الجانب . فان في المجتمع الحديث وظائف شتى تلائم الكبار ، والصغار ، والاوساط ، والعامة ، فوجب من ثم ان لا نعطي اهل الطبقة العالية والطبقة المتوسطة تهذيباً واحداً في وسائله . ولقد اقرَّ توحيد الكائنات الانسانية على المثال الديموقراطي الاعلى السِّيادة

للضعاف فغدوا يؤثرون على الاشداء في المراكز جميعها فتراهم مُسانَدين مكنوفين وفي الغالب موضع الاعجاب . وكذلك الاعلاء والمجرمون والمجانين هم الذين يستثيرون رضى الجمهور وينالون عطفه . اما الجاني في انحطاط الفرد ، وله فيه قسط كبير ، فهو خرافة الاعتقاد بالمساواة وحب الرموز وازدراء الواقع الصريح الواضح . ولما كان رفع المنحطين الى المستوى الاعلى من المحال ، كانت الوسيلة الوحيدة لمساواتهم الهبوط بهم جميعاً الى الدَّرك الاسفل ، وهكذا زالت قوة الشخصية .

« ولم يقف الحد عند خلط فكرة الفرد بفكرة الكائن الانساني بل كان ان هذه الاخيرة أفسدت بعناصر غريبة تسللت اليها ، وحرمت بعض عناصرها الخاصة . ولقد وهبناها كذلك ما هو خاص بالعالم الميكانيكي . وجهلنا الفكر ، والالم الادبي ، والتضحية ، والجمال ، والسلام . وعاملنا الانسان كمادة كيميائية ، او كآلة او كجهاز آلة ، وجردناه من نشاطه الادبي ، والفني ، والديني ، ومن بعض وجوه نشاطه الجسدي . ولم نسأل نفوسنا كيف تكون حالة الانسجة والوجدان في تغير غذائها ونوع حياتها . واهملنا اهمالاً تاماً العمل الرئيسيّ عمل الوظائف المتكيفة ، ووخامة العواقب في احالتها الى الراحة . ولذلك فان ضعفنا الحاضر ناجم عن جهلنا للفردية وتركيب الكائن الانساني على السواء . »

وصف المؤلف حياة الامهات في الغرب بلهجته الصريحة القاسية وهي على رأيه حياة لهو واغفال ، ونسيان الواجب الاول والاعظم ، ألا

وهو تربية الطفل ، وانشاء رجل المستقبل . وحمل الكاتب على هذه الناحية من حياة المرأة في الغرب ناحية الملاهي على اختلاف ضروبها . وفي الغرب مجال فسيح على الحقيقة ، لفنونها وانواعها ، وفيه كذلك مجال واسع وميدان مترامي الانحاء للجد والدأب . واذا كانت المرأة الغربية في بعض فتراتها وآنائها لاهية عابثة ، فانها في سائرها لمجدة دؤوب تملأ الخافقين مآتيها ومآثرها ، في كل علم وفن . وهذه السيدة كوري Madame Curie المخترعة الكبيرة مضرب المثل في الجد والنبوغ . وسواها كثيرات لا يأخذهن الاحصاء أنشأن لنفوسهن مجداً خالداً وكتبن صحائف لامعة في تاريخ الانسانية الباقي . وليت المرأة الشرقية كاختها الغربية في حياتها : في التربية ، والثقافة ، والدأب المجدي اذن لرأيت الشرق على غير هذه الحال التي نراها اليوم !

اما النساء عندنا في عصرنا فطائفتان مختلفتان في النشأة والتهذيب بل في الحياة بأجمعها : طائفة المتعلمات الراقيات تسكن المدن ، وتقيم في اعظم البيآت حضارة ، وهنّ متصلات بأسباب مدنية الغرب ، يقلد اكثرهن المرأة الغربية ، ولكن في حريتها ، ولهوها ، وزينتها ، ويدعن جدها ونشاطها ، وحبها للواجب ، وتضحيتها العظيمة في سبيله . فهمّ هذه الطائفة في انشاء أبهاء الحديث ، والاجتماعات ، والسهرات ، والتوفر على انواع الزينة ! وطائفة اخرى هي طائفة الأمّيات الجاهلات ، وماذا تبتغي من أم جاهلة ؟ ما اصدق قول المرحوم شوقي فيهن :

هل بينهنّ جوامداً　　فرقٌ وبين المومياتِ

فكم من مواهب بين ايديهنّ عظيمة هي في صورة المدفونة؟ وكم من كنوز نفيسة؟! ان درّ الام الجاهلة لدرّ جهلٍ، وأفاويقها لافاويق الخمول! وكلما في الشرق نلمس هذه الحاجة المُلِحّة لمساً. ومجتمعنا أحوج ما يكون اليوم الى الام المهذّبة، الامينة، العاملة فهي حقاً ركن المجتمع، وينبوع النبوغ؛ فلولاها لما تجلّت بطولة، ولا لمعت عبقرية، ولا كانت الباهرات الخالدات! ولما قامت الاوطان وكان حبها من الايمان! وتلك الام السبرطيّة لا تزال كلمتها: حين قدّمت الدرع لابنها وهو ذاهب الى الحرب «عد عليها او فيها» ترن في مسامع الاجيال. ولا أطيل فحاجتنا العظيمة في الشرق الى الام المتعلّمة، الراقية، المؤثرة الواجب، العالية الخلق، المحبة البذل والتضحية، المربّية في نفوس الصغار الهمم والشَّمَم، السائرة في الحياة الى المثل الأعلى. أعطني أماً كهذه في الشرق، وخذ أمةً حرّةً عظيمة!

أما الجناية الاخرى، كما يقول المؤلف، فهي المساواة الديموقراطيّة، ولقد بدأت هذه العقيدة تنحلّ شيئاً فشيئاً حين توالى عليها ضرب اختبارات الشعوب الاليم دراكاً. وكذلك قوله: أما الافراد فليس بينهم مساواة، ومساواة الحقوق بينهم وهمٌ من الاوهام. والى هنا أردت ان ابلغ الى هذه المساواة التي هي في الحقّ وهمٌ من الاوهام، وعلى ذلك فنحن نرى دولاً عظيمة تريد ان تؤيد الوهم، وتتخذه حقيقة، وهذه روسيا الحمراء أبت ان تذعن لسنن الطبيعة فأزالت الفردية وحقوقها، ومشت معاول الهدم فيها توضع في الدمار، فتفككت روابط

الاسرة ، وزال الايمان فذهب بذهابه الصدق ، والحق ، وسائر المزايا الانسانية العالية . وهذا كاتب من اكبر كتاب الفرنسيين واعظم انصار الفكرة الروسية واشدهم تأييداً لها وهو (أندريه جيد) حين رأى الحقيقة أنكر النظام الروسي وكتابه « عودة من روسيا » يريك اخفاق آماله !

ونعود بعد هذه الخواطر الى علّامتنا لنرى كيف يختم بحثه بعد ان طال، بالنتيجة العملية في معرفة ذواتنا فيقول : « ان الرجل الحديث هو نتيجة بيئته ، وهو نتيجة عوائد الحياة والتفكير التي فرضها عليه مجتمعه . وقد رأينا كيف تلابس هذه العوائد جسمنا ووجداننا . ونحن نعرف الان انه من المحال علينا ان نجاري بيئتنا التي انشأها حولنا علم الفنون دون ان نميل الى الانحطاط ؛ وليس تبعة حالتنا على العلم ، بل علينا ، فنحن وحدنا المجرمون اذ لم نعرف ان نميز المباح من المحظور ، فخالفنا سنن الطبيعة ، وارتكبنا الهفوة العظيمة المرتب عليها ابداً العقاب . لقد انهارت عقائد العلم والادبيات الصناعية امامَ حقيقةِ علم الحياة . واجابت الحياة اولئك الذين سألوها عما هو محرم عليها الجوابَ نفسَه . فلقد تضعف فتنهار الحضارات . وعلوم المادّة الجامدة قد انتهت بنا الى بلاد غير بلادنا . وقد قبلنا من غير ما نظر جميع ما قدّمت الينا . فأمسى الفرد ضيّق النظرة ، اختصاصياً، اباحياً ، فدماً ، عاجزاً عن قيادة نفسه وادارة منشآته . وكشفت لنا علوم الحياة في الوقت نفسهِ عن اجلّ الاسرار فأبدت نواميس تكامل الجسم والوجدان . فمعرفتها اذن هي

التي تهبنا وسيلة التجدّد . وما دامت الصفات الموروثة عن السلالة مصونةً في استطاعة قوة الأجداد وجرأتهم ان تنبعثا عند رجال العصر الحديث . فهل هم قادرون على ان يريدوا ذلك ؟

٨

تجديد الانسان

مَثلَ الانسان اذن في أبدع مجالي عقله ، وجسمه ، وضروب نشاطه كلها ، وبدا لك باعظم مزاياه التي يسيطر بها في عالم الطبيعة فتجلّى في مجده وعظمته حتى كدت تقول مع قدماء اليونان انه شبه اله ؛ ومع النبي داود : « نقصته عن الملائكة قليلاً و كللته بالمجد والكرامة ، سلطته على اعمال يديك واخضعت كل شيء تحت قدميه » ثم ما عتّمت كثيراً حتى رأيت ذلك الجبار المتسلّط يتدلى من أوْجهِ ويتضاءل فتنحلُ عنه شيئاً فشيئاً تلك الهالة الساطعة . وتتبعه بصرك فتراه كائناً من اضعف الخلائق شأناً واوهاها صدراً وا كثرها عاهاتٍ وآفاتٍ واسرعها انحلالاً وزوالاً فتأسى حقاً وتاخذك الحيرة في امره : هل يظلّ سيد الكائنات على حاله في شأنه وذراريّه منحدراً وهو المبتدع الذي حوّلَ وجه الارض تحويلاً فكاد يخلقها خلقاً جديداً وقف عاجزاً امام عالمه الخاصِ لايجرؤ على قلبه وتجديده ؟ لـكن الانسان وقد وهبه خالقه نفحة من نفحاتهِ السامية الخالقة لن يعيا ولن يتراجع كلالا فهو محاول ابداً ، دائبٌ على فهم عالمه وتجديده بكل ما تصل اليه يده ؟

ولهذا كان من المنطق المحكم ان يحدّثك المؤلف عن تجديد

الانسان وعن وسائل هذا التجديد ، وعَتاده ، واستطاعته . فكم من طُرَف وكم من نفائس سيجلوها عليك العالم في هذا الفصل الاخير من كتابه . وسأحاول جهدي أن أبسطها لديك لتلقي عليها نظرك متملّياً فلقد انتهينا من المطاف في آثار متحف الإنسان ورأيت فيه ولا شكّ مفاخرَ تفوق بدائع اللّوفر وروائع الآثار المصرية .

لقد يحار الناظر الى ما في هذا العصر من العجائب ، وقد زادت كثيرا على عجائب الدنيا السبع ، حين يسمع وينظر ان الانسان المبتدع سائر في طريق انحلاله ، غير ان المفكّر لا يدهش عندما يقرأ آراء العلماء في انسان اليوم وهو يشاهد العبر البالغة ، ويعرف ان هذه الحضارة مادية لاتشبع رغائب النفس والعقل في الخلائق الناطقة ، وان بهرت الحواس ، ورانت على المشاعر ! وقد سبق المؤلف فأراك هذه الحقيقة على نور العلم والاختبار فهلمّ نرى معه التجديد ووسائله بعد اذ تحققنا عجز الانسان عن الصعود ابداً في طريق الكمال الانساني ، فهل يستطيع العلم ذلك ؟

وهذا رأي المؤلّف : « ان العلم الذي حوّل العالم المادي هو الذي يهبنا القوّة على تحويل ذواتنا . فلقد جلّى لنا سرّ آلات حياتنا ، وارانا كيف نستخدم في الظاهر نشاطها ، وكيف نأخذ مثال الصورة التي نستحيها . لقد غدت الانسانية بفضل معرفة نفسها ربة غايتها لاول مرة منذ ابتداء تاريخها . فهل يا ترى تقوى على استخدام قوة العالم غير المحدودة في سبيل خيرها ؟ انها ، لِتكبُرَ من جديد ، ترى نفسها مضطرة

الى التجدد ولا تستطيعه بغير ألم ، فهي حقاً الرخام وهي المثال معاً ، وضربات مطرقتها الاليمة يجب ان تتوالى دراكا على جوهرها عينه وتنثر قطعه متطايرة حتى تأخذ وجهها الصحيح . وهي لن تستطيع الصبر على هذه الحياة الاليمة ان لم ترغمها الضرورة عليها ، ولا ترى هذه الضرورة بين افانين الرفاهية والجمال وعجائب الميكانيك ولا تشعر بانحلالها ؛ فلماذا اذن تدأب جاهدةً لتبدِل نوع كيانها . وحياتها ، وفكرها ؟

« لقد حدثت حادثة لم يتوقعها أرباب الهندسة ، والاقتصاد ، والسياسة تلك أن بناء الولايات المتحدة المالي والاقتصادي قد انقضَّ ساقطاً ، فلم يصدق الجمهور عند اول وهلة حقيقة هذه النازلة العظيمة ، ولم يتزعزع ايمانه ، واصغى مصيخاً الى اقوال رجال الاقتصاد ، ولبث ينتظر عودة الرخاء فلم يعد . ثم خامر الشك بعض الاذكياء من هـذا القطيع الانساني . فهل اسباب الازمة اقتصادية ومالية فقط ؟ الا يجب ان نلقي تبعة هذه الجريمة الكبرى على فساد وفدامة ارباب السياسة ، والمال ، وعلى جهل واوهام رجال الاقتصاد ؟ وهذه الحياة الحديثة ، ألمْ تنقص ذكاء طبقات الامة كلها وادبياتها ؟ ولمْ نلتزم بدفع مئات الملايين من الدولارات لمكافحة المجرمين ؟ ولمْ يعيث اهل الشر فساداً برغم تلك المبالغ الطائلة ، فيهاجمون المصارف ، ويفتكون برجال الشحنة ، ويخطفون الاطفال ، ويفرضون الغرامات ، ويصرعون هؤلاء الاحداث ؟ ولمْ يزيد عاماً فعاماً عدد الضعاف والمجانين

أليس الازمة العالمية الشاملة متأتيةً عن عوامل فردية واجتماعية اكثر مما هي اقتصادية ؟ ونرجو ان يهيب بنا مشهد حضارتنا الآخذ بالزوال الى طرح هذا السؤال على ذواتنا وهو أليس سبب البلاء فينا كما هو في منشآتنا ؟ ان التجدد يصبح مستطاعاً عندما نتحقق لامسين ضرورته القصوى .

عندئذ فالمانع الوحيد الذي سيقوم بوجوهنا سيكون خمولنا لا غير وليس عجز سلالتنا من ان تنبعث سامية من جديد . وفي الواقع أنّ الازمة الاقتصادية قد جاءتنا ولمّا تتلاشَ فينا مزايا الجدود ذاهبة بالبطالة ، والفساد ، ورفاهية الحياة . ونحن نعلم ان الخمول العقلي ، والانحطاط الخلقي ، وارتكاب الجرائم ، هي في العادة صفات لا تنتقل بالوراثة . واغلب الاطفال يولدون مع استعدادات والديهم . وليس لهم الا ان يريدوا ليكمِلوا فيهم صفاتهم الغريزية ، ولدينا ابداً قوة الاسلوب العلمي بكاملها . وبيننا ، بحمد الله ، رجال قادرون على استخدامه بنزاهة وإباء . والمجتمع الحاضر لم يقض على معاهد التهذيب العقلي كلها وعلى مواطن الشجاعة الادبية ، والفضيلة ، والمروءة . فالمصباح اذن لم يخبُ . والشر قابل الاصلاح . بيد ان تجديد الافراد يتطلب تجديد شروط الحياة الحديثة . ولا يتم ذلك بسوى الانقلاب . فلا يغني اذن ان نفهم ضرورة الانقلاب ، وعلك عتاده ، ووسائله العلمية ، بل يجب على حضارتنا العلمية الهاوية ان تبعث دوافع انقلاب خطير كهذا في اشدِّ قوّتها .

« فهل نملك البأس وصدق النظر لمثل هذا الجهد البالغ ؟ ذلك ما لا يخيَّل الينا لاول وهلة . فرجل العصر الحاضر قد فتر متراخياً لا يبالي بشيء غير كسب المال . غير ان لنا داعياً للرجاء وهو ان نسل الأُلى شادوا العالم لم ينقرض بعد ، ففي دم اعقابهم المنحطّين قوة الجدود وفي استطاعة هذه القوة الكامنة ان تثب طافرةً . »

ثم يستشهد الكاتب على كلامه بما فعله الفرنسيون من بعد سقوط المملكة الرومانية وكيف عانوا الكروب ، وسيموا الخطوب ، وسالت دماؤهم دفاعاً عن الدين المسيحي ، ونجوا من طغيان الفاتحين الظالمين ؛ ثم تعاقبت اجيالهم جبّارة ملأى بالرجال . وكان ان العلم انبثق من فكر اولئك الرجال الذين تلقوا التهذيب المدرسي المعروف في غابر الازمان . فتعهّده رجال الغرب لنفسه وجماله بنزاهة عظيمة تامة . ويلقي العلّامة نظرة على الشرق فيحكم عليه حكماً قاسياً قد يخرج عن الحق في بعض مناحيه ولئن كان العلم في الصين ، كما يقول المؤلف ، قد ظلّ قروناً طويلة يستأثر به افراد معدودون ، لقد كان في غير اصقاع الشرق ملك الشعوب بأسرها بين الجميع على السواء . ومعاهد آثينا شهيرة وفلاسفتها ، وعلماؤها ، وشعراؤها كانوا ملك الامة جمعاء ولم يكونوا لنفوسهم بعلمهم . وطالما وقف امثال هؤلاء العظماء حياتهم على بثّ العلم في السّواد الاعظم وسقراط اشهر من ان يذكر ! ولقد سبقنا فبيّنا كيف كان الشرق منارة الدنيا في كل فن وعلم ، وكيف ان الحضارة الغربية هي وليدة الحضارة الشرقية القديمة .

ويمضي المؤلف حتى يخلص الى القول بأن ما انشأ رجال الغرب في الاحقاب الخالية يستطيع اليوم ابناؤهم ان يبعثوه من جديد وهم قادرون على انشاء حضارة اخرى جديدة . ولكنه يسأل نفسه : « هل نقدر ان نرفع ونرمم قبل ان نعاني المحنة الكبرى في دمارٍ شاملٍ ؟ وهل في وسعنا ان نعيد بناء ذواتنا ونتجنب الكوارث الملازمة له ، ونترقى في طريقنا الصاعدة ؟ »

واول وسائل التجديد عند المؤلف هي احداث تغيير في التهذيب العقلي وتوجيهه توجيهاً جديداً ، اما اساليب التهذيب القديمة فيجب ألاّ نأخذ بها على علاّتها قبل ان نستقريها سابرين . وكذلك يجب ان نتنكّب عن ضلال بعض الآراء فلا نأخذ بها فالانسان مركب من مادة وروح وليس ينبغي ان نفرق بينهما بل ان نعتبرهما معاً ، ولقد مرَّ بك شيء من هذا فيما سلف ، فهما متمازجتان متّحدتان تعملان كلتاهما في الحياة وهذا كلام المؤلف : « لا نستطيع ان نأخذ في تجديد ذواتنا قبل ان نغيّر تغييراً تاماً عاداتنا في التفكير . وعلى الحقيقة ان المجتمع الحديث قد عانى ضروب العذاب منذ ابتدائه من جراء غلطةٍ عقلية ألمَّ بها وكم عدنا الى ارتكاب تلك الغلطة منذ عهد النهضة !

واما علم الفن فقد انشأ الانسان لا على حسب روح العلم ولكن على حسب تصور ما فوق الطبيعة المخطىء . وقد آن الاوان لهجر مثل هذا التصور ، ووجب ان نحطم الحواجز التي قامت بين خواص الاغراض . وكان منشأ هذا الغلط فكرة العالم غاليليه اذ ميّز صفات

الاشياء الاولية في حجمها ووزنها ، وهي مما يوزن ، ففصل الصفة عن الكمية . وكان من جراء ذلك نتائج عظيمة الشأن فان ما لا يقاس ويوزن عند الانسان اعظم شأناً مما يقاس ويوزن ، فوجود الفكر امر اساسي كوجود بناء الانسان وانظمة جسمه ... ثم جاء ديكارت فقال بمبدأ الثنائية Le Dualisme في النفس والجسد فاصبحت مظاهر العقل مستحيلة الشرح والتعليل ، وانفصل ما هو مادي عما هو روحي انفصالاً نهائياً .

فوجب اذن ان نقوّم زيغنا ، ونتشبّع من روح رجال النهضة ، فلا نفرق بين الصّفات الاولية والثانوية ، فننظر اليها معاً ، ونعيد الروح الى جسمها ، وكذلك نتنكّب عن غلط رجال النهضة فلا نقيم الروحي مقام المادي بل نأخذ كليهما . فالخلاص اذن في هجر هذه المذاهب جميعها وفي الاخذ بنتائج الملاحظة والاختبار واعتبار ان الانسان هو خلاصة تلك النتائج .

« وتلك النتائج يجب ان تكون اساساً لتجديد الانسان فواجبنا الاول يقضي علينا باستخدامها . ونحن نرى ونتحقق منذ اعوام تقدم العلوم كلها ، ولدينا اكداس من المعارف متفرقة في الكتب والمجلات وفي ادمغة العلماء على اختلاف مذاهبهم فاذا استطعنا ان نجمع اشتاتها في طائفة من الافذاذ معدودة اصبح علم الانسان حينئذ خصباً مجدياً . ومما لا مراء فيه ان تجديد ذواتنا ، وتجديد بيئتنا الاقتصادية والاجتماعية يتطلبان معرفة دقيقة لجسمنا ونفسنا اعني علم

الفسيولوجيا ، وعلم النفس ، وعلم الامراض ... وبفضل هذه العلوم قد غدا الطب يملك الاركان الاساسية لمعرفة الانسان فبها قد امتدت نظراته الى شاسع الآماد وشمل النفس والجسد مع صلاتهما بعالم المادة والروح ...

ولكن هل من المستطاع ان يكتسب المرء هذه العلوم جميعها ؟ اجل ان اكتسابها ليس بالعسير على الذهن الجبار. فهو يقتضي درس ربع قرن درساً متواصلاً . واولئك الذين استطاعوا ان يصبّروا نفوسهم لهذا العمل العظيم، ويخضعوها لهذا النظام الدقيق يمسون اهلاً لان ينشئوا بناء الخلائق الناطقة، ويرفعوا حضارة تقوم لاجلها وحدها . وقد يكون من اللّازم لامثال هؤلاء العلماء ان يهجروا عادات الحياة اليومية السهلة ، ويرغبوا عن الزواج وبناء الاسرة ، فلا يستطيعون عند ذاك اللّعب بالبريدج وما اشبه، والاختلاف الى دور السينما، والاستماع للاذاعات، والخطابة في المآدب ، والانتظام في الجمعيات ، وشهود حفلات الاندية العلمية ومجالس السياسة ، ولا ركوب البحر ليحضروا المجامع العلمية ، فهم مضطرون ان يعيشوا كرهبان الرهبانيات الكبرى التي تكون غايتها التأمل ، وليس كاساتذة الجامعات وبالاحرى كثيراً كرجال الشؤون الحديثة .

« واننا لا نجد في تاريخ الامم الكبيرة كثيراً من هؤلاء الافراد الذين بذلوا نفوسهم عن بلادهم فالتضحية فرض واجب في الحياة. ونحن نجد اليوم كما كان في الامس رجالا متأهبين للتضحية العظيمة . فاذا ما

عدد سكان المدن الساحلية المفتوحة بالقذائف والغازات لا ترى طياراً واحداً يتردد في القاء نفسه وطيارته وقنابله على العدو المهاجم . فلماذا لا يبذل بعض افراد نفوسهم حتى يحصلوا العلم الضروري لتجديد الكائن الانساني المتمدن وتجديد بيئته ؟ اجل ان هذا العبء لجدّ فادحٍ ، ولكن هناك من يستطيع الاضطلاع به . اما هذا الضعف الذي نحس به عند علماء الجامعات والمختبرات في بعض الاحايين فهو ناشيء عن ضآلة وطرهم ، وضيق نطاق حياتهم . فالرجال يعظمون اذا استوحوا في حياتهم من مثل اعلى ، ونظروا ملياً الى آفاق واسعة . ولا يعز على المرء بذل نفسه اذا استوجفه هوس مغامرة عظيمة . ولا مغامرة اجل واجل خطراً من مغامرة تجديد الانسان الحديث !

فماذا يتطلب اذن علم تجديد الانسان ؟ وكيف الطريق اليه ؟ وما عتاده ؟ وقد رأيت شروطه البعيدة الخارجة عن الانسان ، وهو موضوع التجديد ، فرأيت ما يجب على العلماء ان يفعلوه ليستطيعوا التجديد ، ويكونوا خليقين بهذا الامر الجليل في الحياة . ولعمري ان من استطاعه فلقد اتى فَرِيّاً ، وصنع معجزة ، وبدت فيه قوة الخالق القدير اسمى ما بدت ! وقد رأيت كذلك هذه الحياة الصعبة القاسية التي يفرضها المؤلف بل يفرضها التجديد نفسه على العلماء فيحرمهم مُنى الدنيا وسائغ لذائذها فهم تقدمة زكية عظيمة على هيكل الانسانية ، وستجزيهم صحائف من نور وخلود !

بيد ان ذلك كله ليس بمجزيء مغنٍ ، فعلى المرء الذي يروم التجديد

ان ينهج نهجاً خاصاً في حياته وفي بيئته . وهذا ما يحدثك عنه المؤلف فيقول : « ان تجديد الانسان يقضي بأن يتم نمو جسمه وعقله على مقتضى السنن الطبيعية وليس على نهج اساليب المدارس الكثيرة المختلفة في تهذيبها . ومن الواجب على الفرد منذ حداثته ان يتحرر من نُظم المدنية الصناعية ومن المبادىء التي يقوم عليها المجتمع الحاضر . وفي استطاعة العلم ان يستخدم المنشآت القائمة بعد ان يحدث فيها تجديداً . اما هذا التقدم فيمكن الدُّوَل ان تتمَّه في بعض البلاد ، ويمكن الجمهور كذلك ان يقوم به . وفي الماضي قام الافراد فبعثوا التقدم في الدين ، والعلم والتهذيب . خذ لك مثلاً هرمان بيج فقد جعل مدينة نيورك من احسن مدن الدنيا في شروط الصحة . وخذ باستور وسواه ممن أنشأوا وخلقوا العلم فأسسوا معاهد علمية ثم اخذت الدول بعدهم تفتح المعاهد لتدريس ما اكتشفوا بعد اذ رأت الضرورة تدفعها الى مجاراة الافراد . وهذا معهد روكفلر يقوم بتجارب ربما ادّت الى نظريات جديدة في العلم من شأنها ان تساعد على تقدم الانسان وارتقائه .

« غير ان حل معضلات الانسانية بطيء جداً ربما استغرق اجيالا من العلماء . وعلى العلماء ان يتجردوا لبحوثهم ويدعوا جانباً سواها فلا يعنيهم بعدها شيء ، ولا يهمهم في تأملهم الصامت وحياة خلوتهم الا ان يبحثوا كيف يوفقون بين المدنية الحاضرة وبين الانسان الحديث دون ان يزيلوا مزاياه الاصيلة . فتأملهم يقي سكان المدن الحديثة من

الاختراعات الميكانيكية المضرة بأنسجتهم وعقولهم ، ومن فساد الافكار كما يقيهم من فساد الغذاء . وهو يمنع كذلك جسمهم وعقلهم من التلف . فشأنهم اعظم من شأن الشيوخ في مجلس الامة ، ومن علماء القانون القائمين على حراسة الدستور ، فهم قد وكلت اليهم حراسة السلالة نفساً وجسماً في جهادها الشديد ضد علوم المادة .

فالتجديد اذن يقوم بتمام النمو في جسم الانسان وعقله ولا بد في ذلك من مجاراة الطبيعة ، وسلوك سَنَنها القويم ، ولا بد كذلك من مجاراة البيئة والتأثير فيها . فهل يستطيع الانسان ذلك ؟ انه يستطيع بالجهد والجهاد ، فالانسان انما خلق للجهاد ، وتلك سنة الحياة . فاسمع اذن ما يقول المؤلف : « يقوم تجديد الانسان بنقله من حالة نقصه العقلي والادبي والجسدي التي احدثتها شروط الحياة الحديثة ، وبإعداد الاسباب لتتكمل فيه ضروب نشاطه الكامنة ، ونفحه بالصحة ، وإعادة وحدته وشخصيته المفقودة اليه ، ومحاولة ابلاغه في التقدم الغاية التي تتيحها له مزايا انسجته ووجدانه الموروثة ، وبتحطيم القالب الذي افرغه فيه المجتمع والتهذيب ، ونبذ الاساليب المتبعة برمتها .

ولادراك هذه الغاية علينا ان ننظر في الانسان من حيث هو مادة وروح وهما جزءآه المؤلفان ، ومن حيث هو تصله ببيئته صلات وثيقة ، فلا نستطيع تجديده الا اذا استطعنا تجديد العالم الذي يحف به . وهذا ليس من السهل ، فأوضاع المجتمع مكينة ثابتة وعلى ذلك يتحتم علينا ان نباشر العمل كيف كان . وكل فرد في مقدوره ان يبدل نوع حياته

فينشىء بيئته بين سواد العامة ، ويسنُّ قانوناً لنفسه في حياته المادية والعقلية يسير بموجبه ، وينصرف الى اعمال يستحبها مخيراً ، ويكتسب العادات التي يؤثرها ويكون سيد نفسه . ومن المحال عليه وهو منفرد ان يقاوم ما يكتنفه من بيئة مادِيَّة ، وعقلية ، واقتصادية ، فكان من اللازم ان ينضم الى عصبة ترى رأيه ولها مثله الاعلى . ولقد تمت الانقلابات المبدِلة في التاريخ بأمثال هذه العُصَب التي تغذي النوازع الجديدة ، وتبثها فيما حولها . والثورة الفرنسية اضرمها اصحاب دوائر المعارف اكثر مما اشعلها الجاكوبيون .

« فوجب اذن ان نجاهد اليوم مبادىء المدنية الصناعية بالثورة التي جاهد بها اصحاب المعلمات النظام القديم . وستكون المعركة اشدَّ وطيساً اذ نحن نرى ان انواع الحياة التي اوجدتها الفنون ، وانشأها اختصاصها ، افعل في النفوس من المسكرات والمخدرات . فعلى عُصَب الجهاد ان تنتظم صفوفها وتتكاتف متماسكة ، وتنشىء معاهدها لتلقين الناشئة واشباعها من روحها الجديد روح التجديد . ان في طوق العصبة مجتمعة ان تتحرَّر من رق المجتمع ، وتكسر اغلال عصرها بوضع نظام يشبه نظام الجندية والرهبانية . وليست الوسيلة جديدة فقد رأت مثلها الانسانية في القرون الوسطى في الرهبانيات ، والفرسان ، ونقابات العمال . فكان لكل من هذه الانظمة الثلاثة ما يفرض على المنتظم في سلكه التضحية ، وترك الحياة المألوفة ، وانتهاج حياة جديدة يستعد فيها افرادها للتضحية العظمى في الحياة . في امكاننا

اليوم ان نفعل ما فعلت تلك المؤسسات . ولا بد لنجاح الفرد من شرطين جوهريين الا وهما العزلة والنظام ، وفي استطاعة كل فرد ان يحققهما . فهو حرٌ في اصطفاء اصدقائه والذهاب الى دور التمثيل والسينما او الامتناع عنها ، وفي وسعه ان لا يستمع للمذياع ، وان لا يطالع بعض الصحف والجرائد ، وان لا يرسل أبناءه الى بعض المعاهد العلمية . ونحن نصبح قادرين على تجديدنا خصوصاً بنظام عقلي ، وادبي ، وديني ، ونبذ التخلق باخلاق الجمهور . وفئة مثل هذه الفئة قليلة تستطيع بقوة الاقناع او بالسطان ان تفرض على السواد الاعظم المسترسل الى ملذاته ، الواهن الارادة ، حياة جديدة . فان كل عقيدة اجتماعية قابلة للتبدل والتحول ...

وارى من الحكمة الوقوف عند هذه الخاتمة التي ينهي بها المؤلف درسه وأستقراءه حيث يقول : « ان التهذيب بلا رفاهية ، والجمال بلا اسراف ، واستخدام الآلة بغير استعباد المعمل ، والعلم بغير عبادة المادة ، هذه كلها تتيح للانسان ان يتكمل الى غير حد ويصون عقله ، وحسه الادبي ، ورجولته . »

وينثني المؤلف بعد هذا الى فكرة من فكره الراسخة التي ايدها مكرراً غير مرة وتلك هي تخير النسل او الاصطفاء وعدم حماية الضعفاء في المجتمع . فعلى الهيئة الاجتماعية ان تحسن انتخاب الافراد ، وتفرزهم عن السواد الاغلب ، وتعنى بهم عناية عظيمة ليجيء النسل سليما قوياً . اما الاصطفاء الذي يريده المؤلف وهو الاصطفاء الطبيعي فانه لم يقم

بواجبه منذ عهد عهيد . فالنُّخبة كانت ولا تزال القلب النابض الحي الذي يهب الحياة، والجمهور تابع لها مؤتمر بأمرها . ولا مساواة في الدنيا، فكلمة المساواة من تلك الكلمات الرنانة البعيدة الصدى ، المغرية ، وقد طالما خدعت بها الجماهير فمشت الى الموت تريده وسرعان ما اخفقت! والتاريخ ينبئك وثوراته تصدقك الخبر اليقين . ولمَ نريد المساواة في كل شي . والخالق لم يهبها ، فهذه الطبيعة بين يديك فتش هل ترى في أطوادها ، ووهادها ، وبحارها ، وقفارها ، مساواةً ؟ ، وهؤلاء البشر هل ترى في مواهبهم ، وعقولهم ، وسجاياهم ، وفي بنائهم وتجاليدهم ، وجمالهم وقبحهم مساواةً ؟

فمن العبث اذن بل من مخالفة الطبيعة ان نأخذهم جميعاً على وتيرةٍ واحدة غير فارقين ، فهناك صوت الطبيعة في فديده يعلو كل صوت ويسمع الاصم ! فالديموقراطية التي تـأبى ان تفهم ضرورة النخبة والاعتراف بها — كما يقول الاب روزيك — وعدم المساواة في العلم والفضيلة ، وهي تتذرع بكل ما لديها لتجعل الخلقَ في درجة واحدة لا تروم النجاح بل تحب ان تقضي عليه ، وستنتهي الى عاقبة سيئة ومستوى محزن . فلم يكن قط شعباً قوياً بغير النخبة . فكان لا بد للنجاح من النخبة . هذه النخبة التي عرفها السيد الحبر العلّامة جيبيه Mgr. Gibier : « بأنها كوكبة من النفوس الكبيرة قد وقفت حياتها على ادراك غاية شريفة فهي تناضل عنها ببأس سائرة على مقتضى سنن رشيدة جاهدة ان تدفع الجمهور في طريق الخير . »

لابدَّ اذن من النخبة ولكن دون ان نقضي على الضعفاء ونتركهم وشأنهم ، فنعود الى عصور الهمجية ، يوم كان قدماء اليونان لا ينظرون في الوليد الا الى بنيته فان كان من الضعاف مولداً ، فحظه الطرح من فوق الصخرة الكريية ، لايرحمون ولا يشفقون ، ولست احب ان آخذ برأي المؤلف دون ان القي في خلدك كلمة يقول بصحتها الاختبار واليقين وهي ان ضعف النسل اليوم ناجم عن مخالفة سنن الدين الاساسية ، فلو قام الآباء بواجباتهم الدينية وتقيدوا بها في حياتهم لما رأينا مثل هذه المشاهد الفاجعة ، ولا مثل هذا الضعف البالغ ولا هذه الآفات والعاهات . « فالآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون ! » فالافراد كما يقول العلامة يجب ان يعلوا او ينزلوا الى المستوى الذي تعدهم له مؤهلاتهم العقلية ، والخلقية ، والجسمية . وعلينا ان نمهد الصعود لاولئك الموهوبين جسماً وعقلاً . وعلى كل فرد ان ينزل منزله الطبيعي المعد له فبذلك يتم حقاً تقدم المجتمع وعمرانه

واذا روأنا قليلاً في كلام المؤلف عن النخبة وضرورة ايجادها بالاصطفاء او تحسين النسل فهمنا حق الفهم كلمة المؤرخ الفرنسي بوتمي Boutmy : « ان انشاء النخبة هو انشاء دماغ الشعب من جديد » فاذا اصطلحت المواليد وتكاثرت ونمت نمواً صالحاً فبشر الامة بارتقائها وبقائها او لا فبشرها بانحلالها وزوالها .

واذا القينا نظرة الى اوساطنا او قل الى شرقنا وتمهدنا حالة الامهات عندنا لم ندر ما يتنازعنا ويشجونا فالامهات طائفتان مختلفتان : طائفة في

وسعها ان تلد وتنتج وتربي رجالاً للوطن صالحين مصلحين ولكنها تأبى الا الأثرة ورخاء الحياة ومباهجها على اختلافها وتقتدي ببعض امم الغرب في الاكتفاء بطفل واحد ، وليس ثم رقابة ، ولا قانون ، ولا مكافأة ولا مشجعات ، ولا فكرة وطن عالية ، ولا نواهي دينٍ ووجدان تدفع الى التضحية العظيمة ، ومقاساة آلام الحياة بإباء وسرور . ولا تدري تلك الام التي تقضي على بذرة الحياة الزكية الطيبة على اي شيء عظيم تقضي ، ولا اي سنة علوية تخالف ، ولو علمت انها ربما حرمت الوطن النبوغ او العبقرية في رجل يعلي امته كلها ويكون المنقذ ، او المرشد ، او القائد ، او المجاهد ، او المصلح او المبتدع الخالد لما فعلت ولتحرّجت مما تأتي من الجرم الجسيم ! ؛ وطائفة لا تملك الوسائل المجدية فهي عاجزة عن تربية البنين مخافة الاملاق والابتلاء بضروب العناء في حياتها فتراها مضطرة الى اتيان ما ترتكب . فالشرق اذن متضعضع والامهات فيه مضطربات بين علم وجهل كلاهما مليم اثيم يختلفان في العقاب ولكنهما مؤتلفان في سوء المغبة وعاقبة الخراب .

واليك ما يقول المؤلف : « لا بد من تحسين النسل لاجل دوام النخبة ، فعلى السلالة ان تديم خير عناصرها . ونحن نلاحظ ان المواليد العريقة في المدنية قد نقصت وجاء فيها افراد ضعاف . ونساء اليوم قد ضللن عن غايتهن زائغات وحاولن ان لا يدركنها مختارات فهنّ لا يُردنَ الولادة . وهذا الخلل ناجم عن تهذيبهن ، وانوثتهن ، واثرتهن ، وهو

كذلك ناجم عن الشروط الاقتصادية ، وتضعضع حالة الزواج، وسوء التوازن ، وعن ضعف الناشئة وفسادها . فتحسين المواليد شأنه خطير في تحسين حال الامة جمعاء .

« وفي استطاعة الامة الساهرة أن تمنع انتشار الجنون والخبال ، وذلك بأن تعرض على المزمعين الزواج فحصاً طبياً ، لان شر المواليد الضعيفة المنتشر عن الامراض كالزهرة وما شاكلها أعظم حقاً من شر السفاحين واللصوص . ولا يجب أن يقدم احد على الزواج من مصاب بعلة موروثة ، فالجسم السليم والعقل السليم هما في غاية الضرورة للحياة المنتظمة الجميلة . وجميع مصائب الانسان متأتية عن بنائه الفطري والعقلي ، وفي شطر كبير عن الوراثة . ولا حق للانسان ان يجلب الشقاء لانسان آخر ، وان يلد ابناء معدودين للبلاء . ان على المجتمع الحديث ان يمكّن الكل ولا سيما النخبة المختارة من حياة راهنة مستقرة ، والفة طائفة يؤثرها الفرد على سواها ، وبناء مسكن ، وامتلاك حديقة ، وايجاد اصدقاء مخلصين . وعلى الآباء ان يتعهدوا بنيهم بأنفسهم وينشّئوهم كما يحبون . ولاجل ان تربي المرأة ابناء عالين في مزاياهم ومواهبهم يجب ان تتلقى التهذيب العالي ، لا لتنال به القاب الشرف ، والشهادات العالية ، وتكون طبيبة ، او محامية ، او معلمة . وعلى المجتمع الحاضر ان يتخذ جميع الذرائع الفعالة في سبيل اصلاح النسل . وليس من جوائز مالية او اجتماعية بالغة ما بلغت ، او القاب شرف سامية تكافئ خير المكافأة اولئك الذين يلدون النوابغ

في زواج صالح .»

ومن المؤثرات العظيمة في الاصطفاء العوامل الطبيعية ، والكيميائية ، والفسيولوجية والنفسية . وليس من ينكر ان هذه العوامل في استطاعتها ان تقلب المرء في اخلاقه ، وعقله وبنيته فتقوده اما الى النجاح او الى الخذلان والتأخر . لذلك نرى المؤلف يعير هذه العوامل اهتماماً عظيماً ويتبسط اولا في الكلام عن المناخ وملاءمته ونفعه وضرره ، فينصح بسكنى الاقاليم الباردة ، والبلاد المعتدلة في جوّها ذات الصيف القائظ ، والشتاء البارد ، والنور المعتدل او المائل الى شيء من الضعف ، حيث تهب العواصف شديدة وهي بطبيعتها فقيرة تكسوها الصخور . فتلك هي البلاد الصالحة للتربية وتخريج النخبة الموهوبة القوية . ومن يتأمل قول المؤلف مروّناً ثم يقرنه بما يرى امامه في لبنان الجميل يجد شبهاً عظيماً ، ويعرف حقاً ان لبنان بجباله الشماء ، وصخوره الجرداء ، وبرده اللاذع ، في عقابه وغابه ، وبقيظه الناهك في شطوطه وسواحله وعوامله الطبيعية الصالحة ، صالح لتربية الناشئة الموهوبة ، والنخبة المختارة ، والسلالة الكريمة فلقد مازه الخالق بما عز ان يوجد في صعيد من الارض قاطبة ، فهو الخلد على الارض كما قال عنه المرحوم شوقي !

ولو تعهدت لبنان اليد العاملة ، الدائبة المجدة ، ورؤوس الاموال المثمرة ، واتاح الله ذلك ، لرأيت لبنان منقطع النظير تهفو اليه عوالم الارض بأسرها فيكون مرتبعها ومصيفها . ولا ازال اذكر كلمة لجناب

البارون دي لاسيس في لبنان ومزاياه وهذا معناها : في اي بلد من بلاد الله يتمتع الانسان بما يتمتع في لبنان ، في مقدوره ان يعلو صاعداً دقائق معدودة فيتزلق على الثلج في رؤس القمم الشماء ثم يعود ادراجه منحدراً في البرد القارس الى الساحل فينغمس في البحر مستحما هانئاً !

وكذلك للعوامل الفسيولوجية شأن خطير في نمو الجسم وقوته وانت تعرف مبلغ اثر التربية في البنية ، فضروب النشاط البدني والعقلي وسيلة فعالة في اصلاح وتقدم صفات الانسجة والعقل . وانسجام الوظائف في الجسم صفة لازمة لنجاح الفرد ونموه وكماله . وللعادات تأثيرها . ولقد مرَّ بك كلام العلاَّمة كاريل في آثار الشراب والكحول وفيما للرياضة من اثر قالب . وكيف يستطيع المرء ان يتعود مواجهة الصعاب ، واحتمال عوامل الطبيعة من حر وبرد وصوم وما شاكل . ثم يختم المؤلف بكلمة نرى صدقها في حياتنا حيث اجلنا نظرنا وهي قوله يعانى العذاب الطبيعي برضى اذا رافقه نجاح جهد عهيد ، ويصبح الموت نفسه باسماً لذيذاً اذا كان في مغامرة عظيمة او شارك جمال التضحية او اقترن باستنارة النفس الغارقة في حضن الله . »

اما العوامل النفسية فشأنها لا يقل خطراً عن العوامل المتقدمة ، وترى المؤلف يدرسها درساً دقيقاً لا كطبيب فحسب ، بل كرجل حكيم مفكر ، يراها ويتحققها في حياته الخاصة وفي حياة من يتصل بهم . وما اكثر هؤلاء الذين يتصل بهم علاَّمتنا ! ان طبقات المجتمع

كلما تمر وهو يعرفها حق المعرفة ، وقد جاهر في مقدمته الممتعة انه عرف رجال العلم واختبرهم فاليك ما يقول : « ان للعوامل النفسية تأثيراً عظيما في تكمل الفرد فهي تساعد الجسم والعقل على استقرار شكليهما فالفرد الذي تعود التفكير والاستقراء ، يصبح قادراً على مواجهة الحالات الصعبة والتغلب عليها ، فهو مدافع عن نفسه ان هوجم . وهذه المقدرة على مجاراة الظروف والظفر بها تتطلب مزايا في الجهاز العصبي وفي الاعضاء والعقل ، فتنمو هذه المزايا متكملة بتأثير العوامل النفسية . فنحن نعرف مثلاً ان النظام العقلي والادبي من شأنه ان ينشىء توازناً أفضل وأكمل في الجهاز العاطفي ، وانتظاماً في النشاط العقلي والجسمي . والعوامل طائفتان : الطائفة الاولى هي الحالات الداخلية الوجدانية التي فرضت على الفرد فرضاً وقد فرضها الافراد والبيئة معاً : فالامن ، والفوضى ، والفقر ، والغنى ، والجهد ، والجهاد ، والفراغ والتبعة ، كل هذه توجد شروطاً عقلية من شأنها ان تبدل الافراد ، وتهبهم ، سمات تكاد تكون لهم وحدهم ، والطائفة الاخرى تعني الحالات الداخلية كذلك ولكنها تخص الفرد نفسه وتتوقف عليه كالانتباه والتأمل والادارة وما اتصل بها ...

« واعلم ان استعمال العوامل النفسية امر دقيق لطيف ، ونحن قادرون على هدي الطفل في تهذيبه العقلي . ففي استطاعة الاساتذة مع الكتب المختارة ان يدخلوا في عالم الطفل الافكار التي من شأنها ان تؤثر في تطور انسجته وعقله . وقد ذكرنا آنفاً ان نمو ضروب النشاط كالحس

الادبي والفني والديني مستقلة عن التهذيب العقلي . فالعوامل العقلية التي تستطيع ان تؤثر في ضروب النشاط هذه تعود الى البيئة الاجتماعية. فيجب اذن ان يوضع الفرد في بيئة صالحة . ومن اللازم ان يحاط بجو نفسي. ويعسر اليوم ان نهب الاطفال المنافع المتأتية عن الحرمان، والجهاد، وشظف العيش والتهذيب العقلي الصحيح . ويصعب كذلك ان نهبهم المنافع الناجمة عن كمال الحياة الداخلية . هذه الحياة الداخلية وهي الشيء الخاص المستكن، غير المنقسم، ولا الديموقراطي يعتبرها كثير من اهل الحفاظ في التهذيب خطيئة لا تغتفر . بيد أنها تبقى ينبوع كل ميزة غريبة، ومصدر جلائل الاعمال بأجمعها . وهي وحدها التي تتيح للفرد ان يصون شخصيته بين سواد الناس ؛ ويضمن حرية فكره ، وتوازن جهازه العصبي في فوضى المدنية الجديدة . »

اما تأثير العوامل النفسية في الافراد فمختلف اختلافاً بيناً فكان من الواجب ان يقوم باستعمالها افراد مهذبون يفهمون حق الفهم الخصائص الجسمية والعقلية . وعلى كل فرد ان يرسل نفسه على سجيتها وللشروط الاقتصادية والاجتماعية في الافراد عمل لا ينكر اثره في الامة . فكل يتأثر بحسب طبيعته ، والطبائع متباينة جداً في الخلائق كتباين الوجوه والاشكال لذلك كان لا بد من الانتباه لهذه الناحية في كل انقلاب يحدث ، وهذا فرض على علماء الاقتصاد والاجتماع . واول ما نلاحظ كما يقول المؤلف ان الاملاق ، والنجاح ، والحياة بين سواد العامة ، والعزلة ، لا تعين على التقدم الانساني . وعندنا ان الفرد

انما يبلغ كماله المقسوم في الجو العقلي الذي اوجده التمازج بين الاطمئنان الاقتصادي والدعة ، والحرمان والجهاد . وعواقب شروط الحياة متغيرة بحسب الفرد والسلالة . فالحوادث التي تقضي على البعض تسوق الاخرين الى الثورة والظفر . فكان من اللازم ان تطابق البيئة الاجتماعية والاقتصادية الانسان لا ان يطابقها . وان نعد لاجهزة الجسم الجو الذي تظل فيه على اشد نشاطها .

« وللعوامل النفسية اثر في نفوس الناشئين اعظم منه في نفوس البالغين . وفي هذا الدور من الحياة يجب ان نأخذ بالعوامل النفسية فنسير بموجبها وان رافق اثرها الحياة كلها . وكلما تقدم المرء في السن اشتدت الحاجة اليها فان اثرها جد نافع للجسم الآخذ في الهرم . وفي وسع الانسان ان يؤخر اجل هرمه اذا استطاع ان يحفظ عقله وجسمه في نشاطهما . فالمرء في حاجة الى النظام ابان كهولته اشد منه في ريعان شبابه . والهرم المبكر ان هو في الغالب الا ترك النفس وشأنها . وتلك العوامل نفسها التي تعيننا على تهذيبنا قادرة على ارجاء انحدارنا الى غروبنا . » وما اجمل كلمة الخاتمة عند المؤلف حيث يقول : إنّ الاخذ الرشيد بهذه العوامل النفسية يبعد عهد انحلال الجسم ويمنع الكنوز العقلية من ان تهوي في وهدة الشيب والفناء !

ولا بد للمرء من الصحة على كل حال ولاسيما في محاولة تجديده فهي رأس ماله الذي يتجر به ، ولذلك خص المؤلف الصحة ببحث خاص ، وهو يرى ان الصحة صحتان : صحة طبيعية ، وصحة اصطناعية . ونحن

ولا جرم نرغب في الطبيعية الناشئة عن قوة الانسجة ومقاومتها للامراض المعدية والمضنية الناهكة ، وعن توازن الجهاز العصبي ، ولا نرغب في الاصطناعية المرتكزة على النظام في الطعام وعلى التلقيح ، والمصل ، والمعاينات الطبية وسواها . وعلى الانسان ان يكون في حالة لا يحتاج معها الى هذه الوسائل جميعها . وان اعظم ظفر يحرزه الطب سيكون ولا شك اهتداءه الى الوسيلة التي نصبح لا نعرف معها المرض ، والعناء ، والوجل ! . . .

ويمضي المؤلف في كلامه عن الصحة فيبحث الاصطناعية وايجادها بذرائع العلم حتى ينتهي الى هذه النتيجة الخطيرة الا وهي ان الطب لا يجب ان يجتزىء بوسائل الوقاية من المرض فحسب كالانسولين من السكر مثلاً بل عليه ان يبحث عن اصل الامراض ليستأصلها . ويختم المؤلف بقوله : ان الطب لا يتم تقدمه باقامة مستشفيات اعظم واكمل ، وصيدليات آنق وامثل ، بل بايجاد نفرٍ من العلماء ذوي الخيال الحاد ، وبتأملهم في سكون مختبراتهم واكتشاف اسرار الجسم والعقل . فان اكتساب الصحة الطبيعية يتطلب معرفة جسمنا ونفسنا معرفة اوسع وابعد مدىً » .

هذه آمال الطب ، وتلك أقصى أماني الاطباء أن يهتدوا الى الوسيلة التي نغدو معها لا نعرف المرض والعناء والوجل ، فماذا نصبح حينئذٍ يا ترى ؟ أأنصاف آلهة ام آلهةً كاملين ؟ لا أدري ! ونحن كما تعلم مركبون ولا بد للمركب من الشعور بالالم وذلك حكم عادل .

وما اصدق كلمة العبقري باسكال في خواطره اذ يقول : « إنَّ ضروب شقاء الانسان كلها برهان ساطع على عظمته ! » فهل يزيل الطب شقاء الانسان فيقضي على عظمته ؟ لا أحد يظن ذلك !

ويذهب المؤلف بعد ذلك الى البحث في تنمية الشخصية فيرى العوائق المانعة لها ويعالجها فيقول : « يجب ان نرد الى الكائن الانساني الذي صبَّته الحياة الحديثة في قالبها الصلب شخصيَّته المفقودة ، ويجب ان تعود الأجناس من جديد الى فروقها وحدودها فيعرف كل شخص نفسه اهو ذكر أم انثى . ويقضي عليه تهذيبه أن لا يبدي نزعاته الجنسية وخلائقه العقلية ، واطماع جنس غير جنسه . وما يهمّ هو ان يتكمل في غنى نشاطه الخاص المتنوِّع . فالبشر ليسوا بأدواتٍ مصنوعةٍ مقسومةٍ إلى طوائف . ونحن مضطرُّون حتماً إلى كسر قوالب المدرسة ، والمعمل ، والمكتب ، وطرح مبادىء المدنيَّة الفنيَّة حتى نؤلف الشخصيَّة فيهم من جديد .

وهذا الانقلاب ليس بالمستحيل ، وتجديد التهذيب مستطاع دونَ أن نغير المدرسة كثيراً ، وما يجب أن يتبدَّل هو هذا الشأن الذي نعزوه إليها . ونحن نعلم أنَّ الكائنات الناطقة أفراد لا يستطاع تهذيبهم جماعاتٍ ، وان المدرسة لا تغني عن البيت ولا تقوم مقام التهذيب الذي يلقنه الاهل . انَّ ارباب المعاهد العلميَّة يقومون حسناً بواجب التعليم ، غير انه من اللازم تنمية ضروب النشاط الأدبي ، والفني ، والديني عند الطفل . وعلى الاهل واجبٌ لا يستطيعون التخلي عنه في تهذيب بنيهم

وهو يتطلب استعداداً . أليس من الغريب أن لا يخصص معظم وقت الفتيات لدرس الاطفال في جسمهم وعقلهم ولدرس أساليب التّهذيب ؟ يجب ان تعاد الى المرأة وظيفتها الطبيعيّة وهي ليس ان تلد اولاداً فحسب بل ان تقوم على تربيتهم بنفسها متعهِّدةً .

ويبحث بعد ذلك عن حال العامل في الماضي وكيف كان على قسط وافر من الحرية في عمله يتهيأ له معه الاختراع والابتكار ، اما اليوم فيجب ان يعيد المجتمع الى العامل حالته الاولى . ويذهب البحاثة الى مدى ابعد فيقترح ان ينصرف شبان الامة كلهم الى العمل في زمن محدود كالتطوع في الخدمة فيكفون عند ذلك العامل المسكين هذه الحياة حياة الشقاء . ويتألف الناس طوائف صغيرة بدل ان يسيروا قطعاناً عظيمة فيحتفظ حينئذ كل بمنزلته و كرامته في طائفته الخاصة ، ويبطل ان يكون المرء جهاز اداة فيصبح فرداً من افراد البشر . ولقد غدت حالة العامل الرقيق اشبه ما تكون بحالته في عهد الاقطاعات فهو في رق دائم .

هذا رأي المؤلف وهو من باب ابداء الرأي ، وتحقيقه صعب جداً . وخذ التاريخ تجد ان العامل المسكين قد كان على توالي الاحقاب كما تراه اليوم في ضنك وفاقة بل انك لتجده اليوم خيراً منه في امسه ، وتعرف حقاً ما قامت به الكنيسة الكاثوليكية في سبيل ابطال الرق واصلاح العامل . ومكانة العامل من المجتمع عظيمة ، فلقد عرفت كل امة ما لرجل العمل من فضل في بناء الامة وتقدمها وعظمتها . وما

اصدق فيه قول شاعر الاقطار العربية مطران :

رفقاً به وتذكراً لجميله — او رأفة لشقائه المتمادي

وهو الذي فتح الملوك فتوحهم — بهديتيه المال والاولاد

وهو الذي لم تبنَ رفعة امة — الا على ايدٍ له وايادي !

ثم يعود الكاتب الى فكرة من فكره الراسخة وقد كررها مراراً اثناء بحثه في المدنية الحديثة وهي ان المدنية قد جعلت لاجل الانسان . فاذا طغت وحاولت ان تقضي على شخصيته فيجب ان تضحّى في سبيله . ويتابع فيقول : « لو اعترفت المدنية الحديثة بشخصية الخلائق الناطقة ، لقبل المجتمع ان يسلم بعدم مساواتها . فكل فرد من افراد البشر يجب ان يستخدم في ناحية مواهبه الخاصة . ونحن حين جربنا ان نقيم المساواة بين الناس قضينا على الخصائص الفردية الجليلة النفع ذلك لان سعادة كل فرد متوقفة على موافقته لنوع حياته موافقة صادقة . وهناك وظائف شتى في امة حديثة العهد فكان من الواجب ان نجهد في تنويع انماط الناس بدل ان نوحدها ، وان نزيد هذه الفروق بينهم بالتهذيب وعوائد الحياة . لكن المدنية الصناعية بدل ان تقول بالاختلاف الضروري بين الخلائق العاقلة قد قسمتها الى طبقات اربع هي طبقات الاغنياء ، والفقراء ، والفلاحين والاوساط . فالمستخدم ، والمربي ، والجندي ، والكاهن ، والطبيب الصغير ، والعالم ، واستاذ الجامعة ، والتاجر ، كل هؤلاء الذين يؤلفون اهل الطبقة الوسطى متشابهون في حياتهم . ولقد انتظمت هذه النماذج المختلفة انتظاماً لم

يكن على حسب الشخصية بل على حسب المركز المالي . ومما لا مراء فيه هو ان هذه الطوائف المتعددة لا مشاركة بينها . فضيق المجال في حياتها يقضي على خيرة افرادها اولئك الذين هم اهل لان يكبروا وهم دائبون على ابلاغ قواهم العقلية كمالها الاعلى »

« ولا يكفي في العمل على تقدم المجتمع ان ننشىء المعاهد ، والجامعات ، والمختبرات ، والمكاتب ، والكنائس ، بل يجب ان نساعد الذين يتجردون لاعمال العقل ، فنعدّ لهم الوسائل التي تبلغهم كمال شخصياتهم على حسب استعدادهم الفطري ، ومثلهم الاعلى العقلي ، كما رأينا في القرون الوسطى الرهبانيات تتخذ نظاماً في حياتها من شأنه ان يبلِّغها كمال النسك ، والروحانية ، والفكر الفلسفي . »

وان الفت نظرك الى شيء من ملاحظات المؤلف في تنمية الشخصية فالى هذه النظرة الصادقة التي ينظرها كل مروىء في احوال عصرنا وما غدت فيه المادة ، فلقد طغت امواجها فأغرقت كل شيء عقلي وروحي . فهي اليوم كل شيء وخطابها فصل الخطاب ولا عجب فالمدفع فمها الناطق !

واسمع آيات المؤلف في مادّية حضارتنا القائمة فهو يقول فيها : » ليست مادية حضارتنا الغليظة تعترض انطلاق الذهن فقط ولكنها تسحق سحقاً ذوي الاحساس ، واللطاف ، والضعاف ، والمعتزلين ، ومحبي الجمال الذين يبحثون عن غير المال في الحياة ، وهم برقتهم لا يطيقون ابتذال العصر الحديث . وقديماً كان في استطاعة هؤلاء الذين

نشأوا لطافاً جداً ، او ناقصين كثيراً ، ان يتكملوا احراراً . فكان بعضهم ينفردون خالين بنفوسهم ، وكان بعضهم ينحون الاديار الرهبانية حيث يجدون حياة الفقر والعمل و كذلك حياة الكرامة ، والجمال ، والسلام . فعلينا اذن ان نساعف امثال هؤلاء الافراد على ايجاد بيئة تلائمهم بدلا من شروط المدنية الصناعية المختلفة . »

وهناك ايضاً شأن من الشؤون الخطيرة التي لا يغفلها المؤلف الا وهو مشكلة المعوهين والمجرمين في المجتمع . ونحن لعمري نرى هذه الطائفة يملأ افرادها جوانب المجتمع وهم يعيثون فساداً وينشرون وباءهم الخلقي الوبيل حيث كانوا ويفسدون الاصحاء وقداعيت فيهم كل حيلة . وتعرف ماللمجرمين من آثار في العالم المتمدن وخصوصاً في العالم الجديد . وجناياتهم في دهائها وغرابتها تحير وتحمل حيناً على الاعجاب . وخطف الاطفال ليس من يجهله وقد ذاقت اميركا من بلائه الاهوال !

أما مسألة المعوّهين فقد باتت خطيرة ويخشى العالم أن تسري عدواهم الى السالمين . فعلى قادة المجتمع ، وزعمائه ، وساسته أن يجدوا حلًا لهذه المعضلة ، ويعملوا في سبيل انقاذ الجماعات من وباء المعوّهين والمجرمين ، فذلك شأن خطير في حياة الامم . والحكومات تنفق المبالغ العظيمة من خزائنها على هؤلاء المصابين . وللمؤلف رأي سديد في تلافي هذا الداء ، واصلاح الخلل فهو يجد بأن الخلاص من هذه الآفات والعاهات لا يقوم ببناء سجون أوسع وأصح ، ولا بتشييد مستشفيات أفخم واسلم ، فلن نستطيع ان نقضي على الجنون والجرائم

الأ بمعرفة أدق واعظم للانسان ، وبتحسين النسل ، وبانقلابات خطيرة في التهذيب والشروط الاجتماعيَّة . وفي فترات الانتظار هذه يجب أن نعنى عناية عظمى بالمجرمين . وربما ساق التبصر الى الغاء السجون واستبدالها بمؤسسات دونها بناء وكلفة ، وكان اخضاع المجرمين الأقل خطراً للحد بالسوط او لأي وسيلة اخرى كافياً لاقرار النظام وتوطيده. على أن أولئك الذين ارتكبوا جريمة القتل او السلب أو خطف الاطفال أو نهب الفقراء ، أو خدعوا الجمهور ، فيقيني أنَّ مكاناً صحياً مناراً هو كاف لايوائهم وراحتهم. وكذلك قل عن المجانين الذين اقترفوا الجرائم. فلا يجب أن نتردَّد في تنظيم المجتمع الحديث على مقتضيات الفرد السليم . أما المذاهب الفلسفيَّة ، والظنون ، فيجب ان تزول أمام هذه الضرورة القصوى . وبعد فغاية المدنيَّة العظمى انما هي تنمية الشخصيَّة الإنسانيَّة .

وإذا عدنا الى مجتمعنا الشرقي وبحثنا فيه عن أسباب تنمية الشخصيَّة فهل نجدها بيننا ؟ لا شك أن كلها أو جلها مفقود واذا المؤلف لم يجدها في بيئات الغرب الراقية افنجدها نحن في ديارنا الفقيرة ؟ لقد قضى عليها عندنا الجهل . فالعامة لا تبرح الى الآن السواد الاعظم ، والأمهات وبين أيديهنَّ ، وتحت رعايتهنَّ ، تنمو الشخصيَّة وتتكامل المواهب ، وتستجمع اسباب النبوغ ، لا يزال معظمهنَّ جاهلات ! وهل رأيت لبان الجهل يولي النبوغ ويعظم المزايا ؟ والى جانب الجهل نلمس الفقر القتَّال ، وكم من مواهب ذهب بها الفقر وطمرها في الارياف

والقرى على طيب مناخها وعذب مائها وعليل هوائها مواهب جمة ، واجسام سليمة ، وعقول نيّرة ، ولكن هناك جيوباً فارغة عادمة الوسائل ، فلا ثقافة ولا تهذيب ، فهي باقية كالماس في منجمه لا تتولاه يد تبديه وتصقله فيكون له قدره واشراقه وغناه !

وهب ان الشخصية بلغت كمالها المقسوم فأين المجال لها في الشرق ؟ هذا كاتب من ابلغ الكتاب واعلاهم تفكيراً وتعبيراً فماذا يكتب في الشرق ؟ و كيف يعيش من شق قلمه ؟ ما اصدق قول الشاعر العربي القديم :

أفٍ لعيش الكتبَه	أفٍ له ما أصعبَه !
يُرتشف الرزقُ بهِ	من شِقِّ تلك القصبَه !

يكتب الكاتب في الغرب فيشتهر وتقبل آلاف الخلائق على مطالعته واذا عشرات الآلاف من مؤلفاته تنشر بين ايدي الجماهير فتعود عليه بالرفاهية والرخاء في حياته المادية فلا تتقسمه بعد اليوم شواغل جمة ، وتراه ينصرف بكل نفسه الى الانتاج والابداع لاهمّ له سواهما . وقل كذلك عن المصور ، والموسيقي ، والصانع ، والمخترع ، ولا اقول ان تنمية الشخصية لا تعترضها في طريق كمالها مصاعب جمة في الغرب ولكنها على كل حال سهل تذليلها . فهناك الثقافة مبذولة للموسر والمعسر على السواء ، وهناك الحكومات تساعد على استكمال مواهب الافراد النابغين ، وهناك رجال الاختصاص في كل فن وعلم . وانظر الا ترى ان العلم عندنا يحتاج اليه كوسيلة لعمل او لمنصب ؟

واساتذةُ معاهدنا العلمية وهم المنقطعون الى الدرس ، والبحث ، والتنقيب ، وبلوغ كمال الشخصية ، هل فيهم رجال الاختصاص الثقات ؟ انهم لا ينصرفون الى الدرس بكل نفوسهم لما يعلمون من ان هذه المهنة لا تعد مركزاً ولا تؤمن حياة فهم يتخذونها مرحلة يقطعونها باحثين في هذه الفترات عن سبيل للرزق سواها يستطيعون ان ينعموا معه بالرفاهية والطمأنينة ، وما اكثر في الشرق امثال هؤلاء الاساتذة ! وكذلك قل عن أرباب الصناعة والتجارة فهم والحق يقال لا ينفسح امامهم مجال عظيم للكسب والاثراء ، ولذلك كانت الشخصية في الشرق ضائعة على عظيم مواهبها ، وغنى استعدادها ، وثروة فطرتها ، ولا يدرك الشرقي كمال الشخصية الا اذا اغترب بل ان مواهبه لتنتظر ان يركب البحر ، ويجاوز الافق ، حتى تلمع وتسطع باهرة !

وبعد فان المؤلف العلّامة يعود قبيل الختام فيلقي نظرة شاملة على العالم الانساني ليقول بأن اعادة الانسان الى نظام نشاطه الجسدي والعقلي من شأنها ان تغير العالم ذلك لان العالم يبدل وجهه على وفق حالة جسمنا . فليس الانسان من المادة وحدها . وعالم دانتي ، وامرسون ، وبرچسون هو في الحق اوسع من عالم بأبيت ، ولا جرم ان حدود الكون تكبر ويتسع مداها مع قوة ضروب نشاطنا الجسمية والعقلية .

« فعلينا اذن ان نحرر الانسان من العالم الذي انشأته عبقرية علماء الطبيعة والهيئة ، وهذا العالم الذي سجن فيه منذ عهد النهضة . ان عالم المادة الصماء على جماله وعظمته لجد ضيق بالانسان وهو كبيئتنا

الاقتصادية والاجتماعية لا يناسب مقدرتنا ، وليس في استطاعتنا ان نثق بحقيقته وحدها. ونحن على يقين من انه لا يحتوينا بل نمتد في حدود غير حدود العالم الطبيعي . فالانسان مادة وكائن حي وهو مجمع النشاط العقلي على اختلاف ضروبه . ووجوده في فضاء العوالم الواسعة حقير لا يؤبه به . على انه ابعد من ان يكون غريباً في مملكة المادة وبين عجائبها . فترى عقله يضطرب دون عناء في ارجائها الواسعة بالتجريدات الرياضية . بيد انه يؤثر ان يتملّى وجه الارض ، والجبال ، والمحيط . وقد ابدع على شبه الاشجار والنبات والحيوان ويلذه ان يكون بينها . وتربطه صلات اشد وأقوى ببدائع الفن والآثار ، وعجائب المدنية الآلية ، وبصحبه ولفيف اعزائه ، فهو يعدو المكان والزمان ويمتد الى عالم ثان . ومن هذا العالم ، وهو في الحق ذاته ، يستطيع اذا شاء ان يجوب الدوائر اللانهائية : دائرة الجمال الذي تتملاه انظار العلماء والفنانين والشعراء ، ودائرة الحب الباعث على التضحية ، والبطولة ، والكفر بالذات ، ودائرة النعمة وهي الجزاء الاسمى لأولئك الذين نصبوا نفوسهم للبحث عن مبدأ كل شيء . ذلك هو عالمنا .

وان ما يعني بحاثتنا الكبير هو تجديد الانسان واصلاح حاله ، وقد رأيت فيما مرَّ بك كيف يكون ذلك وها هو في اواخر كلماته ينهج لنا النهج الامثل فيقول : «لقد آن ان نأخذ في عمل تجديدنا دون ان نرسم الخطة فهي تقضي على الحقيقة الحية» ... ولا يريد ان يتقيد ويقيم الحدود للمستقبل ، بل ان ينطلق من كل قيد وان يعمل ابداً . ولذلك : « يجب

ان ننهض ، ونسير ، ونتحرر ، من ربقة الاختصاص الاعمى ، ونحقق اسمى ما تستطيع قوانا الظاهرة والكامنة على اختلافها فلقد ارتنا علوم الحياة ما هي غايتنا ومهدت لنا السبيل الى ادراكها . بيد اننا لا نزال غارقين في بحر العالم الذي انشأته علوم المادة الجامدة غير محترمة سنن طبيعتنا ، وفي عالم لم يخلق لنا فلقد أوجد بضلال من عقلنا ، وجهل لذواتنا ، وليس في مقدورنا ان نتكيف به في حال . فسنثور اذن عليه ، وسنحوّل قِيَمَه ، وننظمه على وفق ما يلائمنا . ان العلم يتيح لنا اليوم ان نكمل قوانا الكامنة فينا . ونحن نعرف محركات صنوف نشاطنا الفسيولوجية والعقلية المستترة ، واسباب ضعفنا ، ونعرف كيف خالفنا سنن الطبيعة ، ولماذا عوقبنا وتخبطنا في الظلام ، وها نحن قد اخذنا نلمح من ثنايا سحب الفجر طريق خلاصنا .

« وهذه اول مرة يحدث في تاريخ العالم ان حضارة على وشك زوالها تميز اسباب دائها . وعسى ان تنتفع من معرفتها هذه لتتلافى بفضل قوة العلم العجيبة نهاية الشعوب العظيمة الغابرة تلك النهاية المتماثلة . فعلينا اذن ان نمضي قدماً في الطريق الجديد منذ الساعة . »

هذا دعاء المؤلف الى المضي قدماً في الطريق الجديد الذي رفع لنا معالمه . ويا حبذ لو القت الانسانية سمعاً واصغى قادة الشعوب وقادة الفكر الى هذا الدعاء الخالص فانثنوا جميعاً يتعرفون الى غير عالم المادة ، ويفكرون في اسرار عقلهم وجسمهم ، وتحققوا ان المادة ادنى من ان

تكون غاية في الحياة وكل شيء. فيها اذن لرأيت العالم على غير حاله الحاضرة التاعسة ، ورأيت العقل مسلطاً على الهوى ، والاطماع محدودة والسلام سائداً ، والانسان انساناً بكامل معناه ، والمادة في منزلها الخليق بها فليست كل شيء في الحياة ! وما اصدق الشاعر القائل :

أقبِل على النَّفس واستكمِل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم انسان !

بيروت ١٧ ايلول سنة ١٩٣٨

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٦	حالِيَّة	حالِيَةً
٤	١١	سنِي	سَنَى
٥	١٣	اللِّينوتيب	اللِّينُوتيب
١٤	٢٠	يشفِي	يشفِي
١٩	١١	جدُ	جِد
٢٦	١	ولا تزال	ولا تُزال
٣١	٢	يؤدهم	يوودهم
٣٢	١٦	المتبكرات	المبتكرات
٤٠	٧	آرائه	آراءه
٤٥	١٨	يسير	يسبر
٤٩	١٧	والمسارح	المسارح
٥٨	٧	للفضل	الفضل
٦٤	١١	العلم	العالم
٦٥	٢٠	العاطق	العاطق
٧٧	١٠	أعضاءها	اعضاءها

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨١	١١	استجماع	واستجماع
٩١	١٨	في التهذيب	والتَّهذيب
١٠٢	١٥	طَال	أطال
١٠٥	٢٠	يخلى	يُخلي
١٠٩	٩	يُنصبوا	يَنصبوا
١١١	١٦	فيغريها	يغريها
١١٤	٥	الاختلاط	الاخلاط
١١٥	١٢	يحمرُّ	ويحمرُّ
١٢٢	١٠	وتلك	تلك
١٣٢	١٥	Le concrets	Le concret
١٣٥	١٧	المتنهبون	المتنبّهون
١٣٨	١٥	المرضى	المرض
١٣٩	١٧	تغني	تعني
١٤٣	١٤	الشرب	الشَّراب
١٤٨	٦	تنخلُ	تنحلُ
١٤٨	١٩	تهذياً	تهذيباً
١٥٢	١٧	بِلاد	بلادِ
١٥٩	٩	نغرق	نفرُق

الاوضاع الجديدة

استشراف	Télévision
تحليل	Analyse
تركيب	Synthèse
قَصَف	Fragilité
المكاشفون	Les clairvoyants
المكاشفة	La clairvoyance
الزَّكانة	L'intuition
متأثر	Affectif
أثرة	Egoïsme
جَوَّابة	Touriste
الروحانيّة المسيحيّة	La mystique chrétienne
اجتلاء	Contemplation
الحياة المستنيرة	La vie illuminative
هزّة النفس	Enthousiasme
مُنحطّ	Inférieur
أبهاء التّجميل	Salons de beauté
مِحجَب	Diaphragme
الصريح	Le concret

فهرس

